

الأسرائيليون الجدد

مشهد تخميلي
لمجتمع متغير!

يوسي ميلمان

ترجمة: مكالم فاضل البديري

الطبعة
للنشر والتوزيع



للنشر والتوزيع

الملكة الأردنية الهاشمية - عمان / وسط البلد
خلف مطعم القدس / ص.ب ٧٧٧٢ - هاتف ٦٦٨٦٨٨
فاكس ٦٥٧٤٤٥ ♦

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الترجمة

الحمد لله على فضله . . . وبعد

أحقاً أن إسرائيل لم ترسم خارطة وضعتها على بوابة الكنيست ونقشت عليها عبارة أن حدود إسرائيل تمتد من النيل إلى الفرات، هكذا يقول مؤلف هذا الكتاب. بيد أن شهود عيان قالوا أننا رأيناها، وما يؤكد قولهم هذا أن إعلان الاستقلال لدولة إسرائيل نفسها عام ١٩٤٨ لم يشر إلى حدودها فهي وراءها حدود كثيرة ومستوسع فيها.

استهل المؤلف في مقدمته ذكر حقيقة الفزع والخوف والضيق التي عاشها الإسرائيليون اليهود داخل إسرائيل أثناء حرب الخليج وتلك حقيقة لن يبالغ فيها المؤلف بشيء بل هي حقيقة قائمة راسخة ظلت دوماً مخفية على الشارع العربي. فقد صور العربي للعربي أن اليهودي الإسرائيلي تنين لا حول لنا عليه ولا طاقة. وهنا يأتي صاحب عقل وقلم يهودي إسرائيلي عاش منذ نعومة أظفاره في إسرائيل وخبر كل خفاياها ليقول أننا لسنا كذلك: «نحن لا زلنا لانعرف أية هوية نمتلك ونحن يهود أم إسرائيليون؟». إن الإسرائيلي كالمسائح الجوال حاملاً حقيقته على ظهره ليتجه صوب يجد مصلحته وحيثما لن يجد في إسرائيل نفعاً له غادرها وولاهها. ونحن إذ تبصرنا في هذا القول اليهودي الإسرائيلي لو وجدنا أننا لو شئنا أن نحارب إسرائيل ونتجنب العالم فعلينا أن نضع سلاحنا أيضاً جانباً وأن ننخر إسرائيل من داخلها كما ينخر النمل أساس المنزل أي أن علينا أن ندع الإسرائيلي نفسه يفكر أن يحمل نفسه من إسرائيل وبمعنى صريح آخر أن الإسرائيلي لو استوعب فكرة أن مصلحته مهددة داخل إسرائيل لغادرها إلى أية بقعة يجد فيها ضالته وتلك حقيقة أدرجها المؤلف نفسه بقوله غير المباشر أن رجل الأعمال الإسرائيلي باق في أحياء نيويورك مفضلاً إياها على تل أبيب.

وذهب المؤلف في مقدمة إلى أبعد من هذا الأمر ليقول أن الصواريخ العراقية قد أشعرت

الاسرائيلي لأول مرة ان اسرائيل يمكن لها أن تكون ذات يوم ساحة حرب حقيقية . هذا الشيء بعينه قد حاولت اسرائيل دوماً أن تنأى بنفسها عنه وهي قد سمحت دوماً إلى نقل ساحة الحرب إلى أرض أعداءها . هذه المعلوماتية على قدر كبير من الأهمية لأنها تعني في الجانب العسكري ان اسرائيل (لا تملك بعدا عسكرياً) وهو أمر يقودنا إلى الافتراض هل ان اسرائيل ستجوز على استخدام سلاحها (النووي!) لو دارت رحى معركة بيننا وبينها قرب (حدودها) برغم انها لا تملك حدوداً وهذا ليس بالافتراض بل ان حتى (اعلان الاستقلال عام ١٩٤٨) لم يتطرق إلى مسألة الحدود بنفس الصيغة التي يتطرق فيها إلى مسألة الهوية الاسرائيلية او اليهودي الصهيونية .

يقول الكاتب ان العدو العربي هو العدو الأول لاسرائيل برغم ان العربي لم يكن اذى لليهودي مالم يسابقه اليهودي إلى الأذى ولم يفعل به ما فعلته النازية باليهود . ان عداونا لليهود انها قد اغتصبت أرضنا وشردت شعبنا وهدمت المنازل وقتلت الأطفال وقبل هذا التاريخ لم يكن لنا مع اليهود شيئاً فكانوا يعيشون سالمين في بلداننا العربية في اليمن او العراق او المغرب على سبيل المثال لا الحصر فايها عدو الآخر .

حاول المؤلف في كتابه هذا ان يخلق لليهودي واسرائيل تاريخاً إلا انه فشل وتخط على غير هدى حين ناقض نفسه بالذي قدمه اليهود للحضارة ، أهم الجنود أم المزارعون؟ فترك الماضي القديم ولجأ في خطوة واحدة طولها ألف ميل ليصل إلى حرب ١٩٤٨ وحرب ١٩٦٧ اللتين أراد بهما ان يجد اسرائيل المعجزة وأن يحيط من شأن العرب كثيراً متجاهلاً أو متناسياً حقائق التاريخ، بل انه أنكر حتى فضل الإنجليز عليهم في حرب ١٩٤٨ . لقد انتهى الإنتداب البريطاني لفلسطين في الساعة الثانية عشرة من ليلة ٥١ أيار عام ١٩٤٨ وخلفت بريطانيا وراءها لليهود كل ترسانتها من الأسلحة في فلسطين، أما من اشترك فعلاً وقاتل فعلاً فهما الجيش الأردني والجيش العراقي واكتفت مصر بلواء نظامي واحد وسوريا ببعض المليشيات بالإضافة إلى متطوعين من اليمن أو السعودي لا يتجاوز عددهم ثلاثمئة فرد . لقد قاتل الجيش الأردني حتى وصل أسوار القدس واشتبك مع اليهودي من غرفة إلى أخرى بالسلاح الأبيض وتقدم الجيش العراقي حتى وصل شرقاً إلى البحر المتوسط بيد أن كلا الجيشين كانا تحت الإمرة البريطانية فان تقدما كيلومتراً واحداً تراجعاً عشرة كيلومترات بأمر من الحكومة البريطانية . أما حرب عام ١٩٦٧ فقد خسرها العرب لأنها لم تكن بمشيتهم أن يخوضوا تلك الحرب في ذلك الوقت . كانت العلاقات الأردنية المصرية مقطوعة آنذاك وقبيل الحرب بيضعة أيام طار الملك الحسين ملك الأردن إلى مصر بمعية ثلاثة من رجاله فقط مرتدياً

زیه العسکری وحين نزل من الطائرة التي كان يقودها بنفسه إستقبله الرئيس الراحل جمال عبد الناصر على مدرج المطار وأمضيا ساعتين من الحديث داخل قاعة المطار قال فيها الملك الحسين الى الرئيس جمال عبد الناصر إننا لانقوى حالاً على مقاتلة إسرائيل في هذه الأيام فنحن لم نحصل على السلاح بعد، وطلب اليه ان يؤجل الحرب مدة ثلاث سنوات حتى عام ١٩٧٠ بيد أن الرئيس عبد الناصر رفض ذلك وأصر على خوض الحرب في وقتها المحدد حتى وإن قاتل لوحده «لست بحاجة الى مساعدتكم أيها العرب». ولما وجد الملك الحسين أن الرئيس عبد الناصر لن يتراجع عن موقفه قيد أنمله سلمه قيادة الجيش الأردني الذي تولى إمرته عبد المنعم رياض الذي كان يحمل ثلاث شهادات دكتوراه في العلوم العسكرية ومع ذلك أوعز للدبابات بالتحرك في وضوح النهار وبدون غطاء جوي من شمال القدس الى سيناء أما الجيش السوري فقد دخل المعركة في يومها الثالث ولست ساعات فقط سلم فيها مرتفعات الجولان وبقيت الطائرات المصرية جاثمة في مطاراتها حتى أخذت الطائرات الإسرائيلية تنتقي منها الواحدة بعد الاخرى فمفتش سلاح الجو المصري كان يهودياً يحمل جواز سفر تركي وصل مصر في مطلع الخمسينات ويات الرجل الرابع في الدولة المصرية . هذه إذن هي طبخة حرب ١٩٦٧ التي سلمت فيها مصر الجولان وقطاع غزة والضفة الغربية .

وبعد ، فاني ساترك للقارئ الكريم الحكم على ما ورد فيها من صحة أو خطأ من المعلومات برغم أنني ادرك ان بعضها كان مقصوداً منه الإساءة للعرب والإسلام منها على سبيل المثال لا الحصر ان المؤلف ذكر ان اليهود قد تعلموا عبادة القبور من الإسلام وهذا طعن مقصود منه الإساءة للإسلام فنحن لدينا زيارة القبور وليس عبادتها . وفي ذلك قول الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم «كنت قد نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها» .

أسأل الله ان أكون قد وفقت في ترجمتي هذه وان أكون قد نقلت بعض مما يحول في أذهان أعدائنا من تخطيط أو تفكير مما هو غائب عن أذهان العربي والله ولي التوفيق

المترجم

مالك فاضل البديري

توطئة

ساحة الحرب طمست كل معتقد قديم

في الثالث والعشرين من حزيران عام ١٩٩٢ أدار ثلاثة ملايين ناخب إسرائيلي ظهورهم نحو حزب الجناح اليميني (الليكود) بعد أن مكثوا تحت مظلة حكمه نحواً من خمسة عشر عاماً، فولجوا عتبة حزب العمال معبرين بانتخابهم (اسحق رابين) رئيس وزراء لهم عن رغبتهم في التغير وأن ينجيموا فوق كل هذا وذاك في ظلال السلام والطمأنينة والاستقرار. بيد أن بذور تلك الآمال الجديدة لما تدم طويلاً فكان مخاضها خيبة ظن بلغت أوجها إبان أحداث حرب الخليج قبل ثمانية عشر شهراً.

لقد هزت في الثامن عشر من كانون الأول عام ١٩٩١ وبالتحديد في الساعة الثانية ودقيقة واحدة فجر ذلك اليوم ثمانية صواريخ سكود الروسية أركان تل أبيب وحيفا وكلاهما أكبر مدن إسرائيل مساحة. لقد غطت الأمة الإسرائيلية في تلك الليلة في غياهب أشد أزمة تعريف بهوية تاريخها المोजز والمعقد بعد أن فرقها طوال عقدين من السنين خلت التناحرات والتعصبات والانقسامات. وهكذا أمارط صاروخ سكود اللثام عن حقيقة النفس الإسرائيلية بعد أن ظلت بمنأى عن كل هجوم مباشر صوب قلب إسرائيل منذ أن نالت استقلالها عام ١٩٤٨.

كنت في ذلك الوقت منكباً في دراستي في الطابق التاسع من عمارة تقع في إحدى ضواحي تل أبيب ومتهيئاً لمقابلة إذاعية مقرر إجراؤها مع محطة إذاعة شيكاغو، كانت تبغي معرفة حال الفرد الإسرائيلي في أول يوم حرب ضد العراق وفي جعبتي جواب

هو أن الحرب ستمر على إسرائيل كما أوحى بذلك بوارقها الأولى دون غيث . فتقارير التلفاز والمذياع ما انفكت تنقل بين الحين والآخر أنباء غارات الحلفاء على أهداف العراق الاستراتيجية فأزادت في الإسرائيليين غبطة وتبجحاً . وكنت أنا كذلك بين أولئك الذين خال لهم ان العراق لن يجرؤ بعد هذا وينفذ تهديده بضرب مناطق إسرائيل السكانية بالصواريخ ذات الرؤوس التقليدية والكيماوية إذا ما اندلع فتيل الحرب ضده .

بيد أن هذا الاعتقاد تلاشى ما ان أيقظتنا صفارات الإنذار فجر الجمعة بعد الساعة الثانية ليلاً بلحظات . وهرعت أنا وزوجتي نحو طفلنا البالغ من العمر سبع سنوات وحملاه صوب غرفة ملجأ كنا قد أعدناها لهذا الغرض مسبقاً وطبقاً لتعليمات الدفاع المدني فقد تم ختم الأبواب والشبابيك بطبقات من الأشرطة البلاستيكية منعاً لتسرب الغازات السامة . لقد أجهش الطفل بالبكاء ما ان وضعت منشفاً مبللاً تحت الباب وارتنينا جميعاً أقنعة الوقاية المطاطية السوداء التي أبقيناها استناداً لتلك التعليمات في صناديقها البنية اللون البشعة المنظر حتى تحين ساعة الحاجة إليها .

لم تمض سوى دقيقتان أو ثلاث حتى طرق مسامعنا دوي انفجارات أدركت حينها أنها وقعت في أماكن قريبة . لقد اهتزت الجدران وتحذشت بعض الشبابيك . إنني لم أجرب قط هجوماً صاروخياً برغم أني وقبل عشرين سنة مضت قد تدربت خلال خدمتي العسكرية على إطلاق النار وعشت تجربتي تبادل النيران المدفعية والغارات الجوية . لقد كان شيئاً مرعباً حقاً ، وأشد قسوة من القلق والخوف كان الشعور العميق باللامأل الذي بدأ يدب في أجسادنا . وكل ما كنت أقدر على فعله آنذاك هو الجلوس والاستماع لعويل صفارات الإنذار وتقارير الأنباء المتضاربة وأن نتساءل متخبطين بالذي حل في أماكن البلاد الأخرى . وبرغم قناعتني وأنا في ملجأنا هذا مرتدياً قناع الوقاية أنني آمن حالاً ضد الهجوم الكيماوي إلا أن شبح أن تنهار

هذه الشقة بأي هجوم صاروخي تقليدي لما يزل يسكن جسدي .

مر أكثر من ساعة قبل أن يعلن المتحدث العسكري أن الهجوم لم يكن بالغازات السامة بينما أمضيت ذلك الوقت أفكر في موقفنا الغريب هذا وكنت قد حذرت مسبقاً في عدة مقالات أن العراق بقيادة الرئيس صدام حسين لن يتردد قط في الإيفاء بوعده بضرب إسرائيل بصواريخه الكيماوية والتقليدية التي بناها باضطراب في ترسانته الهائلة كان له الغرب فيها أشد نصير . بيد أنني وبنصرم هذا لم أكن أتصور أنني سأجد يوماً ما حالنا مهدداً هكذا وبالطريقة ذاتها التي أسكت فيها العراق الأكراد عام ١٩٨٨ .

كان الأثر المباشر للهجوم الصاروخي العراقي طفيفاً نسبياً . إذ أطلق العراق واحداً وأربعين صاروخاً ضد إسرائيل كانت نتائجه موت ثلاثة عشر شخصاً معظمهم نتيجة إصابته بالسكتة القلبية أو الإختناق أو القلق بينما توفي واحد فقط نتيجة إصابة مباشرة . كما بلغ عدد الجرحى نحواً من ألف شخص دخل منهم سبعون فقط المستشفيات . أما الخسائر المادية فكانت الحاق الضرر بحوالي أحد عشر ألف منزل كان ضرر معظمها . ولحسن الحظ تهشم زجاج الشبايك . ومع هذا بقي أثر الجانب الآخر أعظم ألا وهو أن هذه الهجومات قد ولدت صدمات عنيفة تسلت نحو أعماق البنية الهشة للمجتمع الإسرائيلي .

شهد المجتمع الإسرائيلي وقيل الحرب بواذر للإصلاح بيد أنها لم تكن ملموسة في أغلبها . لقد اقتربت العديد من عاداتنا وقيمنا ومعتقداتنا السياسية ونظراتنا الشمولية وطرائق تفكيرنا كثيراً من عتبة التغير إلا أن أحداث الحرب قد عجلت من عملية التغير هذه وبلورت عواملها بينما ترى أركان عالمنا القديم وقد انهدت من أساسها أو انها تخلصت كثيراً .

وكنتم أنا بصفتي كاتباً بين أولئك الذين عكسوا هذه الاتجاهات والظواهر

الجديدة فهي إيماءة أن ولادة مجتمع إسرائيلي جديد قد اقتربت . ومع هذا يبقى تعريف مصطلح جديد بهذه الشمولية والتعقيد أمراً يصعب إنجازه . لقد ألفت أيام حرب الخليج ونحن نعيش أحداثها ونرقب صدها الضوء على كثير من آرائي المسبقة ووضعتها في إطارها المرجعي .

لقد كان الأثر النفسي لحرب الخليج على الروح الإسرائيلية أبعد من مجرد أن تفقد لك طفلاً بريئاً أو كحال المجتمع الأمريكي وقد اعترته خيبة الأمل بعد إغتيال الرئيس جون كيني . لقد بدا الأمر ذلك اليوم وكأن التيار قد جرف معه هذا العالم الهش بأسره ورحنا نتساءل كإسرائيليين وحالة الذهول تأسرننا في هذا الأمر المخيف : ماذا كنت تفعل عندما طرقت مسامعك لأول مرة صفارات الإنذار؟ .

وبعد أن سحبوا البساط من تحت أقدامنا لم أعد قادراً أن أمنع نفسي ألا تصارع ذاتها في معنى اليهودية . لقد كنت أرى نفسي ملحقاً كسائر ٨٠٪ من الإسرائيليين وقلما حضرت اجتماعات اليهود للعبادة . بيد أني وعلى خلاف معظم أولئك الذين ولدوا بعد الحرب العالمية الثانية كنت مدركاً لتلك المشاكل الخاصة والعويصة المتعلقة بالسؤال عن حقيقتنا نحن الإسرائيليين . فمن نكون نحن؟ لقد ولدنا وترعرعنا في أحضان مجتمع حر ديمقراطي مغرب ، إلا أن كثيراً من مؤسساتنا قد نخرت البيروقراطية أساساتها فوُلجت حتى حياتنا الخاصة ولتغدوا صورة أخرى للأنظمة الشيوعية . إن دولة إسرائيل ما برحت تعرف نفسها في إطار دولة اليهود ولكن ما معنى هذا الأمر؟ أنحن إسرائيليون أم يهود؟ وهوية من تسبق الأخرى؟ وما جنسيتنا أهي إسرائيلية أم يهودية؟ وهل تعبر يهوديتنا عن نفسها في إطار المصطلح القومي أم في إطار آخر ربما هو الإطار الديني؟ ثم ماذا عن مصطلح (شعب الله) ومصطلح (دولة اليهود)؟ فهل يستثني كلاهما العرب الذين يقطنون دولة إسرائيل؟ وأخيراً أيها منيع حضارتنا؟ أهو الأوروبي أم الشرق أوسطني؟ .

لقد أعاد الى ذاكرتي وذاكرة كل إسرائيلي يهودي خطر الغازات السامة في تلك الليلة الغبراء وأنا ما برحت على غير هدى أتخبط في إجابات هذه الأسئلة، تلك التجربة (مرة) لنا كشعب وذاك الخطر الجسيم المحقق بنا. لم يكن يسيراً أن تتجرد من التفكير في (حجرات الغاز) وكان من السخرية الإدعاء ان الألمان مسؤولون عن تقنية العراق المتقدمة في ميدان الأسلحة الكيماوية والغازات السامة.

وبرغم ان دلائل جيدة كانت آخذة بالنمو على أن المجتمع الإسرائيلي بدأ مرحلة الانعتاق من تلك المشكلة النفسية الخائقة الناجمة عن (فكرة المذبحة) (بعد عقود من الزمان وظفتها الحكومة من تلك الحقبة المأساوية من التاريخ) فإن هذا الهجوم الصاروخي قد مزق هذا الايمان الجديد شذراً مذراً.

لقد جلبت صواريخ سكود العراقية لكل بيت إسرائيلي حقيقة مهمة إضافية ربما حاول الإسرائيليون وعلى مدى ثلاثة وأربعين عاماً بعد الاستقلال تناسيها أو الغائها ولربما التقليل من شأنها ألا وهي ان التقدم التقني والعصري لدولة إسرائيل مجرد زوبعة في فنجان.

لقد ادعت الحركة الصهيونية بعد ولادتها انه لن يكون بمقدور ضحايا مناهضة السامية العيش آمنين خارج وطنهم الأم. بيد أن الهجوم العراقي الذي أحال أكبر مدن إسرائيل الى (رهائن) قد ولد أسئلة خطيرة تتعلق بمدى إستمرارية الارتباط بهذه الأمة الصهيونية. فهل إسرائيل حقاً دولة آمنة لليهود؟ أو بمعنى آخر هل أن شعب تل أبيب أكثر طمأنينة من يهود نيويورك؟.

كما لا يصح القول أن إختيار العراق لمدينة تل أبيب كان مجرد تصادف. لقد غدت تل أبيب منذ نشأتها قبل ثمانين سنة على الكتيبان الرملية لخط حوض البحر الابيض المتوسط الساحلي رمزاً للصهيونية وقوة إسرائيل وهي للإسرائيلي العصري

الفائز الاول وطلبة المدن فهي أنموذج للسلوكية الحديثة ونمط الحياة لباقي البلاد . وهي اليوم بكل جوانبها مدينة حوض البحر المتوسط الحيوية بثقافتها واتجاهاتها وحدتها وخطواتها المسرعة نحو الأمام . لقد وصفها رئيس بلديتها المحبوب النشط والكثير الكلام (شلومو لاهط) بأنها (مدينة بلا عيوب) .

إلا أن تل أبيب استوقفت حالها عاجزة بعد أول ليلة هجوم صاروخي . وتقول إحصائيات رسمية ان ٤٤٪ من مجموع سكانها البالغ مليون نسمة قد هجروا مدينتهم الأعظم بين المدن وتركوا ديارهم هرباً من صواريخ سكود . لقد واجه (التل أبيبيون) مرة واحدة حقيقة كانت بسيطة هي أنهم وبرغم خيلائهم وانتفاءهم لبعضهم البعض ولتلك الحضارة الآمنة يعيشون في منطقة الشرق الأوسط وأنهم عرضة لحالة اللاإستقرار التي تعم المنطقة .

وفي ضاحية (رامات أبيب) حيث أقطن هناك وسط طبقة متوسطة من الأساتذة ميسوري الحال ، رأيت معظم سكان العمارة التي أسكنها يهجرون شققهم بعد أول هجوم صاروخي . لقد اتجه معظمهم صوب مناطق أخرى من البلاد ظنوا أنها أكثر أماناً ، وباتت مواقف السيارات خالية تماماً بينما خيم الصمت الموحش على البناية شأنها شأن جميع أبنية المدينة الأخرى وضواحيها . لقد كانت الشبائيك مغلقة بإحكام وأضحت المناطق المجاورة المزدهرة كأنها أحياء للفقراء ووقف اليهود الذين يفضلون مناداتهم بالإسرائيليين على المحك ثانية . لقد وقع هذا الأمر وعلى خلاف فترات الهروب والإضطهاد السابقة على أرض بلادهم .

لقد قررت البقاء ليس لأنني قد إحتفظت برباطة جأشي بل لقد شدني أمران ، أولهما إرتباطي بوالدي اللذين يسكنان بالقرب مني ، وثانيهما أنني كنت أمقت فكرة أن يغدو المرء لاجئاً في بلده .

لقد تولى رئيس بلدية المدينة لاهط بصفته قائداً عسكرياً سابقاً قيادة فرقة مدرعة أطلقت على من هرب من سكان تل أبيب اسم (الهاربين) . أما ملاحظاته فكانت تنم عن مقته ومرارته من المناقشات العامة .

لقد كتبوا رسائل كثيرة ، وأظهر التلفاز والمذياع موجة من ردود فعل متضاربة ، فلقد اتهم من هجر المدينة أولئك الذين بقوا فيها أنهم (يعرضون حياة أطفالهم للخطر) وبـ (اللامبالاة) ، بينما قال من بقي في المدينة في من هجرها : «إنهم (جبناء) و(غير وطنيين)» . لقد أجاب رئيس البلدية لاهط عن سؤال وجه اليه ويتعلق بولده الذي ترك المدينة : «حسن ، انه هارب ايضاً» ، وأضاف بلهجة الإسرائيلي المتبعج : «إنني أرى أن عليهم البقاء حتى وإن كان الخطر جسيماً وربما مميتاً» .

إن حواراً كهذا يحدث في دولة إسرائيل يعد بحد ذاته أمراً غير اعتيادي . فسجل التاريخ الحكومي لدولة إسرائيل لم يشهد قط موافقة علنية على التراجع عن خطر مقبل برغم حقيقة أن العديد من المستوطنات الإسرائيلية قد هجرها مستوطنوها إبان حرب عام ١٩٤٨ بعد مواجهتهم للقوة العربية الغازية . وغالباً ما كانت الذاكرة الوطنية تمحوها من سجلها عمداً خجل أفعال كهذه . إلا أن الحال قد أخذ منحى آخر مع حرب الخليج فلم يعد هناك حياء من الإنهزام أو ترك الديار .

ان ردود فعلي لحالة كهذه تكشف في حقيقة الأمر تعقيدات الحياة لمجتمع كالمجتمع الإسرائيلي . وحقيقة أن مسألة بقاء الفرد حياً لحي من الأهمية بمكان ، ولكن كيف يمكن أن يؤثر هذا البقاء على مسألة التزام الفرد نحو مجتمعه ؟ . لا يجمع هاتين الفكرتين أي تناقض برغم الاختلاف الظاهر بينهما بل يمكن لكليهما التعايش سوية . لقد كانت دولة إسرائيل وعلى مدى أربع وأربعين سنة خلت فخورة بقدرتها في شق طريق نظيف ومشرق هيأت بموجبه لفرد لها كل حاجياته وكذلك حاجيات المجتمع بأسره . ومع هذا فان خصوصية مجتمع الشعب اليهودي وكذلك إسرائيل قد

أوتحت لغالبية الإسرائيليين بحقيقة انهم يعيشون في موقع وجود فريد إذا ما قورن بأية أمة أخرى . فما برحنا نواجه الحقائق المأساوية لتاريخنا كشعب يهودي وكان مخاض هذا الأمر أن نلدينا شعور قوي بأهمية الصمود دوماً في مكاننا وأن لا نتخلى أو نتراجع عن أي شيء . وحتى الرطانة العسكرية الإسرائيلية لا تضم بين طياتها كلمة (تراجع) مطلقاً بل تعبر عنها بالعبارة البديلة (حصنوا مواقعكم في الخلف) .

تشبث الناقد الادبي (جيرشون شاكد) في مجموعة من مقالاته الموسومة بـ (لا مكان بديل آخر) في الاسئلة التي نشأت مع الصهيونية الأولى : ما هي الميزة التي تنفرد بها إسرائيل ؟ هل يوجد وجود قومي يهودي بديل خارج إسرائيل ؟ .

فلو كان شاغل مؤسسي الحركة الصهيونية الأوائل الوحيد مجرد خلق الأمان الجغرافي والسلامة المادية لجلسوا غير آبهين بالبحث عن الوطن القومي الذي كان سيكون على نحو أكيد في مكان آخر من العالم ولوجد اليهودي الشريد نفسه بمنأى عن الخطر إذا ما أبقي حقايبه في يده حيثما سار وليكون دوماً على استعداد ليمضي في رحلته قدماً حيثما حانت الساعة لها . لقد قامت دولة إسرائيل على أساس أنها أمة يهودية ذات سيادة وقدرة على الدفاع عن نفسها ، وأن الصهيونية كان مرجواً منها ان تقدم الحلول لمشاكل الشعب اليهودي ككل متكامل وليس -ويا للسخرية- لأفراد من اليهود .

وتتمثل الهزلة الاخرى بقرار رئيس الوزراء اسحق شامير وبإصرار مباشر من الولايات المتحدة الذي قاد به البلاد نحو انعطافة تاريخية ألا وهو ان تتحمل إسرائيل عبء الهجومات الصاروخية دون الرد عليها . فاذا ما تطرفنا كثيراً في الافتراض وادعينا أن مجلس الوزراء ذو الجناح اليميني كان سيتخذ موقفاً عسكرياً كهذا لتبادر إلينا السؤال التالي : من كان يتوقع أن تقف إسرائيل مكتوفة الايدي حيال هجوم كهذا ؟ لقد وجد معظم الإسرائيليين هذا الموقف صعباً عليهم إدراكه برغم أن معظمهم قد تأقلم معه الى حد ما .

لقد توجب علينا ان نهضم فكرة ان الجنود الأمريكان كانوا راغبين على الارض الإسرائيلية لأول مرة في تاريخ حرب ما . فالحكومات الإسرائيلية المتعاقبة اليسارية منها واليمينية ما انفكت تقول ان إسرائيل قادرة على الدفاع عن نفسها دون أية معونة خارجية مباشرة وكل ما كنا بحاجة اليه خلال جميع الصراعات العسكرية السابقة هو رفع الروح المعنوية والدعم السياسي والمعدات العسكرية من الولايات المتحدة وكل هذا يختلف تماماً عن نشر قطعات عسكرية أجنبية في أرضك . لقد كان خط التفكير الإسرائيلي هو (لا نريد ان تراق دماء الجنود الأمريكان دفاعاً عنا) .

نعم ، لقد خاض الإسرائيليون جميع الحروب السابقة بحثمهم ايمانهم القوي أنهم يدافعون عن ديارهم وعوائلهم ، إلا أن هذه الحرب قد جلبت معها شيئاً جديداً . وكان عسيراً أن تقارن بين حرب الخليج وباقي الحروب الأخرى التي كانت فيها إسرائيل مركز العداءات . بيد أن نقطة ارتكاز مقارنة كهذه هي أن هذه الحرب كانت حرباً حقيقية تماماً .

لقد دب الرعب في الإسرائيليين بعد أول غارة صاروخية وشعر معظمهم أن الحكومة قد تركتهم مكشوفين مجردين من الدفاعات الفعالة التي كانت قد وعدتهم بها . وما ان وصل شعور الخيبة هذا مسامع الحكومة في القدس حتى قرر قادتها استدعاء قطعات عسكرية أمريكية . ومع إشراقة صباح اليوم التالي هبطت في مطار بن غوريون الواقع خارج تل أبيب عشرون طائرة جالاكسي وهي أكبر طائرة نقل عسكرية أمريكية . وفي غضون ساعات تم نصب أربعة بطاريات صواريخ (باتريوت) الأمريكية الصنع في أنحاء تل أبيب وحيفا . وكنت أرقب من نافذة شقتي ذلك النشاط الدؤوب في أحد هذه المواقع بينما تراني أسكن خلال الليل لا أسمع سوى ذلك الصفير الحاد لهذه الصواريخ وهي تخترق حاجز الصوت في محاولتها اعتراض صواريخ سكود القادمة إلينا .

لقد أظهرت العديد من الدراسات التي أجريت في إسرائيل والولايات المتحدة بعد حرب الخليج أن المناطق المحمية بصواريخ باتريوت قد تضررت أكثر من المناطق المجاورة التي تعرضت مباشرة لهجوم سكود دون أي دفاع باتريوتي. كما كشفت دراسة أجرتها وزارة الدفاع الإسرائيلية أن ثلاثة عشر صاروخ سكود ضربت تل أبيب قبل نشر بطاريات باتريوت وتسببت في جرح مائة وخمسة عشر فرداً وإلحاق الضرر بنحو من ألفين وسبعمائة شقة سكنية. بينما تسببت صواريخ باتريوت تم إطلاقها لاعتراض أحد عشر صاروخ سكود في جرح مائة وثمانية وستين شخصاً وتدمير ما يقارب ثمانية آلاف شقة سكنية في ضواحي تل أبيب العظيمة.

كان لهذا الأمر تفسيراً منطقياً وهو أن صواريخ باتريوت لم تكن قادرة تماماً على إذلال صاروخ سكود العراقي وهكذا لم يسبب تصادم الصاروخين وانفجارهما في الجو في إمطار المنطقة بشظاياهما بل ان بعض صواريخ باتريوت كانت تنفجر في الجو قبل أن تعترض صاروخ سكود لتتشر شظاياها فوق المنطقة.

أدرك قادة إسرائيل وجنراتها هذه الحقائق، بيد أنهم آثروا عدم مشاطرة الشارع الإسرائيلي هذا الرأي. فلقد عرضوا على إسرائيل قبل بضع سنوات خلت شراء بطاريات باتريوت. بيد أن الحكومة رأت أن هذه الصواريخ لا تلائم خططها الدفاعية وقررت بدلاً عنها بناء منظومة صواريخ أفضل لحسابها الخاص. إلا أن هذه الصواريخ لما يكتمل بناؤها بعد مع اندلاع شرارة الحرب. لقد وعي قادة إسرائيل الآن حقيقة أن معظم البلاد تعاني من أزمة ثقة حقيقية وأنها بحاجة لأن تتعلق حتى بقشة تمنحها بعضاً من شعور الحماية وبنات الإسرائيلي يعيش تحت مظلة صواريخ أمريكا وجنودها بينما شرع قادة إسرائيل بشحذ همم الإسرائيليين ليؤمنوا أن الصواريخ الأمريكية ستحقق المعجزات. لقد اختاروا أن يكبحوا الحقيقة خوفاً من أن تتزعزع ثقة العامة وتعم البلاد الفوضى تحت وطأة القلق الطويل الأمد.

إنه لقرار مشؤوم أن تضحي بالحقيقة مقابل هدوء نسبي ومؤقت قد تزرعه في العامة وانهم بتحقيق هذا الهدف القصير المدى قد ساعدوا كثيراً في التقليل من شأن واحد من أكثر المعتقدات المقدسة للصهيونية القديمة ودولة إسرائيل الحديثة سوية ألا وهو (ان دولة اليهود يجب أن تكون قادرة على الدفاع عن نفسها مهما تكالبت عليها الظروف) . لقد نشأ الإسرائيليون مؤمنين أن دولتهم فعالة جداً بل انها ذات طاقة إستثنائية ، تحضرها دوماً المبادرات العديدة وردود الفعل السريعة وتلك هي تجربة جميع الحروب السابقة وانها (اي إسرائيل) ستتولى زمام المبادرة دوماً آجلاً وليس عاجلاً في قيادة المعركة طبقاً لاستراتيجيتها في نقل الحرب الى ساحة العدو سواء أهاجها جيرانها العرب أم انها هي التي شنت عليهم الهجوم . لقد استند مفهوم إسرائيل للأمن دوماً على أساس (الردع) أي بناء قوة عسكرية كافية لمنع العدو من مهاجمة دولة إسرائيل ومع هذا أثبتت حرب الخليج عدم جدوى هذه النظرية العسكرية الإسرائيلية التقليدية . لقد أجبر مزيج هذه الأسباب السياسية والعسكرية والاستراتيجية والنفسية والعملية رئاسة الوزراء الإسرائيلية على تبني سياسة (ضبط النفس الكلي) فهو جهوا من الداخل .

واذا كانت إسرائيل قد كسبت عطف الرأي العام العالمي كثمرة سياسة ضبط النفس هذه فان هذه السياسة ذاتها قد ولدت لاسيما بين العرب وصناع القرار السياسي في واشنطن حالة من عدم الاعتبار لهذه الدولة لم تشهد له نظيراً من قبل هو أقرب الى الازدراء .

لقد أخبرني قادة إسرائيل بعد الحرب ان نظراءهم الاوروبيين قد سألوهم : كيف تحملتم الهجوم؟ كما سمعت ذات التعليق من مسؤولين أمريكيين (لقد أدهشنا رد فعلكم خلال الحرب ٠٠ فما كان حرياً بالإسرائيليين أن يقفوا موقفاً كهذا) . وسيكون لهذا القرار في المستقبل القريب عواقب عسكرية وسياسية لها من الأهمية بمكان على

كل من نظرة الفرد الإسرائيلي لذاته أو في الطريقة التي ستكون فيها إسرائيل موضعاً لتقسيم واحترام الآخرين لها .

لقد خرجت وعائلي والآخرين من غرفنا المحصنة حوالي الساعة السادسة صباحاً من أول يوم جمعة من الحرب وبعد أول هجوم صاروخي . لم نصدق أننا خرجنا الى عالم الحياة الاعتيادية . كان صباحاً مشرقاً زيتته زرقة السماء وصفاء الطقس وبدا كأنه يوم صيف هندي . ولم يكن يسيراً تجاهل هذا التناقض الحاد بين هذا الصباح الهاديء وتلك الليلة الهوجاء التي عاشها سواسية كل الإسرائيليين الشباب منهم والشيوخ فقيرهم وغنيهم والعربي منهم أو اليهودي . لقد تحتم على الإسرائيليين أن يتقبلوا في هذا الصباح وفي الايام التالية أنهم يعيشون واقعاً جديداً .

فإسرائيل اليوم تمثل مجتمعاً غير الذي عرفه العالم قبل عشرين أو حتى قبل عشر سنوات خلت . ربما تبقى الشكوك تحوم حول احتمالية أن تنتهج إسرائيل في حكم رابين منحى سياسياً جديداً حيال قضاياها الأكثر تأزماً تتصدرها القضية الفلسطينية وربما سيمضي شوط من الزمن قبل أن يدرك الإسرائيليون كم تغيرت بلادهم ، ولربما بقيت بعض المعتقدات القديمة ، بيد أن الهجوم العراقي قد ألقى الضوء على قضية كانت بذورها تنمو داخل دولة إسرائيل على مدى العقد الماضي من الزمان وحانت الآن ساعة الحل الشامل والفوري لها .

لقد شرع الإسرائيليون الجدد بالمسير فوق جبل مشدود يربط بين العصرانية والدينية والتعبير الديني التقليدي . إنهم تركيبة غريبة من الليبرالية المزوجة بضيق العقل الرديء .

إن الرغبة في خلق مجتمع غربي قد أوجدت نفسها جنباً الى جنب مع العرقية الشرق أوسطية . لقد واجه المطهرون (Puritanism) الإباحة الجنسية . كما احتلت

المادية والاستهلاكية مكانة المثالية والرغبة نحو العدالة الاجتماعية والرفاهية العامة .
وتحدثت التطرفية الفلسفة الذرائعية السياسية القديمة التي تحلت بالمساومة السياسية .
وإن المسعى الهادف الى المحافظة على مجتمع حر وديموقراطي قد أخذت مصاعبه تزداد
باضطراد طالما أن الحرية الفردية مقيدة مع بقاء حالة الإحتلال للضفة الغربية وقطاع
غزة وهي حالة تتطلب أنظمة أمن صارمة .

فدولة إسرائيل عبارة عن مجتمع سياسي من رأسه حتى أخمص قدميه وفيه يهيمن
السياسيون على قطاعات الصناعة والعمل والصحة والتعليم والفن والرياضة .
وعليك أن تكون في الإتجاه السياسي السليم إذا ما دعتك الضرورة للتقديم لأي
منصب إداري عام أو أن تغدو رجل أعمال . ومع هذا يمقت الإسرائيليون نظامهم
السياسي فهم ميالون نحو التغيير بيد أن الإرادة تنقصهم ليجعلوا منه تغييراً أفضل .
لقد أثقلت الحروب كاهلهم إلا أنهم يخشون تقديم أية تنازلات لأجل السلام . وهم
يتضرعون بكرة وأصيلاً لأجل السلام لكنهم ما برحوا يدعمون أحزاب الجناح
اليمني التي ترفض وضع نهاية لاحتلالها العسكري للأراضي العربية المحتلة .

لقد فقد جيل إسرائيل الجديد صبره وتحلى بالمتعة ، وليس عسيراً تعريفهم في
إطار الطبقة الوسطى الملهمة بالقناعات السريعة والعطاء القاصر وبالتائج الفورية مع
الرغبة نحو حلول سحرية وسهلة لكل الأعباء السياسية والاقتصادية والاجتماعية .
لقد سلبوا من تفكيرهم مبدأ التضحية الفردية وأخذوا يشككون الآن بتضحيات
الإسرائيليين من قبل . إنهم على طرفي نقيض ليس مع مؤسسي الحركة الصهيونية
الأوائل وأتباعهم بل مع الأجيال التالية الأقل مثالية من أولئك الأسلاف . ومع هذا
فإن هذا المنحى الجديد في التفكير ليس مبهماً بأكمله . فإسرائيل اليوم يتشابك فيها على
نحو لا يمكن تجنبه الماضي (سواء أكان سجلاً تاريخياً أم رمزاً لدولة إسرائيل) مع
الحاضر . وإن محاولة فهم الجيل الجديد من الإسرائيليين دون سبر أغوار الماضي هو

كمن يحاول ايجاد تشخيص طبي لحالة ما دون معرفة بظروف المريض أو تاريخه الطبي . وهكذا ستتجه صوب الماضي باديء ذي بدء .

الفصل الأول

حب الهجرة ومقت المهاجرين

يقول روديارد كبلنك (Rudyard Kipling) في إحدى كتاباته الثرية المشهورة :
«إن الشرق والغرب لن يلتقيا بتاتا». بيد أنهما التقيا وما دولة إسرائيل إلا مثال حي شاهد لهذا الأمر إذ ينحدر ما يربو على نصف الإسرائيليين اليهود من أصل شرقي ويسمى هؤلاء بـ (السفارديم أي اليهود الشرقيين) وهذه الكلمة تعني في العبرية (الاسبان). وبرغم أن هؤلاء السفارديم قد قدموا إلى إسرائيل مباشرة من شمال أفريقيا والشرق الأوسط ودول البلقان فإن عوائلهم بقيت تجوب هذه المناطق بعد أن طردتهم اسبانيا عام ١٤٩٢ . ويسمى النصف الآخر من الإسرائيليين اليهود بـ (الأشكيناز أي اليهود الغربيين) وقد وصلوا إسرائيل من أوروبا الغربية والشرقية . وكلمة أشكيناز هي تسمية اليهود لألمانيا خلال القرون الوسطى .

ويقدم هذا الخليط الإنساني دليلاً دامغاً على أن دولة إسرائيل ما هي إلا مجتمع مهاجرين حقيقي وفيه يشكل المهاجرون قرابة ٦٠٪ من أصل أربعة ملايين يهودي يقطنون البلاد وقلما تجد بلداً في العالم لا يمثل الإسرائيليون بعضاً من سكانه فتراهم يعيشون في الهند والولايات المتحدة الأمريكية والصين والمغرب وروسيا وكندا والعراق وجنوب أفريقيا واليمن وبيرو وفرنسا . وصلت هذه المجاميع العرقية باختلاف جذورها إسرائيل وكل منها يحمل على ظهره (وطنه) كأنه الحلزون بما تنطوي عليه كلمة الوطن من تقاليد حضارية ودينية وسياسية ، لقد آمن مؤسسوا الصهيونية بإمكانية أن يعيش اليهود جميعاً متأخين في هذه الدولة الصغيرة وتلك هي

الروحية الخاصة بالمهاجرين التي فرضت هيمنتها على هذه البلاد وايدولوجية الصهيونية معاً.

لقد عكست حتى اللغة العبرية الحديثة وضع المهاجرين المتميز في إسرائيل فبينما تستخدم اللغة الإنجليزية كلمتين للتعبير عن حالة الهجرة وهي (imigration - الهجرة الى) و (emigration - الهجرة من) ترى الإسرائيليون قد نحتوا كلمتين أيضاً وهي كلمة (aliyah) وتعني (الذهاب الى - دولة اليهود-) و (yerida) وتعني (الذهاب من - دولة اليهود-). وتمتلك كلتا الكلمتين التوأم ارتباطاتها السياسية والتاريخية. وكلمة (aliyah) (الهجرة الى) على وجه التحديد تتم على معنى روحي هو أقرب في مضمونه الى المصطلحين الدينيين (الحج) و (يوم الصعود).

طور مؤسسوا الحركة الصهيونية يتزعمهم (ديفيد بن غوريون)، (الذي تبوأ بعدئذ منصب رئيس الوزراء) مطلع منتصف الثلاثينات وقبل أن تنال إسرائيل استقلالها مفهوم القوة الصهيونية. وجد الإسرائيليون في كلمة الهجرة الى او (aliyah) الأداة الفعالة نحو تعزيز قوة الأمة بضمناها جيش إسرائيل. وتلك معادلة بسيطة: ليس بمقدور أمة صغيرة يحيطها أعداؤها من كل صوب أن تنجو بنفسها ما لم تمتلك قوة دفاعية كافية. وأشار بن غورين في مذكراته: إن كلمة (aliyah) هي عامل الحسم الاول في أمن الأمة. وهو موقن تماماً ان (الهجرة الى) إسرائيل ستحفظ للأمة كيائها. ثم حدثت (المذبحة) بعد أن سحقته النازية الألمانية خلال الحرب العالمية الثانية نصف الشعب اليهودي وليذهب معها حلم الصهيونية أدراج الرياح.

وصلت أخبار الحملة النازية مسامع الغرب من مصادر متعددة بعد أسابيع من وقوعها وكان هذا في صيف عام ١٩٤٢. بينما نقل الصناعي الألماني حي الضمير المسمى (ادوارد شلت) ومقاتلو جيش بولندا السري تلك المعلومات الى المنظمات اليهودية في سويسرا المحايدة.

لقد تجاهل الجميع سواء أكان الرئيس فرانكلين روزفلت في واشنطن أو ديفيد بن غورين في تل أبيب أخبار مجزرة اليهود ورفض بعضهم التصديق فيها واستمر الحال هكذا حتى نهاية عام ١٩٤٢ . ولم يحرك الحلفاء ساكناً لوضع حد لهذه الوحشيات حتى بعد أن تجلّى الرعب النازي للقاصي والداني منهم حتى الإنجليز الذين حكموا فلسطين من رد الفعل العربي واستمروا بفرض سياسة تقويض الهجرة اليهودية بينما رفضت الولايات المتحدة وباقي الأمم المتحدة منح اليهود تأشيرات دخول وتزايدت مناشدات قادة اليهود في بريطانيا والولايات المتحدة وحتى من مخيمات الموت تترجى الحلفاء بقصف هذه المخيمات أو في أقل تقدير قصف خطوط سكك الحديد التي تحمل اليهود إلى حتفهم هناك . وهنا علق قادة الحلفاء العسكريين أن مخيمات الموت أبعد كثيراً من مديات قاصفاتهم ثم أخذ خط الرفض هذا - بعد أن أصبحت الأرض البولندية مرتعاً لهذه المخيمات - منحى آخر إستند على (محدودية المصادر العسكرية) . كان هذا واحداً من أكثر فصول الحرب العالمية الثانية المأوجوننا .

لقد توجب على الغرب بعد أن وضعت الحرب أوزارها أن يواجه ذنوباً إقترفها والمتثلة بسليته حيال رعب كان قائماً . واستحال وخز الضمير الذي عاشه قادة الغرب والشارع الأمريكي على وجه الخصوصي إلى عامل تحفيز مهم في إقامة دولة إسرائيل .

بيد أن اللائمة لا تقع لهذا الأمر على بقية العالمين وندع بن غورين وصحبه بمنأى عن ساحة الخجل فهم لم يكلفوا أنفسهم وسعاً ويفعلوا لأمرهم شيئاً حتى بعد أن وصلتهم معلومات المذبحة . وبينما كانت قطارات النازية تنقل اليهود صوب وجهة الموت ؛ وافران النازية ما انفكت تغظ بيهود أوروبا ، كان مزاج النقاشات في فلسطين هادئاً ولن يخرج عن نطاق العمل كعادته . وأنت ل ترى ؛ وواقع الحال هكذا ؛ محاضر إجتماعات قادة الصهيونية مليئة بالفقرات الساذجة والنقاشات الفارغة حول الجرائم

التي كانت تحدث في اوربا . و حقيقة ان المجتمع اليهودي في فلسطين كان يعيش تحت الحكم البريطاني وانه لم يملك جيشاً خاصاً به إلا أن قادة الصهيونية تجردوا من كل شعور بها كان يدور هناك .

ومن الصعب تفسير هذه الشكوكية والتجريدية تجاه تلك الأخبار وكذلك تجاه مشكلتهم في إقامة الدنيا وإقاعادها في محاولة لإيقاف عملية تصفية أتباعهم اليهود . لقد توصل الراديكاليون من بين ارثوذكس اليهود (وهم ضد فكرة الصهيونية ومع إقامة دولة إسرائيل) الى جواب لا يرقاه جواب في قسوته ووحشيته . لقد اتهموا الصهيونية نفسها بالتواطؤ مع النازية وذهبوا أبعد من هذا ليقولوا ان تصفية اليهود قد ساعدت كثيراً على التعجيل في اقامة دولة إسرائيل . ومن المؤكد أن إدعاءات كهذه هي إدعاءات مضللة ولا تستند على أي دليل من الصحة .

بيد أن تفسيراً آخر ما زال قائماً قد يميظ اللثام عن تصرف بن غورين : إنها النظرية الصهيونية الواقعية لحالة الشتات . لقد شد الصهاينة العزم لخلق إنسان جديد من نوعه داخل (ايرتزل إسرائيل - أرض إسرائيل -) وهي التسمية اليهودية لفلسطين . لقد تحتم على اليهودي الإسرائيلي وعلى خلاف نظيره (الديسبوري*) أن يكون دوماً قوياً لايهاب الموت أنى يكون ومتهيئاً للدفاع عن نفسه . وكان عليه أيضاً أن يكون (طبيعياً) وهاجس الطبيعة هذا كان الخاصية المبكرة للتفكير الصهيوني . لقد عزز ما يسمى بمصطلح (السلبية) أو (الخضوع) للسلوكية التي تحلى بها يهود الديسبورة إبان الحرب صورة المقت بين اليهود جميعهم تجاه يهود الديسبورة على انهم أناس لا حول لهم ولا قوة . وكان يتراءى يهود الديسبورة في عيني بن غورين وقادة الصهيونية كأنهم (خراف إقتادوهم الى المسلخ) .

لقد عانى بن غورين وقادة الصهيونية من شعور الذنب المخيف بعد أن مزقتهم
*ديسبورة: اليهود المشتتون في أرجاء العالم بعد الأسر البابلي .

الشكوك أعقاب المذبحة وشعورهم انهم وقفوا عاجزين حيالها فوظفوا (ذاكرة المذبحة) لتشدهم خلقياً بيهود الديسبورة . و أعلنوا ان دماراً كهذا لن يحل باليهود ثانية وانهم سيؤمنوا الحماية لليهود أنى كانوا .

لقد أطلقت إسرائيل على نفسها في (إعلان الإستقلال) عام ١٩٤٨ انها وطن اليهود وتعهد الإعلان أن لكل يهودي الحق في التعايش متآخ مع أترابه الآخرين في وطنهم ذي السيادة . لقد أقاموا هذه البلاد لتكون ملجأ لكل اليهود وان هدفها أن تغدو تجمعاً لكل من ينفى ولتوحد شمل اليهود أجمعين في ارضهم القديمة . وان الصبغة القانونية التي احتوت الهجرة الجماعية لليهود هي (قانون العودة) ينص هذا القانون على أن لكل يهودي الحق بالهجرة الى إسرائيل وأن يمنح الجنسية الإسرائيلية حال وصوله دون الحاجة الى عملية التأقلم . ومع هذا وجد بن غوريون وقادة إسرائيل أنفسهم في موقف غريب مع بدايه إقامة دولتهم . لقد نشأت الصهيونية في اوربا وصب قاداتها وهم من يهود اوربا جل اهتمامهم لنقل حالة مجتمعاتهم الى ايرتز إسرائيل فبنوا دولة اليهود على أحلامهم المستقاة من نمط حياتهم الاوربي وكان مخاض هذا الأمر أن غدت إسرائيل وفقاً لتخيلاتهم نموذج امتداد للعالم القديم المعروف فإسرائيل التي يعتقدون قد أقامت نفسها لتخدم يهود اوربا القادمين من الغيتو (أحياء اليهود) . لقد جرح الاضطهاد ومناهضة السامية اليهود ولم يشغل اليهود الشرقيون حيزاً في تفكير قادة الصهيونية . ثم وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها وعلم حينها بن غوريون أن إحتياطه البشري الكبير الذي سيعول عليه في القدوم الى دولة إسرائيل هم السفارديم .

إن ما وسع مشكلة هجرة السفارديم الى إسرائيل حجماً هو كيفية إخراجهم من مواطنهم الأم وصعوبة هذا الأمر تكمن في انها تتطلب خرقاً للقوانين المحلية لتلك البلاد . وهكذا استعدت إسرائيل لخوض غمار هذه المخاطرة ولم تألو آنذاك جهداً أو

تدخر مالا لبلوغ هذه الغاية فجندت جهاز مخبراتها السري (الموساد) أداة لهذه المهمة .
لقد نال الإسرائيليون حريتهم بالمال والرشاوي وفي أحيان أخرى بالسلاح بعد أن
منعتهم بلدانهم من مغادرتها وقادت الموساد والوكالات السرية الأخرى حملات سرية
لحماية اليهود في كافة أرجاء العالم وللمساعدة في عملية الهجرة إلى إسرائيل أيضاً . فقد
تم نقل قرابة خمسين ألف يهودي من اليمن جواً بين عامي ١٩٤٨ و ١٩٤٩ بعد أن
تمت رشوة مسؤوليها المحليين ووضع هذا الأمر سابقة تاريخية لمشاريع أخرى مشابهة
وأبقت إسرائيل على تكتيكها هذا كما هو الحال اليوم مع هجرة يهود اثيوبيا (الفلاشا)
الجماعية .

وفي العراق ، وصف العراقيون بين عامي ١٩٤٨ و ١٩٥١ الرشوة بـ (عمولة
وكالة السفر) إلا أن المال في حقيقة الأمر كان يذهب إلى جيوب رئيسي وزراء البلد
اللذين سمحا مقابل هذا الشيء لحوالي ١٣٠ ألف يهودي بترك البلاد . بينما سمح
الحسن الثاني ملك المغرب وكبار مستشاريه لما يربو على ١٥٠ ألف يهودي بالهجرة إلى
إسرائيل بين عامي ١٩٥٤ و ١٩٦٢ مقابل حصولهم على الرشاوي والسلاح وأساليب
الحماية التي قدمتها إسرائيل مع الأموال التي قدمتها المؤسسات الخيرية اليهودية .

وباتت إسرائيل في عصرها الأول وكتيجة لهذا الأمر قلعة بابل الحقيقية . وقد
هدفت هذه السلوكية إلى التشرب في دواخل أكبر عدد ممكن من الناس في شتى أرجاء
المعمورة . كان هدفاً شاقاً وكان المسعى نحوه حماسياً بيد أن التحدي كان كبيراً أيضاً .
لقد أخذت هذه السلوكية من الوقت قليلاً لتكشف الفجوة بين حلم الاتيان بكل
ضروب هؤلاء الناس صوب هذا البلد الصغير وبين واقعية مثل هذه المهمة . فقد
لعت الكثرة من المهاجرين بعد عملية الهجرة الأولى يوم وصولها إسرائيل ولم تدخر
وسعاً في محاولاتها مغادرة البلاد والإستيطان في مكان آخر . كانت أولى خطوات أي
مهاجر تتجه صوب مراكز الهجرة المسماة (بوابات الهجرة) التي اعتبرتها السلطات في

واقع الأمر بوابات موصدة لمعسكرات اعتقال . وإذا ما قرأت سجلات (ارشيف دولة إسرائيل) لتأكد لديك الإنطباع أنها قد أعدت هؤلاء القادمين الجدد مجرمين كامنين وليس أخوة وأخوات لمن سبقهم . فقد تحمل هؤلاء المهاجرون جوراً قاسياً أقر فيه بحزن أحد أعضاء الحكومة والمسؤول عن عملية الهجرة بقوله : «إن إسرائيل ترحب بالهجرة وليس بالمهاجرين اليها» . لقد عانيت وعائلتي من هذه اللامبالاة تجاه المهاجرين بعد وصولنا إسرائيل في آذار عام ١٩٥٧ قادمين حفاة من بولندا . فقد أنجز موظفو الحكومة البيروقراطية عند استقبالهم لخمس من عملهم ببطء قاتل وكان بيدهم وقت العالم كله وأدركت ولما يزل عمري ست سنوات غرابة أن يتسم هؤلاء الموظفين عند الحديث لبعضهم البعض بينما تراهم متجهمين إذا ما استدأروا إلينا . أما الموظف الذي وصلت أوراقنا إليه فكان بين الحين والآخر يبارح مكتبه لساعات طوال ثم يعود إليه حيث الأوراق متناثرة على طول طاولته دون أن يكلف نفسه لمجرد عبارة إعتذار بسيطة . إستمر الحال هكذا حوالي عشر ساعات أمضاها والداي جالسين وأمتعتنا بجانبيهما دون أن يجروا أحدهما على التفوه بكلمة واحدة وبرغم أن والذي قد تعودا أن يعاملهما الآخرون بطريقة مختلفة فإن كليهما كان خائفاً من معاداة البيروقراطية . وبعد أن إنقضت سنوات عدة وتكيفاً للحياة الإسرائيلية بات بمقدورهما العودة الى الماضي واستذكار تجربتهما الأولى دون غضب ولیدرکا ان العداء الذي يكنه أتباعهم الإسرائيليين حيال غالبية سكان إسرائيل هو صيغة المقارقة التي تتحلّى بها العقلية الإسرائيلية .

كانت الجوانب المكملة لعمليات الهجرة الجماعية مطلع الخمسينات كثيرة وستقول لك السجلات المؤقتة الكثير من القصص المؤلمة كما تصف أحداث شهود العيان معسكرات الإستيعاب بالمكان الموحش وفيه (تبخرت رائحة الشر العفنه في الهواء) . فقد تحتم على الناس قضاء أيام في العراء قبل أن يحصلوا على خيمة تأويهم . كان الشتاء بارداً وممطراً ونوع الغذاء غني عن التعريف به فالعشاء يتألف من خمس

حبات زيتون وقطعة خبز وبعض الجبن . كان بمقدورك سماع عشرات اللغات مرة واحدة وأغلب الناس لا يفهم بعضهم بعضاً في الحديث وقلة منهم كانوا يفهمون موظفي الحكومة البيروقراطيين المتحفظين الذين كانوا يتكلمون العبرية والذين أظهروا بدل المساعدة اللاإكتراث بل وإحتقار الآخرين . وغالباً ما تضارب اللاجئون وتشاجروا حول كل ما يتعلق بضروريات البقاء ، من الفراش والخيمة واللحاف والغذاء . لقد ساد بينهم قانون الغاب .

حصل المهاجرون بعد أسابيع عديدة أمضوها في هذا المركز على بيوت دائمية كانت ظروفها أشد قسوة من سابقها . لقد عاش المهاجرون في خيم وسقائف رثه في مخيمات كانت تسمى بـ (العبور) تقابلها في العبرية كلمة (ma'abarah) التي نالت مضمونا بشعاً وأصبحت تستعمل اليوم لوصف أي مكان مخيف .

تقع (مخيمات العبور) هذه خارج المدن الكبيرة وفي المناطق النائية وهي تفتقر الى الحمامات أو مياه الإسالة وجميع ظروفها الصحية كانت رديئة . كما كانت تخلو من الطرقات وكل ما فيها هو عمرات وحلة . ومات أغلب الناس نتيجة لنقص الدواء والأطباء والممرضين . وقد نقل أحد المفتشين التابعين لوزارة الهجرة الإسرائيلية بعد زيارته لأحد المخيمات الجديدة انه قد شاهد بأم عينه (المهاجرين يرفضون تناوله حساءهم بسبب الديدان التي كانت تدب فيه وسط الخضراوات المظلمة) . وتبين وثائق الدولة ان المهاجرين كابدوا عناءاً ليحصلوا على عمل ما بينما عمت البطالة معظمهم وسلخوا معظم وقتهم في لعب الورق أو الطوفان حول مخيماتهم . وكتب مسؤول آخر يقول : «إنما نحن نسحق هؤلاء القوم فنحن لا نقوى على فعل شيء سوى أن نذرف الدموع» .

لقد واجه الجميع ذات المعاملة القاسية سواء أكانوا اليهود الاوربيين الذين نجا معظمهم من المذبحة أو اليهود الشرقيين . وخضع جميع من عبر (بوابات الهجرة) الى

فحص طبي قاصر ثم يطلب اليهم خلع ملابسهم كاملة لغرض تطهيرهم بالـ (دي دي تي). تلك كانت تجربة مذلة سيما ليهود الأشكيناز الذين نجوا من المذبحة.

وعبر أطفال إسرائيل وعلى نحو مقرف عن شعور اللاإكتراث تجاه آلام المهاجرين فأطلقوا على من بقي من يهود أوروبا حياً بعد المذبحة اسم (الصابون) وغدا هذا الالام القاسي والمروع لإستخدام النازية للزيت البشري في صنع الصابون مرادفاً لكلمة (الخارج) ذلك الشخص الضعيف المختلف الطباع الذي لا يتسبب الى مجموعة ما.

واجه المهاجرون داخل إسرائيل موقفاً سلبياً غريباً وهذا في واقع الحال يرتبط مع الأهداف الاصلية للصهيونية. لقد جاهدت الصهيونية أولاً وقبل كل شيء لخلق إنسانها الجديد وكان أحد أكثر رموزها شعبية هو تسميتها للإسرائيلي الاصل بـ (صابرا) وهي التسمية العبرية للتين الشوكي الذي ينمو على نوع محدد من الصبار. هذه الفاكهة تتميز بخشونتها من الخارج ونعومتها وحلاوتها من الداخل. وهذا المصطلح يشير الى كل من ولد على أرض إسرائيل تميزاً له عن المهاجر. وجندت إسرائيل شعرها وأدها في مرحلة ما قبل التأسيس ومرحلة التأسيس لتمييز صورة الصابرا.

بلغت هذه الصورة المجسمة عن الصابرا ذروة سقط المتاع بعد حرب الإستقلال عام ١٩٤٨ عندما جسده بالمثالي ورمزاً للشباب الإسرائيلي الاسطوري الجميل ذي العينين الزرقاوين بشعره البراق والصحي. لقد أحب رجل الصابرا البحر (لأنه ولد من البحر كما قال عليه موشي شامير - أحد أكثر كتاب عصره شعبية-) وكان الصابرا عضواً في الحركة الشبابية ومتطوعاً في صفوف الجيش لايأبه خوفاً أو يكل له ساعداً. لقد أحب الحياة بيد أنه أثر عليها التضحية لأجل غايته الأسمى: الدفاع عن أرض الآباء. كان مستعداً لقتل عدوه العربي بيد أنه لا يكن له كرهاً فتراه يطلق عليه النار ثم يجھش بالبكاء. ومن الطبيعي أن يصبح الشاب المهاجر خصم شاب الصابرا فهو كما

وصفته (لي كومبرج) وكانت آنذاك في طليعة شعراء عصرها : «إنه قبيح جداً لن يجد المرء له منفذاً كي يحبه» ، وكان وصف الصحافة الإسرائيلية للمهاجرين جارحاً جداً لا يختلف بشيء عن الحملات المناهضة للسامية التي شنتها بقية مناطق العالم . لقد نسبوا الى المهاجر الشاب وعلى نقیض مثالية الصابرا صفة (الأنانية والطفيلية ونقص الأخلاق) .

ووصفوا كل مهاجر جديد سواء كان اوربياً أو شرقياً بالتابع العدو وانه يثير الأنانية بين الإسرائيلین ، فهم يرتدون ملابس مختلفة ويتحدثون لغة أجنبية ويمارسون عادات مختلفة وأعادوا الى ذاكرة السفارديم سنوات الذل المبكرة وتصرفوا أقل خشونة حيال الأشكيناز . الذين ربوا كبثوا حزنهم داخلهم ولم يشاءوا إعادة شريط التجربة المبكرة المرتبطة بنجاتهم من المذبحة .

بيد أن مطب السفارديم كان أعمق إذا ما قورن مع حال مهاجري اوربا . فدولة إسرائيل ولأن غاليبتها من يهود اوربا قد فتحت مصراعيها أوسع أمام المهاجرين الأشكيناز الذين تبؤوا جميع المؤسسات السياسية والمالية والعسكرية والثقافية . فهم يرتبطون بحضارة واحدة وتجمعهم قيم متشابهة وفوق هذا يتكلمون اللغة الییدیة* . كما كان لمعظمهم أقرباء في إسرائيل ساعدوهم مادياً والاكثر أهمية من ذلك انهم قدموا لهم العون المادي وأرشدوهم الى الوجهة الصحيحة داخل البيروقراطية الإسرائيلية .

لم يمتلك مهاجر السفارديم أيأ من هذه الروابط لتمهد له طريقه لولوج الحياة الجديدة وتميزوا بتراث شعبي وحضارة اختلفتا تماماً عن الحضارة الاوربية الغربية التي تبنتها دولة إسرائيل وكانت النتيجة أن عانى السفارديم التفرقة العنصرية من الإسرائیلی والمهاجر الأشكيناز معاً فقد أوصى المسؤولون الحكوميون على سبيل المثال

*الیدیة : لهجة من لهجات اللغة الألمانية تكتب بأحرف عبرية وتكثر فيها الكلمات العبرية والسلافية ويتكلمها يهود روسيا وأوربا الوسطی .

بتسهيل بعض الأمور لنا نحن المهاجرين البولنديين . لقد فضل معظم السفارديم البقاء طويلاً في مراكز الهجرة ولأن معظمهم قدم من الشرق فإن الأمية كانت سائدة بينهم كما وجدوا مشقة أكبر في عملية التكيف الاجتماعي . وأسوأ هذه الأمور جميعها هي انهم قدموا بلا قادة معهم فكانوا كأنهم قطيع خراف بلا راع .

إن الصهيونية بمفهومها الأوسع حركة شعب مسير لا غير . فاذا ما استثنينا حفنة من الطليعة المثالية الذين انطلقوا يدفعهم إيمانهم القوي بأحقية رحلتهم ، لوجدنا أن الغالبية العظمى من المهاجرين الإسرائيليين قد اجبرتهم ظروفهم لمغادرة مواطنيهم . وحتى أولئك الذين نجوا من المذبحة وفقدوا أهليهم وبيوتهم قد قدموا إلى إسرائيل بعد أن ضاق بهم السبيل ولم يجدوا لغيرها بديل .

لقد ظن المهاجرون في إسرائيل مركز شفاء لهم . فیهود السفارديم عاشوا ولقروا طوال في بلدانهم سواء أكانت اليمن أو العراق أو المغرب أو مصر أو ليبيا قريري العين بأي حال من الأحوال . بيد أن الوضع تغير منذ اللحظة التي ازدادت فيها حدة التوتر بين العرب واليهود عام ١٩٤٨ واستحال تعايشهما السلمي سابقاً إلى عداء سيما بعد أن وفرت هذه التوترات منافع سياسية لبلدان عربية أخرى . والآن قد بدأ يستفحل ضغط البلدان العربية المجاورة لإسرائيل على مواطنيها من اليهود وأخذت تتدخل في جميع حقوقهم الانسانية . وهكذا خلق القدر لليهود الذين تعودوا في صلاتهم الرثاء على صهيون الفرصة والحجة لهجر بلدانهم وتحقيق أحلامهم . ومع هذا لم يتعرض يهود مناطق العالم الأخرى الذين كانوا أيسر حالاً لأي ضغط صهيوني ولم يرغب أولئك الذين لم يعانون من أي خطر بارز وضع إعتبار لعملية الهجرة وكان هؤلاء هم يهود أمريكا وجنوب أفريقيا وأوروبا الغربية .

وهكذا بدأت منذ اللحظة التي حطت فيها أقدام المهاجرين أرض إسرائيل المشاكل الجلل الاجتماعية منها و السياسية والحضارية .

الفصل الثاني

الصهيونية : حلم الأمس وواقع اليوم

شاع استخدام مصطلح الصهيونية بمفهومه السياسي أول مرة في اجتماع فيينا الذي انعقد بتاريخ الثالث والعشرين من كانون الثاني عام ١٨٩٢ . بيد أن مفهوم جبل صهيون (بيت المقدس) لم يكن جديداً فهو قديم بقدم منفى بابل كما يوضح هذا بجلاء كتاب (سفر مزامير التوراة) : «جلسنا بجانب انهار بابل ، تذكرنا جبل صهيون وذرفنا عليه الدموع» . وجبل صهيون أو كما يسمى بالعبرية (tsion) والذي يشير اليه المقطع الشعري أعلاه هو في واقع الأمر التسمية الأخرى لمدينة القدس .

كانت القدس الاسم المعروف بحصن (جيبوسايت) التي احتلها الملك داوود الثالث قبل ثلاثة آلاف سنة . والجيبوسايت هي إحدى القبائل الكنعانية التي هزمها اليهود الغزاة أو الإسرائيليون الذي تحرکوا من مصر بعد أن نالوا حريتهم من الرق والذين استقروا في أرض تعرف اليوم بإسرائيل . ثم أطلق الرومان على هؤلاء اليهود الـ (Hebrews) وهم الذين ينتمون الى قبائل بدوية ذات أصل سامي اسم اليهود (Jews) .

يمثل جبل صهيون في الأصل الجزء الجنوبي من تلة على قمته بنى ابن داوود (سليمان) المعبد اليهودي الأول حوالي (٩٧٠ قبل الميلاد) . ثم امتدت تسمية جبل صهيون لتشمل التل بأكمله فالقدس فـ (الأمة بأكملها) . بل انها باتت رمزاً لنفس الروحية التي نشرت التوحيد وهو الايمان باله غيبي واحد في عموم أرجاء العالم

الوثني ، إنه الإنجيل الذي مازال حتى يومنا هذا ينشر أفكاراً مستقاة من الديانة اليهودية .

لقد غلب طابع الحزن وغالباً المأساة على التاريخ اليهودي برغم مساهماته الغزيرة في الحضارة . إذ عاد الإسرائيليون أدراجهم الى ديارهم بعد النفي البابلي ونالوا استقلالهم ثانية وأعادوا بناء معبدهم المهدوم في القدس . ثم فقدوها ثانية بأكملها للإمبراطورية الرومانية في أول قرن . وبلغ الاضطهاد الروماني للفرد الإسرائيلي حداً حاولوا فيه مسح حتى العلاقة الرمزية التي تربط الشعب بأرضه وأطلقوا على القدس تسمية (Ilia Capitolia) وعلى (يهودا) اسم فلسطين نسبة الى (Philistines) وهي قبائل عاشت في عهد الملك داوود ونشأت فوق الجزر اليونانية ثم وصلت سواحل كنعان في حوض البحر المتوسط . أرسل تدمير المعبد الثاني حوالي ٧٠ سنة بعد الميلاد باليهود الى منفى آخر دام فترة تناهز الألفي سنة . وتفرق الإسرائيليون أغلبهم في بقاع العالم المتناثرة وظلت حفنة قليلة منهم تعيش في إسرائيل .

كان من المنطقي أن ينجح للمرء ان النفي سيكون بداية النهاية للشعب اليهودي إذا ما نظر الى أمم وحضارات أخرى سكنت الشرق الأوسط ولم تكن أقل ازدهاراً من الحضارة اليهودية ثم اختفت تماماً من على وجه الأرض وتلك الحضارات هي السومرية والآكدية والآشورية والبابلية .

لقد رفض التاريخ اليهودي برغم ذلك أن يقولب نفسه وتحدى النظريات التي وصفت بزوغ وأفول الحضارات . وهاهو الفيلسوف الألماني سيجلر قد سلم بأن طبيعة الحضارات هي التي تولد أو تموت بينما يؤمن المؤرخ البريطاني (ارنولد توينبي) أن الحضارات قد تطورت نحو أشكال عليا . وكلا الأمرين لا ينطبق على الحضارة اليهودية .

يمكن تفسير هذا اللغز المبهم جزئياً باللجوء الى الشعائر الدينية الصارمة وانعزالية أوائل اليهود، حيث لعب هذان العاملان دوراً ساعداً في المحافظة على لغتهم وتقاليدهم وموروثهم عبر القرون .

بيد أن العزلة والديانة المتميزتين كان لهما جانباً سلبياً جلب لليهود كره جيرانهم بعد أن حملوهم قبل هذا وذاك مسؤولية دم المسيح . كانت مناهضة السامية باديء الأمر ذات جذور دينية فقط ثم تشعبت لتأخذ إشارات سياسية واقتصادية واجتماعية وعنصرية وجلبت معها الكارثة والفاجعة اللتين تسببتا بعدئذ في التخلف والاضطهاد . سكن اليهود الديسبورة في اوربا الشرقية في مدن صغيرة إقتصرت عليهم حصراً (Shtetls) وفي مقاطعات باتت تعرف بـ (أحياء اليهود - الغيتو-) . واختلف يهود اوربا عن جيرانهم فأسماءهم كانت غريبة وتميز لباسهم بالمعطف الأسود الطويل والرداء وغطاء الرأس . وتكلموا لغة أجنبية هي الييدية . لم يستخدم يهود الديسبورة وعلى مدى ألفي سنة من تاريخهم اللغة العبرية إلا في صلاتهم ، فهي لغة مقدسة وهي لغة التوراة المقدسة ، وباستطاعة المرء أن يصلي أو يتأمل أو يحلم في اللغة العبرية بيد أنه يلجأ الى اللغة الييدية في حديثه اليومي العام .

لم يتوسم اليهود سنيما يهود اوربا الشرقية بحرفة أو مهنة محددين واعتادوا جميعاً عيشة الكفاف كما أطلقت عليهم اللغة الييدية كلمة (Luftmenschen) أو (الناس الاثريون) ومع هذا فقد اقترنت بهم بعض الحرف مثل أصحاب الخانات أو أصحاب المتاجر أو الربا بالمال .

لقد قصدت الصهيونية الحديثة اعتناق اليهود من مجتمعاتهم المعزولة ومن عزلتهم وتخلفهم وأن تعيد لهم كرامتهم . كما أرادت لأنها حركة تحرير وطنية أن ينال اليهود حريتهم وأن يكون لهم كيانهم في أرضهم القديمة . أما رغبتها الجائعة فكانت تنشد السواء أي حق الشعب اليهودي أن يكون لهم أمتهم كباقي الأمم .

يرغب المؤرخون في تعريف الربط بين الزمان والمكان لواقع يستطيعون تحديده بأنه بداية الإنعطافة التاريخية بيد أنهم يدركون تماماً أن الأحداث التاريخية الكبرى لم تكن أحداثاً ثابتة وهي حتى وإن كانت ذات بعد واحد فإنها تركيبة من عوامل عدة تمثل عملية ما . فبات ينظر الى حزب (تي . بوستن) بأنه انعطافة في الثورة الأمريكية واقرنت الثورة الفرنسية بهدم أسوار الباستيل . ومن الصعب تحديد مكان وتاريخ ولادة الثورة الصهيونية لأنها لم تولد في مكان واحد وزمان معين بل ترعرعت في أماكن شتى عبر زمانات متعددة . ومع هذا يمكن القول أن أحداثاً معينة في روسيا (أعمال العنف ضد السامية والمعروفة باسم المذبحة المنظمة) قد ولدت الثورة الصهيونية . إشتقت كلمة (Pogroms) من الكلمة الروسية (Pogromi) التي تعني (تدمير) وقد استخدموها لوصف المجازر التي حلت باليهود وتدمير ممتلكاتهم ، تلك العملية التي انتشرت داخل الإمبراطورية الروسية كالنار في الهشيم في فترة الثمانينات من القرن التاسع عشر . ومن بين أنقاض هذه المذبحة نهضت الحركة السياسية الصهيونية . لقد خاض معظم قادة الصهيونية الكبار غمار تجربة المذبحة هذه التي أنبتت في روحهم ونفسياتهم جذور خوف عميقة . فتراهم يخطون في مذكراتهم حتى بعد سنوات طوال من انقضائها كيف اختبأوا تحت الأسرة والمناضد وداخل خزانات الملابس سيما بعد أن عاث المشاغبون قتلاً لا يردعهم رادع . وكتيجة لهذا الأمر اجتاز أوائل اليهود التواقين الى جبل صهيون عملية مسح جذرية وأعادوا النهوض بها كفكرة سياسية حديثة . وبرز من بين هؤلاء الناجين من غدا بعدئذ المخطط البارع والحالم والكبير .

أما الرجل الذي عقد العزم أكثر من غيره ليحيل الحلم حقيقة فهو ثيودور هرتزل (بنيامين زيف) وقد ولد في بودابست (العاصمة الثانية للإمبراطورية الهنغارية النمساوية) عام ١٨٦٠ . كان قائد الصهيونية وبطلها بلا منازع حتى كناه الكاتب النمساوي المتجدد (ستيفن زوغ) بـ (ملك اليهود) . إنه موسى عصره الذي سيحط

بشعبه في أرض الميعاد . لقد أخرج هرتزل (الدعاء) الوطني اليهودي من قبور أحيائهم وأنصبه ثابتاً في محافل السياسات الدولية واستحالت القومية اليهودية بفضلها الى قوة سياسية .

ولد هرتزل بين أحضان عائلة يهودية برجوازية نموذجية وكان الإستيعاب هو جو العائلة السائد برغم أن أطفالها مازالت تنهل بعض الثقافة اليهودية . كانت اللغة التي تعلم بها هرتزل ثقافته هي الألمانية برغم أنه من أصل هنغاري وقد كتب في مذكراته انهم لو منحوه الخيار ليغدو شخصاً ما آخر لاختار أن يكون نبيلاً ألمانياً . ثم تخلى بعد أن نال شهادة الدكتوراه في القانون عام ١٨٨٤ عن نيته في أن يصبح محامياً متمرساً في فيينا كي يهب نفسه كاملة للكتابة . وهو لم يكن حينئذ مفكراً جاداً أو معلقاً حاذقاً بيد أن كتاباته إتسمت بالذكاء والفظاظة أكسبته عاطفة قرائه حتى نال أخيراً عملاً ثابتاً في أكثر صحف فيينا سمعة ألا وهي صحيفة (نيو فري بريس) . كان جميع محرري هذه الصحيفة من شباب اليهود المدركين آمنوا جميعاً أن الرقي الإنساني والتحررية السياسية ستهزم قوى الظلام المناهضة للسامية . وألف هرتزل أيضاً عدداً من المسرحيات الهزلية التي كانت ككتاجات عصرها ساذجة أكثر من أن تكون مضحكة .

جاءت نقطة الفصل في حياة هرتزل بعد تعيينه عام ١٨٩١ مراسلاً لصحيفة (نيو فري بريس) في باريس . لقد تميزت مرحلة التسعينات من القرن التاسع عشر بأنها مرحلة مداواة مناهضة السامية في كل من فرنسا وباقي بلدان اوربا الغربية أما الحدث الأجل الذي هز كيانه فكان (ألفريد درايفس) . كان ألفريد درايفس ضابطاً في الجيش الفرنسي ومن نسب يهودي . وقد ألقت السلطات الفرنسية القبض عليه في تشرين الأول عام ١٨٩٤ بحجة بيع أسرار عسكرية الى ألمانيا عدوة فرنسا اللدودة برغم ولاءه المطلق للجيش الفرنسي .

كان بريثا بيد أن المحكمة العسكرية أعلنته مذنباً فأعدموه علناً في كانون الثاني عام ١٨٩٥ . لقد حضر هرتزل بصفته صحافياً مراسم الذل التي جردوا فيها درايفس من رتبته العسكرية (كان برتبة نقيب) وسمع صيحات الحشد الحاضر تقول : الموت للموت لليهود (A mort! Amort! les Juifs!).

أدرك هرتزل بعد أن خرج من المحاكمة ؛ وكأنه نفس شاردة تبحث عن ذاتها ؛ أن اليهودية لن تجد حلاً لمشكلتها بالإتحاد والإدراك وإنما في أن يكون لليهود أرضهم ووطنهم . وهكذا طلع هرتزل من كائن يهودي يبحث عن جذره وينشد مجرد الإتحاد مع الحضارة الأوروبية الغربية المتناهية الحدود (كما كان يراها هكذا) الى كائن وطني مخلص ليهوديته .

بعد عودته من فيينا ، وظف هرتزل نفسه تماماً ليكتب منشاداته لكافة التجمعات الصهيونية نتج عنها صدور مقالة قصيرة عام ١٨٩٦ والموسومة بـ (Der juden stat) التي تعني (دولة اليهود) ، محاولة لإيجاد حل عصري لقضية اليهود . كان جوهر الموضوع أن اليهود ليسوا وحدهم من يحتاج الى دولة لهم بل جميع العالم ايضاً . واستند مفهوم ذلك في أن (يتجمع) اليهود لأجل دولتهم المستقلة وأن ميثاقاً بهذا الأمر سيصدر ليؤكد هذا القرار ، ومن أن المجتمعات اليهودية في شتى أنحاء العالم ستتنظم نفسها لإجراء حوارات مع القوى الخارجية ، وأن تدير عملية الهجرة اليهودية من الديسبورة الى منطقة أخرى جديدة وسيقع على كاهل أثرياء اليهود مهمة دعم هذه العملية مادياً .

أثارت المقالة بعد نشرها أول مرة مزيجاً من ردود فعل تراوح بين الحماس لها الى الحقد أو اللعنة عليها . ثم بدأ مشروع هرتزل يكسب زخماً تدريجياً له ومضى هو دون كلل يكتب الرسائل ويسافر في رحاب أوروبا ليلتقي بقية تجمعات اليهود في محاولته الشروع بتكوين دولة اليهود حتى توجت جهوده نهاية المطاف بعد عام ونصف العام

من العمل السدّوب في القرار القاضي بعقد مؤتمر خاص هو المؤتمر الأول لـ (الكونغرس الصهيوني).

وهكذا، التقى في التاسع والعشرين من آب عام ١٨٩٧ مائتان وخمسون وفداً يمثلون أربعاً وعشرين دولة من شرق اوربا وغربها في قاعة المؤتمرات في كازينو بازل بسويسرا. تراوحت هذه الوفود بين أن تكون ممثلاً لتجمعاتها أو مدعوة من لجنة المؤتمر أو من جاء منها نيابة عن نفسه ومن محض إرادته. وكان هناك طلاباً ورجال أعمال أثرياء وعباقرة وعمال.

استمرت أحداث المؤتمر ثلاثة أيام تم خلالها تبني فكرة هرتزل بإقامة دولة اليهود في فلسطين، كما قرر المؤتمر إقامة الإتحاد الفيدرالي الصهيوني ليكسب الدعم العالمي لمفهوم دولة اليهود في فلسطين. وقد انتخب المؤتمر هرتزل أول رئيس لإتحاد المنظمات الصهيونية.

كان هدف هرتزل المعلن في أول مؤتمر هو وضع خطة ستكون بعدئذ جني المستقبل للحاضر في (الدولة السوية) واستحالت الرغبة في أن يكون لليهود (أمة كباقي الأمم) هاجس مؤسسي الصهيونية، فيهودي المدن القديمة بات كما يراه مؤسسو الصهيونية إنساناً ضعيفاً شاحباً وملابسه سوداء مشؤومة. وأرادوا أن ينشلوه من ذاك الرداء المقيد ليرتدي ملابس قصيرة خفيفة ورياضية تمكنه من ممارسة رياضة الجمباز أو العدو أو الملاكمة أو رفع الأثقال. كان حلمهم هو بناء (اليهودي المقتول العضلات) فأسسوا لهذا الغرض منظمات رياضية ونوادي تحمل أسماء تأملية (Hakoach) أو (قوة) أو (مكاب) تمجيداً لأبطال اليهود القدامى الذين تحدوا المحتلين الإغريق قبل حوالي ألفي سنة.

وفوق هذا اشترطت الصهيونية الاولى أن الأمة لن تكون سوية مالم يكون لها

عالمها الإجرامي التحتي فتطلعوا أماماً بتلك العاطفة الرومانسية صوب لحظات اللذة التي ستعم المجتمع اليهودي الحديث فوق أرض إسرائيل عندما يكون له (عاهراته ولصوصه اليهود). أما واقعية المجتمع الإسرائيلي اليوم وضمن هذا السياق فقد تجاوزت حتى تخيلات الآباء الأوائل . وتسع سجون إسرائيل الأربعة عشر لستة آلاف مجرم بعضهم يتسبب لأبشع صنف بشري وحشي وبمقدوره أن يتبوأ أعلى مقام بين عوائل إجرام نيويورك المنظمة . وارتفع عدد زوار السجون الإسرائيلية من اليهود في العقد الأخير الى الضعف كما أن القانون الإسرائيلي يمنع الدعاية بيد أن العاهرات يجبن كل مدينة ولم يبق من صناعة الجنس شيء لم يدخل إسرائيل .

دخل السرور قلب هرتزل بعد مؤتمر الصهيونية عام ١٨٩٧ وكتب في مذكراته أنهم لو طلبوا إليه أن يصف المؤتمر بعبارة موجزة لقال : «لقد أسست دولة اليهود في بازل» .

ويتجلى أمامنا بون واسع بين دولة اليهود كما أرادوها بالأمس وبين حالها اليوم . لقد أسهب هرتزل عام ١٩٠٢ في وصفه في كتابه (الأرض القديمة الجديدة) (Altenuland) والمسمى في اللغة العبرية باسم (تل أبيب Tel Aviv) الذي يعني (تل الريح) . فكلمة (تل) تشير كما وردت هكذا في التوراة الى طبقات الأرض القديمة التي انطمرت فيها المدن القديمة وتحمل كلمة (الريح) رمزاً للأمل بمستقبل مشرق وأرض جديدة .

إن دولة اليهود التي تخيلها هرتزل هي دولة العامة والحرية والتحرر من الاكليروسية وفيها يتفصل الدين تماماً عن الدولة . أما واقع دولة إسرائيل الحديثة فهو برغم هذا واقع مختلف تماماً . وربما تغص إسرائيل أكثر من أي بلد اوروبي غربي آخر بالجماعات والأحزاب الدينية والاكليروسية التي يمتد تأثيرها على كل مجريات الحياة اليومية في البلاد . كان حلم هرتزل أن تحدد تجمعات الإصلاح طريقة الممارسات

الدينية غير أن المؤسسات الدينية في إسرائيل تحكمها بيد من حديد الطائفة الارثوذكسية التي رفضت بعناد أن تمنح تفويضاً لأي تجمع آخر بضمونها جماعات الإصلاح . كان ذروة الهدف الديني الذي أراد هرتزل تحقيقه هو بناء كنيسة جديدة لن يكون موقعها في (جبل الكنيسة) في القدس الذي تشغله من قبل الجوامع الإسلامية . ومع ذلك نجد في إسرائيل اليوم كثير من الجماعات الراديكالية والمتعصبة التي جاهدت لنسف كل هذه الجوامع لفصح المجال أمام بناء المعبد اليهودي الثالث .

كتب هرتزل يقول : «ستتميز دولة اليهود بقدرتها على التحمل وبالتوافق بين جميع طوائفها الدينية» ليصف بهذه الروحية مآدبة عيد الفصح الذي ستحضر احتفالاته جميع الجماعات الدينية داخل الأمة . بيد أن التناحرات الدينية ولسوء الطالع ما برحت قائمة في إسرائيل اليوم ولا أرى أي توافق بين طوائفها الدينية سواء أكانت يهودية أو مسيحية أو مسلمة ويكفي أن أقول ان شهر تشرين الثاني من عام ١٩٩٠ شهد أكبر مواجهة دموية بين الشرطة الإسرائيلية والشباب المسلمين حول مسألة من سيضع يده على (جبل الكنيسة) راح ضحيتها تسعة عشر من المصلين المسلمين قتلوا بعد أن أنهوا صلاة الجمعة وجرح ما يزيد على مائة شخص . هذه الأحداث التي سببها سوء الفهم المتبادل والمتسببة هي في عدم ثقة متواصل إنما هي ذكرى مأساوية أخرى لافتقار إسرائيل اليوم لقدرة التحمل .

أيقن هرتزل أيضاً أن غالبية شعب اليهود سيهاجر ليستقر في دولته بيد أنه يفضل في واقع الحال العيش خارجها وتقدم الولايات المتحدة مثلاً حياً لهذا الأمر . إذ يقطن فيها قرابة خمسة ملايين ونصف مليون يهودي وهو عدد يفوق عدد سكان دولة إسرائيل وتعج نيويورك بثلاثة ملايين يهودي ليشكلوا بهذا الرقم نسبة تفوق نسبة وجودهم في تل أبيب أو القدس . ولم يتطرق هرتزل في كتابه (الأرض القديمة الجديدة) الى اللغة العبرية فلغة الحياة اليومية هي (الييدية) مع بعض الحروف الألمانية .

تقترن هذه اللغة لمعظم الصهاينة بأحيائهم القديمة (الغيتو) التي يسعون جاهدين لطبي ماضيها وعليه باتت العبرية لغة الصهيونية وان إحياءها مجدداً كان أكثر نجاحات الطموح الصهيوني بريقاً.

هذا الإحياء الجديد للغة العبرية يمثل إنجازاً لا يقل شأناً عن إعادة بعث القومية اليهودية . لقد ظلت العبرية لغة غير منطوقة لحوالي ألف وثمانمائة عام إذا ما استثنينا استخدامها في الصلاة أو في الوقائع المتغيرة الشديدة الارتباط بالسحر . وعند مقارنتها مع اللغتين الإغريقية واللاتينية القديمتين اللتين سادتا لأكثر من ألفي سنة لوجدنا انهما وعلى خلاف العبرية غائبتان عن ساحة الحديث ، واقتصرت تعليمهما على المدارس والجامعات والمعاهد اللاهوتية . كانت العبرية وحتى القرن التاسع عشر لغة مطمورة ثم اختارها اليهود بعد أقل من مائة سنة لتكون لغة حديثهم .

ويتكلم العبرية اليوم قراءة وكتابة زهاء أربعة ملايين يهودي إسرائيلي وما يربو على مئات الآلاف من اليهود الموزعين في شتى بقاع العالم ، وغدت لغة الأحلام والحب . ولولا رابطة اللغة المشتركة هذه بين أوائل المستوطنين الإسرائيليين لاستحال تحقيق الحلم بإقامة دولة إسرائيل وإعادة بعث القومية الصهيونية .

لما يزل أماننا في أقل تقدير عاملاً تناقض بين إسرائيل هرتزل وإسرائيل الواقع . وكلاهما يرتبط بعلاقة إسرائيل مع جيرانها العرب وبمشاكلها الأمنية .

لم يحاول هرتزل النظر بجدية لمسألة شعور العرب المحليين حيال المهاجرين والمستوطنين اليهود بل تجلّى من خلال برنامجه الأصلي أنه لم يبد اعتباراً لنصف مليون عربي كانوا يسكنون فلسطين كما تجنب في روايته (الارض القديمة الجديدة) مشكلة التعايش العربي - الإسرائيلي بأمله في أن تتحمل دولة إسرائيل اليهود والعرب معا وهكذا وضع بهذا الخط في التفكير حجر الأساس الروحي لطريقة التقارب الصهيوني

خيال جيرانهم العرب في الشرق الأوسط . لقد تجاهلت إسرائيل كأنها نعمة طمرت رأسها في الرمال الواقع المحيط بها ، وساد الإسرائيليون شعور أو أمل عميق ان القضية الفلسطينية ستنتهي بمعجزة ما . وإذا ما سألت معظم الإسرائيليين عن أحلى حلم يتمنوه لكان جوابهم أن يروا إسرائيل تنشل حالها من هيولية الشرق الأوسط ، وحرارة البحر المتوسط ، وأن تقيم نفسها فوق مروج اوربا الغربية الريفية والباردة . ولشياء معظمهم دون أدنى شك وبسبب حالة العداء المستمرة مع جيرانهم العرب الى المتاجرة بحدودهم مع سوريا والأردن ولبنان ومصر بحدود أخرى مع سويسرا أو إيطاليا . لقد أراد هرتزل من مدينته الفاضلة أن تكون دولة يهود غربيين لتعمل كجسر يعزز المصالح الغربية . لقد كان الصهاينة والإسرائيليون وما زالوا سذجاً إن لم يكونوا مسؤولين عن تجاهل وجود جيرانهم العرب .

وهكذا نأى هرتزل بنفسه وكتيجة لتجاهله الصراع العربي - الإسرائيلي أن تواجه مسألة أمن إسرائيل المستقبلي فهو لم يخصص في صفحات روايته الطوبائية الثمانين إلا سطرين عبرا عن وجهة نظر قاصرة خيال هذا الأمر : «ستحاول دولة إسرائيل أن تحافظ على حيادها وعليه فانها بحاجة الى جيش نظامي صغير الحجم» . أما حقيقة إسرائيل فهي العكس تماماً . فهي ليست حيادية أولاً وانها نصير للغرب عن بكرة أبيها ، وتحفظ بجيش كبير يضم المجندين والنظاميين والإحتياط . وأصبحت اليوم (اسبارطة) الشرق الأوسط وهي القوة العسكرية الأقوى في المنطقة . ولو حدث أن أخبر شخص ما هرتزل قبل مائة سنة ان دولته ستكون إحدى أكثر الدول المتقدمة تكنولوجياً لضحك في وجهه كثيراً .

لقد شد هرتزل الرحال بين عواصم العالم في محاولته الاجتماع بكبار قادتها وكسب تأييدهم الدولي لمشروعه ولم يكل له ساعد في الكتابة الى رؤساء الحكومات والرؤساء والملوك والأمراء والكتاب والفنانين فكتب الى مستشار المانيا القومي (أوتفون

بسمارك) الذي وحد ألمانيا عام ١٨٧٠ وإلى (فيثوريا ايمانويل) ملك إيطاليا وكذلك إلى البابا . وقد نجح في أعقاب التطويق الألماني لكامل أوروبا في الالتقاء بـ (وليم الثاني) في القدس في الثاني من تشرين الثاني عام ١٨٩٨ وأيقن أن إمبراطور ألمانيا سيتدخل بالنيابة عن الحركة الصهيونية لدى سلطات تركيا لدعم فكرته في أن ينال اليهود استقلالهم في فلسطين تحت الحماية الألمانية . بيد أن الفكرة لم ترق لإمبراطور ألمانيا .

ثم نجح عام ١٩٠١ في أن يلتقي سلطان تركيا (عبد الحميد) وذلك بفضل الرشاوي التي قدمتها المصادر المالية المحدودة لإتحاد المنظمات الصهيونية والذي تم توزيعه بسخاء على البلاد التي يعمها الفساد . قدم هرتزل في هذا اللقاء عرضاً جاء فيه : ستتولى الحركة الصهيونية مهمة ترتيب دعم أثرياء اليهود الإقتصادي لتطوير الإمبراطورية الهرمة مقابل موافقة السلطان بحق اليهود في إقامة دولتهم .

وتتبع اليوم حكومة إسرائيل نفس هذا الأسلوب الدبلوماسي في محاولاتها إقناع قادة دول العالم الثالث إعادة علاقتهم الدبلوماسية مع إسرائيل . وتقدم نيجيريا مثلاً حياً في هذا الجانب . لقد اعترفت علناً في آب عام ١٩٩١ ان قرارها بإعادة العلاقات مع إسرائيل كان الصورة القديمة لأثرياء اليهود . وأعلن قادتها بوضوح وكأنهم قرأوا مذكرات هرتزل (نأمل أن تساعدنا إسرائيل واليهود الذين لهم نفوذ في المؤسسات المالية الدولية على جذب إستثمارات أكثر) . لقد وعدت إسرائيل بالتدخل لدى واشنطن لمصلحة نيجيريا وأن تحفز الإستثمار اليهودي للنهوض باقتصاد نيجيريا المتردي . وقد فعلت ما وعدت به إذ يوجد اليوم ما يربو على ألف رجل أعمال يهودي داخل نيجيريا .

عاد هرتزل من تركيا بخفي حنين إذا ما استثنينا دبوس ربطة العنق المصنوع من الماس الذي أهده إياه السلطان عبد الحميد . فقد وضعت تركيا شروطاً مالية وسياسية صارمتين ضيقت الخناق على هرتزل وأجبرته أن يسحب عرضه .

وبرغم أن مناشدات هرتزل قد رفضها كبار قادة العالم نهاية المطاف فإن مفاهيمه الأساسية ما زالت قائمة في إسرائيل اليوم . كانت وصيته الكبرى ان السبيل الوحيد لبناء دولة اليهود وتطويرها هو باستجماع أكثر من قوة عالمية ، ثم بات هذا الاعتماد على القوى الأجنبية المفهوم المتكرر في التاريخ الصهيوني والإسرائيلي .

وهبت بريطانيا عام ١٩١٧ (وكانت أول دولة) الشعب اليهودي حقهم في إقامة دولتهم المستقلة ثم اعترفت بذلك الحق عصبة الأمم (التي سبقت الأمم المتحدة) ثم أقرت به هيئة الأمم المتحدة عام ١٩٤٧ . لقد حمل الإسرائيليون مفهوم الدعم الأجنبي في جميع حروبهم عدا حرب الإستقلال عام ١٩٤٨ . وتحدد مصير المعارك الإسرائيلية العسكرية من حملة (سيناء) عام ١٩٥٦ الى حرب الخليج عام ١٩٩١ بالرغبة في كسب موافقة ودعم القوى الأجنبية الدبلوماسية ، وترى قادة إسرائيل يغطون في مشاكل عميقة لضمان حصول موافقة القوى الخارجية والصديقة قبل أن يطلقوا رصاصة واحدة سواء أكانت هذه القوى بريطانيا وفرنسا سنة ١٩٥٧ أو الولايات المتحدة منذ ذلك التاريخ حتى اليوم . إلا أن إسرائيل -إذا ما استثنينا حرب الخليج- لم تطلب قط أن تطأ ترابها أقدام جيش أجنبي ، بل كانت تنشد الدعم المعنوي والإقتصادي والدبلوماسي على مر تاريخها .

توفي هرتزل في الثالث من تموز عام ١٩٠٤ في النمسا (ربما بمرض الزهري) يأسره شعور بخيبة الأمل . لقد توفي وعمره أربع وأربعين سنة ، أرهقت المشاكل الشخصية والعائلية والمادية والسياسية السنوات السبع الأخيرة منها ، كما تردت صحته الجسدية والعقلية كثيراً . لقد تصور هرتزل برغم خيبة الأمل التي تلقاها واليأس الشاسع بين الحلم والحقيقة بوضوح لم يسبق له مثيل كيفية إقامة دولة إسرائيل . فقد كتب في مقدمة روايته (الارض القديمة الجديدة) يقول : «إذا رغبت بها فلن تكون فائقة الرقة والجمال» . وتبلورت مثلاً على مدى خمسين عاماً كثير من الأمور

التي تصورها ، وغدت أفكاره منهلاً للكثيرين من بعده والذين مضوا قدماً في صياغة
وبناء وتأطير أمة الصهيونية .

الفصل الثالث

بناء الأمة

بينما وجدت إسرائيل في هرتزل الحالم ورسول السياسة الصهيونية ، فلإنها قد رأت في بن غوريون مؤسس أركانها . كان صغير الحجم وحازماً ، أما خطواته فكانت ماضية وسريعة . لقد جسد روح الدولة الجديدة كما رآه هكذا الإسرائيليون والأجانب على حد سواء .

لقد تعلم بن غوريون الصهيونية في بيت أبيه في بولندا حيث ولد هناك عام ١٨٨٦ باسم (ديفيد كروين) . وجاءت نقطة التحول في حياته أثناء الزيارة الى مدينته الصغيرة جالباً معه نظرتة لوطن اليهود . كان حينها في الحادية عشرة من عمره فسقط في شراك حب الصهيونية حتى أنه غير اسمه لما بلغ العشرين من عمره الى اسم عبري . ثم تعمقت جذور هذا الحب بعدئذ لتشمل الاشتراكية أيضاً والتي غدت الوسيلة الكبرى لبناء الأمة الصهيونية ، بعد أن كانت أثناء مناقشات مؤتمر الصهيونية الأول في بازل - سويسرا - عام ١٨٩٧ مجرد أمر هامشي . وتوسعت الكتلة الاشتراكية لتصبح في غضون عقدين من الزمان الكتلة الأقوى في البلاد ، وبات بن غوريون فارسها المقدام . وتحرر معظم قادة الصهيونية الاشتراكيين من أوهام مناهضة السامية التي تحلى بها رفاقهم من غير اليهود . فقرر هذا الاشتراكي اليهودي المزج بين مثالياتهم في العدالة الاجتماعية (توزيع متساو للثروات) وبين الحركة الوطنية لإعادة بعث دولة اليهود . واقترح بعضهم متأثراً بأفكار الطوبائية الاشتراكية والراдикаلية الروسية ان الشعب هو من يملك أرض دولة اليهود المستقبلية وأن تقام على هذه الأرض

المجتمعات الصناعية والزراعية . واتكأ بعضهم على التوراة وآمن أن باستطاعة الاشتراكية الصهيونية أن تستلهم بعضاً من أنبياء اليهود الذين حاربوا الظلم الاجتماعي والفساد كي تسمو بدلاً عنهما المبادئ الروحية والأخلاقية .

لقد وصل رواد الصهيونية الى فلسطين وفي جعبتهم معظم هذه الأفكار الاشتراكية فالجماعات القومية اليهودية كانت قد انتشرت في رحاب الإمبراطورية الروسية حتى قبل أن يرى هرتزل أضواء الصهيونية . وبينما شرع معظم اليهود في التفكير بالهجرة الى أمريكا أو أوروبا الغربية ، أيقنت هذه الجماعات أن الهجرة الى هذه الأماكن لا تمثل إلا حلاً محتملاً لمشاكل فردية ، فقد واجه الفرد اليهودي مسألة العداء ومناهضة السامية حتى في ألمانيا وفرنسا وأمريكا وبريطانيا التي شهدت مرحلة التحرر الرسمي وحيث نال فيها قسطاً من حقوقه وحرياته وعليه أصرت هذه التجمعات على وجوب وضع مسألة الظلم ضد اليهودية في إطار الحل الشامل كعلاج شاف لا بديل عنه . هذا الدواء هو فلسطين أو كما أحبوا أن ينادوها بجبل صهيون . وبناءً على هذا الأمر أطلقت هذه التجمعات على نفسها اسم (عشاق جبل صهيون) وكان معظمها عبارة عن منظمات صغيرة الحجم تطوع لإنشاءها جمع من الشباب والطلاب المتحمسين بيد أن عضوية الانتساب اليها شملت كل شرائع اليهود الدينية وغير الدينية ، الأغنياء والفقراء ، الأميين والمتقنين .

شرعت في الثلاثين من حزيران عام ١٨٨٢ مجموعة تتألف من أربعة عشر شاباً بينهم شابة واحدة رحلتها صوب إسرائيل عبر البحر على ظهر قارب صغير مصدوع عبروا به البحر الاسود حتى وصلوا (اسطنبول) عاصمة الامبراطورية العثمانية التركية ، ومن هناك عبروا البحر المتوسط الى ميناء يافا (Jaffa) في فلسطين (إسرائيل) . كانت هذه الهجرة مقدمة لفصل الإستهيطان الحديث في فلسطين وهي تسمى باللغة العبرية (Alyah Rishona) أو الهجرة الأولى وباتت منذ ذلك الحين

نقطة الرجوع عند إحصاء موجات الهجرة اليهودية المتعاقبة .

أطلقت العبرية على هذه المجموعة من المهاجرين الاوائل اسم (Halutism) أو (الرواد) وكن لهم الصهاينة إعجاباً كبيراً وقلدوهم منزلة سامية منهم كما يظن بهم اليهود حجر الأساس الذي نشأت عليه دولة اليهود ، وجعلت منهم كتب التاريخ الإسرائيلي وبفضل حملات دعائية أجزلوا فيها رشوة للآخرين أبطالاً ذوي منازل اسطورية كما أطلقوا على الشوارع والمستوطنات جميعها مسميات تحمل اسماءهم ومجد لهم الشعراء والكتاب كثيراً وترددت اسماءهم على ألسنة طلاب المدارس وفي رياض الأطفال كنموذج يستحق الثناء .

لقد تعلمت في المدرسة كم هي قاحلة وجرداء تلك البلاد التي حط بها أول الرواد رحالهم ، وكنا نصدق كل ما نسمع حتى أدركت اليوم أن هذا مجرد محاولة تلقين الصهيونية بمثل هذه المبادئ وليست سرداً أميناً لحقائق التاريخ . فأقدام المهاجرين اليهود لم تطأ أرضاً جرداء فقد استوطنها العرب منذ قرون عديدة خلت .

فقد تجاوز عدد سكان فلسطين مطلع الثمانينات من القرن التاسع عشر النصف مليون نسمة بلغت منه نسبة العرب الذين استقروا في قرى صغيرة وعاشوا على زراعة أرضهم حوالي ٩٥٪ وشكل اليهود الذين عملوا مزارعين لدى مالكي الأراضي العرب النسبة المتبقية البالغة ٥٪ فقط .

عامل العرب برياطة جأش المجموعة الأولى التي وصلت من اليهود وهو ما زرع فيهم شعور الغربة مجدداً وبأنهم سياح اوروبيون غرباء . وتقول الحقيقة ان من أجج التناحر والعداء وولد حالة الشكوكية المتبادلة هو -ويا للسخرية - تلك المواجهة التي حدثت بين هؤلاء الرواد الجدد و (إخوانهم) الذين هم مجموعة صغيرة من اليهود الارثوذكس عاشوا في هذه الارض منذ قرون عديدة مضت .

وليس من العسير أن تتلمس ذلك الشعور الذي خالج الرواد الأوائل بعد وصولهم عام ١٨٨٢ متفائلين مبتهجين ثم يصدمهم ذلك الواقع الخشن لفلسطين . فعلى الجانب الأول يقف العرب الذين وصفهم الرواد بـ (الشرقيين) وجسدوا فيهم صورة التخلف والتعصب والخداع . وهناك أيضاً الفظاظ والغربة والروائح النتنة التي تحل بها سوق (يافا) بجانب المراهنة وممارسات التجارة البالية ، التي تعتمد على الليونة والمفهوم المتشابك لمصطلح الوقت (غداً) ، الذي قد يعني (اليوم التالي أو الأسبوع التالي) ، كما تحمل كلمة (نعم) معنى غامضاً أيضاً يتراوح بين (من المحتمل) و (لا) . ويقف على الجانب الآخر اليهود المتدينون المحليون القدامى . لقد أعاد هؤلاء الى ذاكرة الرواد شريط حياة الجور التي هجروها توأ وأضحوا الصورة المستنسخة لعوائلهم في أحياء اوربا الشرقية .

لقد شد هؤلاء الرواد عزمهم صوب فلسطين يحدوهم هدفهم ببناء المجتمع الجديد الذي سيمنح الشعب اليهودي بيئة إجتماعية جديدة ، وكان هدفهم بناء مجتمع يستند على البناء الهندسي للأهرام . فقد تألف البناء الإقتصادي الإجتماعي لمجتمعات اليهود الديسبورة من التجار والمرايين والباعة المتجولين والسماسرة ومن يعيش على الصدقة وحتى من المتسولين المفلسين . هذا الجمع من الناس وكما صوره الرواد بالإستناد الى مفهوم البناء الهرمي لا يعدو أن يكون بالطفيليين والـ (المستهلكين) بينما يقف على قمة الهرم اليهودي المتعجيز والأساتذة والصناعيين وحتى المزارعين . وهنا قرر رواد أرض إسرائيل ومن ساعدتهم من الصهاينة الذين عادوا الى وطنهم تغيير بنية الهرم اليهودي وأرادوا بعد أن ظنوا بأنفسهم الطليعة الإجتماعية ان يخلقوا مثالاً ستحتذي به جميع الجماعات الصهيونية لاحقاً ، وكانوا تواقين أن يكون واحد منهم التقيض الكامل لليهودي القديم المحلي .

لم يأخذ الرواد إلا قليلاً من الوقت ليتكيفوا مع ظروف الحياة الجديدة القاسية ،

وانتشر معظم المستوطنين اليهود في عرض البلاد وطولها بحثاً عن فرص عمل وعملوا في أحيان كثيرة كعمال تنقصهم المهارة في مدرسة زراعية أنشأها مؤخراً اتحاد خيري فرنسي . بيد أنهم سرعان ما أدركوا مشقة العيش هكذا . فعمل الزراعة شاق لا سيما في فصل الصيف حيث تلهب الشمس الأرض بحرارتها ثم ان معظمهم طلاب لا يقوون حالاً أو تقبلاً لهذا العمل الوضيع ، فتشاجروا مع جيرانهم العرب وأكثر منهم مع اليهود الآخرين الذين ظنوا في هؤلاء القادمين الجدد -لأنهم غير متدينين- بالشيء البغيض المزعج . لقد أيد الرواد الانفصال عن عائلة بطريك الزواج الأحادي ووعظوا بالعدالة الاجتماعية بروحية الإشتراكية التي تشربت فيهم في مدن روسيا الأم .

مكثت المجموعة الأولى من المهاجرين الروس زهاء العامين ونصف العام قبل أن تنحل تماماً ، فعاد بعضهم أدراجه الى وطنه ودياره والتحق البعض الآخر بمجاميع أخرى من الرواد . ويتعلم أطفال إسرائيل اليوم في مدارسهم الكثير عن شجاعة وحاس هؤلاء الرواد (المهاجرين الأوائل) وعن معاناتهم واستعدادهم للتضحية . بيد أن التاريخ لم يذكر الا نادراً ان غالبية هؤلاء المهاجرين الأوائل منهم واللاحقين قد هزمتهم الصعاب وأعادوا الاعتبار وتناثروا بين من عاد من حيث أتى ومن أثر الذهاب الى مكان غير الذي جاء منه كان لغالبيتهم هو الولايات المتحدة ، ومع هذا تعاقبت موجات وصول الرواد المهاجرين لتدعم كثيراً الحركة الصهيونية في بناء مزارع جديدة أكثر في فلسطين .

إن تأجير المستوطنات الصهيونية المستند على المساعدة الخيرية والمفتقر للدعم الكبير أو الأساس السليم قد شكل أكثر المخاوف سوءاً لكاتب متميز اسمه (احد حاخام) المولود في روسيا باسم (اشير تستبرغ) . فقد تم اختياره عامي ١٨٨٩ و ١٨٩٣ لأن يكتب كشاهد عيان سرداً عن ظروف المستوطنين فأطلق على تقاريره اسم

(حقائق من أرض إسرائيل) ووقع عليها باسم مستعار (احد حاخام) يهودي (من هذا الشعب).

لقد عصرت هذا الكاتب حالات (الكسل واللامبالاة والخديعة والهدالة وضياع الكرامة التي تشرب في أعماق كل المستوطنات)، وهنا كتب احد حاخام ان الجماعات الصهيونية لم تعد متحمسة للهجرة وانها وإن فعلت هذا فلن تجد لها حيزاً في أرض إسرائيل وأضاف ان على الصهيونية أن تنهج سبيلاً آخر لا يلتقي مع سابقه في نقطة ما ألا وهو أن تستثمر الصهيونية طاقات اليهود ومصادرهم لتحقيق منجزات ذهنية وروحية بدلاً من الإنجازات المادية وأن تشرع بادىء ذي بدء في بناء المدارس والجامعات ومؤسسات التعليم بدلاً من المستوطنات والمزارع.

نجم عن هذا الرأي جدالاً ساخناً بين قادة الصهيونية واليهودية وتساءلوا أي شكل ومنحى ذاك الذي يتحتم على الحركة الحديثة العهد أن تنهجه لإعادة بعث الأمة اليهودية؟ أيتوجب علينا أن نكتفي باستقلال ثقافي ضيق النطاق كالذي نصحه به (احد حاخام)؟ أو أن نتعقب الهدف الأشمل صوب إستقلال كامل عن طريق الإستيطان الفعلي كالذي نصحه به محبو جبل صهيون؟.

هذا هو النقاش القديم والأكثر تردداً بين يهود الديسبورة وبين قادة إسرائيل فقد أعادت في بداية عام ١٩٧٤ إفتراضات كل من (الإستقلاليين) و (الذرائعيين) الى الأذهان صدى المناقشة التي جرت بين وزير الخارجية الأمريكي آنذاك (هنري كيسنجر) والملحق العسكري الإسرائيلي لدى واشنطن (بول بن بورات) التي ظن فيها كيسنجر بنفسه باعتباره يهودياً لاجئاً واستأذاً في جامعة هارفرد ممثلاً لموروث العقلية اليهودية. لقد رأى كيسنجر في الرجل الإسرائيلي العام تجسيداً لما جلبته الحركة الصهيونية للثقافة اليهودية وهنا سأل: بأي شيء ساهمت إسرائيل في الحضارة؟ أهم المزارعون والجنود؟ وما الذي قدمتموه لقيمنا القديمة؟ وهنا صعقت هذه التساؤلات

بن بارون فتجربة معارك إسرائيل الدموية المرعبة مع سوريا ومصر في حرب ١٩٧٣ ما زالت تحفر في ذاكرته حتى جعلت منه كباقي معظم الإسرائيليين يؤمن بحتمية الجنود والمزارعين لبقاء إسرائيل وبشكل غير مباشر لديمومة الشعب اليهودي . ثم أدرك بعد حين أن هذه المناقشة مع كيسنجر هي انعكاس غير مقصود للحوار القديم العهد بين منهج احد حاخام في التعليم وبين مسار الصهيونية الرئيس آنذاك .

إستضاف الكنيست الإسرائيلي في مارس عام ١٩٩١ عازف الكمان الموهوب (يهودي مناص) الذي عبر عن قلقه حيال عدم الإكتراث الإسرائيلي للعقلية اليهودية وأضاف يقول : أن التعنت السياسي الإسرائيلي وعدم الرغبة نحو تقديم تنازلات للفلسطينيين سيظمس أكثر من قيم اليهودية التي ساعدت كثيراً مع أخلاقياتها في صنع مفكرين أمثال (كارل ماركس) و (فرويد) و (البرت آينشتاين) بالإضافة الى أفضل لاعبي الشطرنج وألع الموسيقيين ومن فاز بجائزة نوبل .

لقد تنبأ احد حاخام بهذه التطورات الخطيرة قبل عقد من الزمان مضى عندما نفس عن مخاوفه بقوله ان الحركة الصهيونية ربما ستعيد عن طريقها المنشود بيد أن جدالاته افترقت الى (الذرائعية) التي اختطها مجرى الحركة الصهيونية الرئيس . فإذا ما أوشك مشروع الإستهيطان على الإنهيار هبت الإتحادات الخيرية اليهودية لتحقق عروق المستوطنات بدماء مادية جديدة فالأرض قد إبتاعوها من مالكيها العرب وبنى اليهود في غضون عشرين عام بعد الهجرة الاولى عشرين مزرعة ومجمعات ريفية خاصتين .

واليوم ونحن على خطوات من ولوج الألف الثاني بعد الميلاد تحتفل العديد من المستوطنات بالذكرى المائة لتأسيسها وتقدم كثير من المستوطنات القديمة النموذج المثالي للنجاح الإسرائيلي فقد إزدهر معظمها ليصبح مدناً تابعة لتل أبيب وبعضها لم يزل يحتفظ ببعض خصائصه القديمة مثل الحقول الواقعة في ضواحي المستوطنات

والتي يزرعها القلة المتعلقين بالأرض . إلا أن هذا لا يعني أنها بقيت مجتمعات ريفية بل هي ازدهرت بأسواق التبضع التجارية والبنائات الرسمية والمجمعات الصناعية وحتى المراكز والمؤسسات العلمية والتقنية .

كما تم تشييد العقارات الشاخرة ولم يبق سوى بعض المقاطعات الصغيرة والبيوت التي تسع عائلة واحدة والتي قد تذكر الزوار بالمدينة الأصلية . ومن المؤكد أن هذه البيوت قد تغيرت واجهاتها كثيراً عما كانت عليه فتحولت من مزارع وسقائف وضيعة للسكن إلى فلل فاخرة وقصور مخيفة .

تمثل الطبقة الإسرائيلية المتوسطة الميسورة الحال اليوم غالبية سكان هذه المستوطنات وهم في أغلبهم الجيل الثاني من السفارديم الشرقيين أي أنهم أبناء وبنات المهاجرين الذين حققوا حلم إسرائيل الجديد . وباتوا يمتنون حرفاً ويدخرون مالاً ويقتنون ملابس من محلات أزياء فاخرة وينال أطفالهم قسطاً طيباً من التعليم وظلوا رابضين في مستعمراتهم القديمة التي استحالت مدناً اليوم ليس لأسباب تاريخية أو من باب الحنين إلى الوطن بل لإعتبارات مادية لا غيرها .

بغضت مجموعة الرواد التي ضمت بين أعضائها بن غوريون مدينة يافا بغضاً شديداً حتى غادروها في نفس المساء الذي وصلوها فيه إلى مستعمرة يهودية مجاورة ، وهنا وجد بن غوريون كسائر الآخرين عناء في الحصول على فرصة عمل وأخذ يجوب المستوطنة بعد الأخرى لهذا الغرض حتى استقر به الحال أخيراً مزارعاً في الخليل . ومن هناك إنطلقت أولى مفاهيمه الرومانسية عن العمل اليدوي وزراعة الأرض اللتين تذوق طعم مشقتها في صراعه من أجل البقاء . ثم بزغ نجمه سريعاً في الكتابة والخطابة العاطفية والنشاط السياسي .

إن أول وأكبر تعبير رمزي حضره هو ونظرائه بعد وصولهم فلسطين هو تغيير

أسمائهم الى أسماء عبرية ليعيدوا بهذه التسمية الجديدة ما حدث في زمن مضى حين غير أجدادهم أسماؤهم بعد هجرتهم الى وسط وشرق اوربا . فقد تبني يهود اوربا الشرقيين مكرهين تحت ضغط الموظفين المحليين الجهلة أسماء جديدة لعائلاتهم اشتق بعضها من مكان ولادتهم أو من الأحجار الثمينة أو الزهور أو الحرف التي يمتهنون بل ان بعضهم قبل ليبدل بها أسماء وضيعة ومزرية مثل (Schmaltz) التي تعني (الصوف أو الشحم) و (Eselkopf) التي تعني (رأس الحمار) . وأطلقوا في أحيان كثيرة على العائلات اليهودية أسماء مشتقة من أوصاف بسيطة أو علامات فارقة وبالطريقة التي يراها موظف الهجرة الأعلى مكانه منهم مثل :-

(كروس Gross) التي تعني (كبير) و (كلين Klein) التي تعني (صغير) و (شيفارت Schwart) وتعني أسود و (ويش Weiss) وتعني (أبيض) . أما اليوم فقد أمسى أحفادهم أسياداً لأسمائهم وليقبلوا صفحة التاريخ غير العادل في مسعاهم عبور ألفي سنة من التاريخ القاسي . رأى هذا الجمع من الرواد بأنفسهم أحفاد الآن لرموز التوراة واستلهموا تلاميذهم من رسومات شعب التوراة وأحداثه فلبسوا الصندل وارتدوا رداءات طويلة وقمصان بلا ياقة وهو تقليد إقترب في حقيقة الأمر الى الملابس التي كان يرتديها الثوار الروس من أن يكون رداء قدماء اليهود . لقد تبني المهاجرون مضموناً رومانسياً للبطولة وتحدثوا عن حروب (الاكابيين) المنسوبة كرمز للحياة اليهودية الجديدة . كانت نجواهم بكاءً على الماضي ، وأسطورية ، وكانت تفتقر الى المنطق البتة فاختراروا أسماء جديدة جد رمزية منها (اون On) التي تعني (قوة) و (اوز Oz) التي تعني شجاعة و (بن غوريون Ben Gurion) ويعني (شبل الأسد) بينما فضل البعض الآخر ترجمة أكثر أدبية الى أسمائهم القديمة فتحول اسم (ستين Stein) مثلاً الى (Avni) ويعني (حجرة) و (Silverstein) الى (Kaspi) ويعني (حجر الفضة) وتحول اسم (Rosen) الى (Shoshani) ويعني (وردة) .

غير أنهم كانوا وفي مواضع أخرى غير الرومانسية عقيدة واشتراكيين متحمسين فقد رفعت المستوطنات الصهيونية الأعلام الحمر في الأول من ايار يوم العمال العالمي واختتموا الاجتماعات الاشتراكية بـ (الدولية) وهي تشيد حركة العمال الدولية . كان واحدهم يترأى ظاهرياً كأنه الاشتراكي المتكامل إلا أن بن غوريون وأتباعه أضافوا الى الاشتراكية فرعاً خاصاً من المسيحية اليهودية فهو قد أدرك أكثر من غيره ان الصهيونية السياسية لن تنال مكسباً دون الدعم العملي ، وبهذه النظرة للأمور احتل الشعب وطنه بافعاله بأن أقام الحقائق .

انتقل تأكيد الصهيونية مع مطلع العشرينات من هذا القرن تدريجياً من اعتماد هرتزل على الدبلوماسية الدولية الى عقيدة (برغماتية) بن غوريون فأنشأت وفق هذه المنهجية مزيداً من المستوطنات والمستعمرات وحفزت الهجرة وأقامت مؤسسات إقتصادية إحتلت (الهجرة الى) الأولوية الأولى لتأتي بها تستطيع من اليهود الى الأرض ولتجعل من الأقلية المهملّة كيئناً له حيزه . وقد اجتاحت الصهاينة الأرض ليقموا عليها مجتمعاً زراعياً ولينقلوا الشعب اليهودي من مجتمع تجار الى آخر منتج وكان السبيل لتحقيق هذه الغاية هو شراء قطع أراض من مالكيها العرب واطلقت (صهاينة الهجرة الثانية) الذين تعاطوا ما أسماه الآخرون بـ (أعمال شراء الاراضي) على هذه الغاية اسم (إسترداد الأرض) وكان صنيعاً ما انفك صهاينة اليوم يكتونه بالفعل الحاسم والنيل .

إن إستيعابنا لبعض من الميثولوجيا (الاسطورية) الصهيونية سيمهد السبيل لنا أمام فهم حقيقة لم ترفض حكومات إسرائيل المتعاقبة منذ عام ١٩٦٧ التخلي عن المناطق التي إحتلتها في الضفة الغربية وقطاع غزة ومرتفعات الجولان . فنحن نعلم ان قضية الإرتباط بالأرض ليس مفهوماً أوجدته الصهيونية بل ان لكل حركة قومية معنى مقدساً للأرض وهو بالنسبة للصهيونية ان الأرض يجب أن تنتزع وأن نتمسك بها ولا نتخلي عنها فهي رمز الوجود والحياة القومية .

ويتحدث منهاج التاريخ في المدارس الإسرائيلية كيف (أعشق) هؤلاء الرواد هذه التربة القاحلة الزراعية الأصل من مستنقعاتها الموبوءة بالحشرات التي أصابت عدد منهم بالمalaria وماتوا مبكرين. ثم زرعوا حبوب أشجار الكاليبتوز التي استوردوها من استراليا لغرض تجفيف هذه المستنقعات على أساس أن هذه الأشجار عميقة الجذور في الأرض ومعروفة بامتصاصها للمياه. لقد صورت هذه الكتب الرواد بـ (الرجال الخوارق) بيد أنها تجاهلت الجانب القبيح في عملية إكتساب الأرض. فهؤلاء الصهاينة قد أقنعوا بالرشوة مالكي الأراضي لبيع ممتلكاتهم، وأولئك من نسميهم بـ (محوري) الأرض لم يكونوا أفضل من سياسة ممتلكات فاحشين ودجالين بشعين وخذعوا ليس العرب الذين ابتاعوا الأرض منهم فحسب وإنما حتى اخوانهم من اليهود الذين سبقوهم في الشراء وترى السياسة مثلهم كممثل المضارين في إزدهار أراضي فلوريدا المشبوهين عام ١٩٢٥ قد باعوا أرضاً ليست ملكهم أو رفعوا من أسعارها وانها أرض مستنقعات لا طائلة منها.

وقد لجأت الحكومات الإسرائيلية التي استعمرت المناطق المحتلة الى ذات المنهجية، الرشاوي والخدعة وإخافة العرب المالكين وهكذا هي اليوم كما كانت بالأمس في عيون أغلب الصهاينة: الغاية تبرر الوسيلة.

إحتل التنظيم في صهيونية بن غوريون البراغماتية مكانة لا تقل أهمية عن مفهومي الإستيطان والهجرة، وطرق بن غوريون وصحبة متأثرين بالبلاشفة الروس باب المركزية والتنظيم في كل جوانب الحياة اليهودية في فلسطين فالثقافة السياسية الروسية بشكل عام والثقافة البلشفية بشكل خاص قد أطرتا نظرهم للعالم وكذلك مواقفهم السياسية.

لقد أراد بن غوريون ومؤيدوه أن تلم الراية شعث المجتمع الإسرائيلي ليستتفر بعدها لبناء الأمة من ركامها، وهم أرادوا هذا وصراعهم القومي مع العرب لما يزل

قائماً. وفي خضم هذه المجريات أقاموا منظمات تشرت في دواخل المجتمع الإسرائيلي بأسره وغدت بعدئذ الركن الأساسي للتدخل البيروقراطي في حياة الفرد الإسرائيلي وتلك هي جوانب إشتراكية بن غوريون التي مازالت تنهش داخل أعماق أغلب الإسرائيليين. وانك لترى الوطن الإسرائيلي بسبب تعقيدات واضطهادات هذه البيروقراطية مثقلاً بأعباء قائمة طويلة من الإجراءات الصارمة. فهو لا يستطيع كباقي أعضاء المجتمع الغربي الديموقراطي أن يسافر خارج البلاد بمجرد حصوله على جواز سفر. إذ يتطلب منه دفع ضريبة سفر وحصوله على موافقة وحدته العسكرية وأن يملأ ما لا يقل عن ست استمارات معلومات مختلفة. وعسير عليك في إسرائيل أن تنجز عملاً يخصك بواسطة الهاتف حتى وإن تطلب الأمر معلومات جد بسيطة مثل تحديد الوقت أو تأكيد معلومة ما. وإذا ما اتصلت بأي موظف حكومي (إن حالقك الحظ وتكلمت إليه لأن الخطوط دوماً مشغولة أو أن الموظف المسؤول قد غادر توأ مكتبه) لأجابتك أن تحضر شخصياً. أما العبارة الأكثر تردداً في موقف خاسر كهذا فهي (Telech - Tavo) أي (إذهب - تعال).

إن الفارق الكبير بين الولايات المتحدة وإسرائيل وقد تعلق الأمر بإجراءات السلطات المحلية في التعامل هو أن الولايات المتحدة لا تفرق بين حضورك شخصياً أو إتصالك بالهاتف أما إسرائيل فتولي للحضور الشخصي أهمية خاصة لأنك قد تشكل ضغطاً على الموظف المسؤول بنقاشك أو أسلوبك أو دقة حديثك فيوظف القوانين لصالحك.

إن نظام المركزية الذي تتدخل بموجبه الدولة في شؤون حياة الفرد قد أوجدوه في إسرائيل بالاعتماد على النظام السوفيتي فبينما إلتمز الغرب كثيراً في القرن العشرين بحرية الفرد وعمله بقيت روسيا محافظة على نظرتها الجماعية الصارمة التي تسمح للسلطات بالتدخل أنى شئت في حياة العامة والخاصة وهكذا نقل مؤسسوا إسرائيل

الإشتراكية هذا المفهوم الجماعي الى إسرائيل .

أسست حركة بن غوريون العاملة عام ١٩٢٠ منظمة ريبا كانت الأهم بين المنظمات اليهودية ألا وهي ال (هيستدروت Histadrut) أو (الإتحاد العام لعمال أرض إسرائيل). كانت الهيستدروت في بعض جوانبها إتحاداً عاماً للنقابات العمالية وقد استندت الفكرة على تاريخ النقابية العمالية الاوربية، لتنظيم العمل وخلق فيلق عمال، (كما يقول المقطع الشعري من (الدولية)). لقد أراد بن غوريون وزملاؤه بتأسيسهم الهيستدروت حماية العمال اليهود الذين كانوا في تنافس مع القوى العاملة العربية وهي حالة تسببت في خلق كثير من الصعوبات أمامهم لإيجاد فرص عمل. أما العرب فكانوا أكثر تقارباً للعمل مع اليهود وهم يعملون بسعر أقل ومباين أكثر للمساعدة وأفضل مهارة.

إلا أن الهيستدروت لم تكن مجرد إتحاد للنقابات العمالية فحسب بل ان قادتها أدركوا ان من بين مهامها الإعراف بالإشتراكية الماركسية : على البروليتاري (من طبقة العمال) أن يكون مالكا لوسائل الإنتاج. وهكذا افتتحت الهيستدروت لحسابها الخاص وشغلت المصانع والشركات التجارية وشركات الشحن والمصارف وشركات التأمين وعيادات الرعاية الصحية ومؤسسات البناء ومنازل لكبار السن والصحف وحتى خدمات الحماية التي تؤمن الحماية الشخصية للأفراد وافتتحت كذلك رياض الأطفال والمدارس والجامعات. وعلم الآباء انهم اذا ما أرسلوا أبناءهم للمدارس الهيستدروت والحركة العمالية إنما يتخذون قراراً خطيراً فهم قد صهروا بنية أبناءهم في قالب سياسي. لقد تلقن أطفال إسرائيل في عصر مبكر أفكار حزب سياسي معين.

ينبغي القول هنا ان هدف الهيستدروت أول الأمر كان شرعياً. فهي قد ساهمت من الناحية العملية كثيراً في تطوير ونمو المجتمع اليهودي إقتصاديا وبالتالي تطوير دولة إسرائيل ومنحت الشعب شعوراً عميقاً بالإستقرار والأمان الإجتماعي ولم تخل

من وجودها ساحة جاءت لتقدم العون لأفرادها من المهد الى اللحد فرد لها أعضاؤها صنيعها هذا بالوفاء والطاعة ، بيد أن ثمن هذا كان غالياً . لقد حصلت المحسوية السياسية بفضل الهيستدروت على موطيء قدم لها ، يستطيع الأعضاء الموالون الاعتماد على أعمال تقع تحت مظلة نظام أطلقوا عليه تسمية (Proteksia) التي تعني في اللغة اليدوية (الحماية) ثم ضمنتها اللغة العبرية معنى آخر بديل هو (المحسوية أو المحاباة) . ويتمتع في إسرائيل اليوم ذوي القربى والسلطة بإمتيازات عديدة حتى أمست لهذه الممارسة جذوراً في الإستنبات اليومي لدولة إسرائيل ويكفي أن أقول هنا على سبيل الذكر لا الحصر أن عليك الإنتظار بين ستين الى خمس سنوات لتحصل على خط هاتف من شركة الهواتف ، فإذا ما كنت على صلة بشخص مؤثر داخل هذه الشركة لاختصر لك طريق التأخير هذا كثيراً ، وقد يتطلب منك الأمر الإنتظار مدة سنة كاملة لإجراء عملية فتح القلب ولو كنت على معرفة بالطبيب الجراح لأجرى لك العملية في الحال .

هذه الجماعية التي فرضتها الهيستدروت والحكومات العمالية والتي جعلت منها علاماتها التكافلية أنظمة قوية ومتلازمة قد عادت الطريق أمام تسييس هائل للمجتمع الإسرائيلي . فلم يبق جانب من الحياة الإسرائيلية لم تتسرب اليه السياسة وحتى النوادي الرياضية التحقت بالسياسة وحملت أسماء سياسية مثل (Hapoel) وهي الكلمة العبرية لـ (عامل) و (المكابي Maccabee) نسبة الى السلالة الحاكمة التي حملت السلاح ضد المحتلين الإغريق و (Beytar) تيمناً باسم أحد أبطال الليكود وآخر الحصون اليهودية في ثورتها ضد الرومان .

لقد تسللت السياسة الى مباريات كرة القدم ويرتبط مدراء النوادي الرياضية بروابط قوية مع أولياء أمورهم من رجال السياسة المحترمين ، وبرغم أن لاعبي كرة القدم لا تربطهم والسياسة صلة ما فهم يلعبون من أجل المال إلا أن المباراة نفسها

عبارة عن حدث سياسي حتى لتراني كل مرة أذهب فيها لمباراة كرة قدم (انتي مازلت أشجع فريق عمال تل أبيب لأسباب عاطفية) أفقد صوابي من صيحات البغض السياسي ويتلقى لاعبو فريق العمال لمجرد دخولهم أرض الملعب وابلأ من الشتائم بضمنها صيحات (الحمرة) و (الشيوعيين) وكأنهم عملاء للهستدروت أو حزب العمال وهذه المباريات توحى برغم ان لمعظم العامة الإسرائيليين مفهوماً مبهماً للتاريخ ان الزمان لم يبارح عجلته منذ المناوشات السياسية القديمة بين بن غوريون وخصومه اليهود من الجناح اليميني .

حاولت الهستدروت منذ أول نشأتها أن تتنزه أية فرصة سياسية حيثما استطاعت اليها سبيلا فتراها تنقل أعضائها بالحافلات الى المظاهرات والإضرابات وتوجب على منتسبي الحزب شراء ملابسهم من محلات الهستدروت وأن عليهم الاشتراك شاءوا أم أبوا بصحيفة الهستدروت اليومية (دافار) والتي يرغب معظم العمال الإسرائيليين تسميتها بازدراب (بارافادا) نسبة الى صحيفة براكدا الناطقة بلسان الحزب الشيوعي السوفيتي .

لقد خضت بنفسى قبل بضع سنوات خلت تجربة نظام العمل المفروض هذا وكيف تغزو يد الهستدروت الطويلة خصوصية أعضائها . فبعد أن عملت مراسلاً دبلوماسياً لصحيفة دافار أجبرتني إدارة تحرير الجريدة على أن أفتح حساباً مصرفياً خاصاً بي في مصرف تملكه الهستدروت فهذا هو السبيل الوحيد الذي سألتقى بموجبه راتبي الشهري وتوجب على أيضاً أن أنقل ضماني الصحي من مؤسسة الضمان السابقة الى مؤسسة تملكها الهستدروت . كل هذه الترتيبات كانت قانونية وممارسات مقبولة قطعت دابر التظلم الفردي ضدها .

تمثل الهستدروت اليوم المستخدم الوحيد والأكبر داخل إسرائيل والإمبراطورية الاقتصادية الأكبر للبلاد . ومفارقة هذه الهستدروت انها منظمة ترتدي رداءين في آن

واحد فهي إشتراكية من جانب ورأسمالية في الجانب الآخر وهي تمثل العمال وتستخدمهم معاً وهكذا تراها تارة تستقتل لرفع الأجور وتارة ترغب بتجميد المدفوعات بسبب الخسائر .

وهكذا باتت المستدروت على هاوية الإنهيار فقد أوشكت كثير من مصانعها على الإفلاس وفي سبيلها لبيع أسهمها وتفشى فيها الفساد الواسع النطاق وأضحت كلمة (مساواة) مجرد وعاء خاو فينما تدفع للعامل في مصنع الحلويات راتباً شهرياً يقارب خمسمائة دولار أمريكي تراها تدفع لرئيسه عشرة أضعاف هذا الرقم بالإضافة الى الإمتيازات التي يتمتع بها من حساب مصرفي كبير وسيارة نقل خاصة به وهاتف وبطاقات إئتمان مجانية لأغراضه الشخصية . لقد عانت المستدروت الأمرين فهي تصارع أمراض التمنن الإشتراكي وترتدي في ذات الوقت الوجه البشع للرأسمالية .

وليس بغريب اذا أن لا يضع الإسرائيليون للمستدروت شأنأ كبيراً وقد توصل الجناح اليميني الإسرائيلي الى إستنتاج مخطوء مفاده أن بن غوريون كان يكافح بجد لبناء مجتمع إشتراكي يوازي في مبادئه الشيوعية السوفيتية وظنوا ان الإشتراكية كانت أولوية بن غوريون غير مدركين ان القومية اليهودية كانت أكثر ما ينشد بها وان ما تنبأه من رموز عديدة للإشتراكية كانت بالنسبة له مجرد ظواهر للأمور . لقد وجد في المستدروت والحركة العمالية مجرد أدوات لتحقيق هذه الغايات التي هي تعبئة المجتمع وبناء الأمة وتعزيز قاعدة قوتها . لقد قال بن غوريون في خطاب له أمام الحزب مطلع عام ١٩٢٣ : «كان قلقنا الشاغل دوما هو إحتلال الأرض وبناءها بواسطة الهجرة الجماعية وكل ما يقال غير هذا الأمر هو لغة طنانة وأناقة مفرطة» .

ربما توضح هذه الكلمات المشاكل البيئية والاحيائية المزرية التي تواجه إسرائيل ف ساحل البحر جد ملوث والوضع البيئي لكامل حوض البحر المتوسط سيء للغاية بيد أن الوضع لإسرائيل على وجه التحديد يخيف بسبب نقص الوعي البيئي من جانب

الحكومة وتحولت معظم أنهار إسرائيل بضمنها جزء من نهر الأردن الى مجاري مياه وتحول (نهر ياركون) لعقود من الزمان كثيرة الى مكان لنفايات المصانع ومنازل تل أبيب .

لقد استحالت الغاية أن تكون (عمليا) لتبني أي مكان بأي ثمن هاجس الإسرائيلي المعاصر فشعار دولة إسرائيل يجب أن يكون جرافة ستشق النهر وتكسر الحجر لتبني أية مستوطنة جديدة . وهيا الإسرائيليون الجدد أنفسهم لهدم المنازل أنى كانت ، بيت هرترزل الذي مكث فيه عشية زيارته للقدس أو إنه بيت (يرتيز) المؤلف الشهير الذي قدم مع وجبة المهاجرين الثانية . ويتجلى اليوم هذا اللاإكتراث بتهديم الإسرائيلين لبيوت الفلسطينيين الذين يشكون بهم إرهابيين . وهكذا يصح أن نطلق على الإسرائيلي الجديد لقب الجرافة السعيدة كما يصح أن نطلق على غيره لقب ماسك الزناد السعيد .

ثم أصبحت الحركة الشبابية والحديث هنا للتاريخ الأداة الفعالة لجعل المجتمع اليهودي يتكيف ليتقبل المفاهيم السائدة للصهيونية العملية ، وهنا أخذ كل حزب سياسي داخل إسرائيل على عاتقه مهمة قيادة المنظمة الشبابية . لقد استوعبت الحركة الشبابية الإسرائيلية مزيجاً من مفاهيم جاءت من خارج البلاد بعضها من رومانسية (فوندر فوجيل المانيا) ، وتناول بعضها جرعة طيبة من إنجليزية (بادن باول) ومن الكشافة الأمريكية وكذلك التأثير الروسي . إلا ان هذه الحركة برغم عدم أصالتها قد تطورت وغدت العلامة الإسرائيلية الفارقة .

قال الفيلسوف اليهودي (مارتن بيوبر) بعد أن إنتهت الحرب العالمية الأولى وقبل أن يهجر المانيا الى إسرائيل ان الشباب هم حسن الطالع الكامن في البشرية وبمعنى آخر ان الصهيونية هي شعائر ينبوعية وان شبابية الشعب اليهودي والصهيونية تبجل الشباب وترى فيها قيمة بحد ذاتها ، الشباب أحرار من عبودية الماضي سواء تعلق

الأمر بما في العائلة أم في الوضع الاجتماعي وانهم أفضل استثمار للمستقبل .

لقد أضحي القاسم المشترك لكل المنظمات الشبابية الصهيونية في رحاب المعمورة هو حمل رسالة الصهيونية الى شباب يهود الديسبورة لإقناعهم بالهجرة الى فلسطين وأصبحت بحق هذه المنظمات الأداة الأمثل لاهتداء اليهود الى الصهيونية وأصبح لكل منظمة بجانب هذا المسعى أهدافها ومصالحها الداخلية لتثقيف اعضائها بالاستناد الى المفاهيم الشمولية للأحزاب السياسية التي يتتسبون اليها .

ضمت الحركة الشبابية أطفالاً تتراوح أعمارهم بين الثامنة والثامنة عشر وهي توزع على أعضائها الزبي الموحد والشارات وتحدد لهم مكان الاجتماع حيث يلتقون مرة أو مرتين في الأسبوع بعد إنتهاء دوام المدرسة . وقد التحقت أنا بأحد هذه المنظمات أو على وجه الدقة ان والدي أرسلاني لما بلغت عمر الثامنة الى (هاشومير هاتزاير) أو (يونغ وتشمان) وهي منظمة يسارية تابعة لحركة العمال الإسرائيلية . لقد نما عداء والدي للأيديولوجية الشيوعية أو الاشتراكية بعد هجرتنا الى إسرائيل عام ١٩٥٧ ومع هذا فانهما أرسلاني لأسباب عملية الى هذه الجماعة اليسارية . لقد كانت المنظمة الأولى التي تقربت هي لوالدي وعرضت عليهما مخيماً صيفياً مجاناً لولدهما وكان كلاهما يأمل ان مشاركتي ستخفف عني عبء التكيف مع المجتمع الإسرائيلي .

نشأت هاشومير هاتزاير في الإمبراطورية الهنغارية النمساوية وقد إوجدها طلاب عوائل الطبقة المتوسطة ثم أقامت الحركة موطيء قدم قوى لها في بولندا . كان هدفها الأول هو جذب الرواد الشباب الى أرض إسرائيل غير أن مؤسسيها قد تأثروا كثير بالماركسية والثورية البلشفية التي حاولوا ضم أفكارها الى الصهيونية . وهنا لم يكن لهذه الحركة من نظير وسيلحق الشباب اليهودي الاشتراكي وعلى نحو أكيد بأحزاب اوربا الشرقية الثورية غير اليهودية . ثم وهبتهم هاشومير هاتزاير فرصة المزج بينهما فكان مخاض هذا الأمر فرعاً نادراً من الماركسية الصهيونية بيد أنهم سعوا في ذات

الوقت صوب التكامل الروحي والثقافي فأصبح رموزهم العقلانيين مع لينين وماركس كل من فرويد ونيشه .

هيمن على إجتماعات (شومرم) (وهو الاسم الذي اختارته هاشومير هاتزاير لأعضائها) قادة ألهم التعبد الجماهيري شخصياتهم الحادة . لقد أطاعوهم كأنهم الحاخام أو ديكتاتور سياسي . وتحدث الشومرم الأول عن (الإعتراف) و (البهجة بتحقيق الذات) و (إعتاق الروح) و (نيران عذراء فيستا) و (التأمل) . وقد كشف (ديفيد هوروتس) الذي كان محافظ ضفة إسرائيل السابق في مذكراته النقاب عن مثل هذه الوقائع عندما وصف الجو السائد المتوتر ليس من وجهتي النظر الايدولوجية والسياسية فحسب بل الجنسية منها أيضاً . فقد كانت غالبية أعضاء المجموعة من الذكور وبلغ عدد الأعضاء من النساء إثني الى ثلاثة لكل عشرة أعضاء من الذكور أو أكثر (عاش الرجال والنساء سوياً في خيم) و (كانوا ينامون في أحايين أخرى في العراء) . كما حاولت الشومرم غالباً نقل المحليين صوب الجو القاسي والعمل المضني في الزراعة أو بناء الطرق مع وجبات من غذاء فقير لا يسد رمقهم . ثم تغط المجموعة بعد يوم عمل شاق في إجتماع حتى يرخي الليل سدوله . لقد جعلت منهم عزلتهم كيانات رهبانية وأنظمة دينية يرأسها زعيم مشعوذ له نظامه الخاص من الرموز . كانت شعائريهم الإعتراف العلني وهو نوع من الإعتراف يستدعي محاولات المرء الصوفية لتواجه الحب والشیطان معاً في آن واحد .

لقد عشت بعض هذا الجو حين التحقت بالحركة بعد أربعين سنة من رحيل هوروتس . كنا نقيم هذه الفعاليات في فرع هاشومير هاتزاير المحلي في منطقة (رمت أبيب) المجاورة وانك لتمييز هذه الفروع منتشرة في عرض إسرائيل وطولها . كان لنا نحن الشومرم تعليقات مفصلة حول ما يجب علينا فعله أو تجنبه . بل ان وصايا المنظمة العشرة كانت تمثل جانباً آخر من الدينية الدنيوية فجماعة الشرمرم يجب أن يكونوا وفقاً

لهذه المبادئ أباة النفس شرفاء ومستقيمين أخلاقياً . وتوجب علينا كي نبلغ تحقيق الذات الإمتناع تماماً عن التدخين وأن نصون طهارتنا الجنسية .

تناولت نقاشاتنا الطويلة التي كان يديرها قائد المجموعة الأقدم منا بثلاث سنوات معنى الحياة والأدب العالمي ونظرية فرويد في التحليل النفسي وكذلك السياسة وكنا نتعلم فيها بعضاً من الثقافة الجنسية ، إشرطت هذه المعلومات أن تحقق جزءاً من هدف هاشومير هاتزاير نحو التقدم بيد أنها كانت تفسيرات عقيمة و(علمية) وحرّم علينا أيضاً التطرق في حوارنا حول جوانب المتعة في الجنس أو الحب .

كانت هاشومير هاتزاير واقعية بالإضافة الى تلکم الروحية والعقلانية فجاهدت لتجديد الشباب اليهودي الإسرائيلي عن طريق العودة الرومانسية الى الطبيعة والتربة . لقد كانت إجتماعاتنا مؤثرة حقاً وفيها ترافق المراسيم المسيرات وإضرام النيران ورفع الأعلام تحت ضوء الشعلة وتألّفت الإجتماعات المنتظمة من الأغاني والرقص الشعبي وحفلات السمر والنزهات .

هدفت هاشومير من وراء التلقين السياسي أن توجه خطواتنا صوب الماركسية فبعد أن تنتهي من تناول جرعات كبيرة من البلاغة الايدولوجية (الفكرية) ضد أحزاب الجناح اليميني الإسرائيلية ترانا نختم المراسم برفع علم إسرائيل ذي اللونين الأزرق والأبيض بالإضافة الى علم الاشتراكية الأحمر وخلال مراسم رفع العلم هذه نكون قد أنشدنا نشيد إسرائيل (هاتيكفا) ونشيد (الدولية) .

وقد يقول قائل قد أدرك الأمر متأخراً أن الاشتراكية الصهيونية بضمنها المستدروت والحركة الشبايية كانت وفي نواحي عديدة أداة للتضليل الجماعي . إن اشتراكية بن غوريون لم تبغ البتة إنكار الرأسمالية بل أن توظف هذه الرأسمالية لخدمة قضية إسرائيل القومية .

لقد نجح حزب العمال بفضل قوته الإقتصادية والتنظيمية وعلى مدى أكثر من أربعين عاماً أن يفرض نفسه حزباً سياسياً مهيمناً على المجتمع اليهودي وإسرائيل . فقد مكنتهم تنظيمهم أن يجعلوا من المجتمع اليهودي عام ١٩٤٨ دولة عصرية مستقرة نسبياً : حصلت إسرائيل على استقلالها برغم أنها في حالة صراع مستمر مع جيرانها العرب وكان حزب العمال يوجه دولة اليهود بين ضفتي الشرق الأوسط الضيقتين ألا وهما الحرب والسلام .

الفصل الرابع

بين الحرب والسلام

لم يحاول أغلب الصهاينة إدراك حقيقة ان العرب يمثلون مشكلة أمامهم برغم أنهم أطلقوا على قضية الحرب والسلام تسمية (مشكلة العرب). لقد استهل هرتزل هذا المنحى حيال هذه العلاقة عندما جرد عرب فلسطين والشرق الأوسط من تفكيره ووقته وأثر أن يفترض كمن جاء من بعده من قادة الصهيونية ان فلسطين مجرد أرض عراء، وهي حالة تقودنا الى الافتراض انه لم يواجه في رحلاته داخل البلاد عام ١٨٩٨ قوماً غير اليهود.

لقد عاش معظم قادة الصهيونية تحت وهم ان العرب الذين يشكلون غالبية سكان فلسطين سيهللوا بعودة اليهود ثانية وان الغبطة ستملاً قلوبهم بـ (إحياء الصحراء) ونمط الحياة الغربية المتقدم الذي وعدهم به المهاجرون اليهود. وهنا وقف الصهاينة قاصرين في إدراكهم ان للعرب طموحهم القومي وانها لحيية ظن أن نعلم أن الصهاينة الذين وضعوا هذا الوعد في إطار قوة الأفكار لإحداث تغيير إنساني وتاريخي تجاهلوا هذا الطموح العربي الموازي لطموحهم.

فقد تأسست بين عامي ١٨٨١ و ١٨٨٢ جمعيات عربية سرية في بيروت والقاهرة ودمشق وبغداد كانت تسعى لإعادة بعث الوجود القومي العربي أي بنفس الفترة التي كان فيها محبو جبل صهيون منهمكين في اولى اجتماعاتهم السرية.

إن جوهر الموضوع أو لنقل جوهر مأساة الصراع العربي الإسرائيلي هو الظهور

المتزامن معاً لحركتين قوميتين على خارطة التاريخ وكل منها تقصد أن تغلب الأخرى بعد أن تكون قد استلهمت مفاهيم قومية القرن التاسع .

إن ما قيل أعلاه لم يكن مجرد رطانة بل هو ما حدث فعلاً . فقد فشل قادة المجتمع العربي في فلسطين حتى بعد أن بدأت أساسات المشروع الصهيوني بالنمو في إستيعاب عزم الصهيونية ومثابرتها لإنجاز هذا المشروع فهم ما برحوا يتسلون بأمل ان ما يشاهدوه إنما هو مجرد زيارة حج يهودية أو ربما سياحية . ويقوا يراو حون في تفكيرهم هكذا حتى صدر إعلان وعد بلفور عام ١٩١٧ الذي اعترفت بموجه بريطانيا بحق اليهود في (وطنهم) في فلسطين فادركت غالييتهم معنى الهجرة اليهودية . ولم يظهر المجتمع الفلسطيني معارضته العلنية لإقامة المستوطنات اليهودية إلا بعد مضي ثلاث سنوات من تاريخ صدور وعد بلفور .

اندلعت في أيار عام ١٩٢١ في مدينة يافا أعمال شغب بعد أن إستشاط العرب غضباً لإستمرار تدفق موجات الهجرة اليهودية ثم ترجحوا غضبهم هذا الى مسيرات احتجاج ومظاهرات إنتهت بأن أفرط العرب طوال اسبوع نهباً وقتلاً في اليهود المتواجدين في المراكز الريفية والمزارع . صعد رد الفعل العربي هذا السلطات البريطانية والمجتمع اليهودي الذي ظل مخيماً في أوهامه ان أعمال العنف هذه مجرد (أحداث) أو (اضطرابات) وربما (أعمال تخريب) أكثر من أن يراها صيحات غضب قومية . ثم أعادت هذه الأحداث كررتها في عامي ١٩٢٩ و ١٩٣٩ وعلى نطاق أكثر تنظيماً وأخطر تهديداً ومع هذا لم يحرك رد الفعل اليهودي ساكناً وكانت نهاية المطاف فشلاً ذريعاً لمواجهة الحقائق .

لقد لازم اللاإكتراث هذا الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة الواحدة بعد الأخرى وشرعت تعمل سواء اكانت من (العمال) أو من (الليكود) لاغية وجنود منظمة التحرير الفلسطينية تماماً لا لشيء سوى أن هذه الحكومات رفضت الإعراف

بالطموح القومي الأصيل وحق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره . ليس هذا فحسب بل ان كلا الحزبين تجنب أن ينطق اسم منظمة التحرير الفلسطينية حرفياً وأشار إليها بدلاً عن ذلك باسم (بي أل او P.L.O) وأشد قسوة منها تسميتهم لها باسم (عصابة الإرهابيين) أو (Terrorist Gang) أما المصطلح الإسرائيلي الرسمي الذي نحتته اللغة العبرانية كبديل لكلمة (إرهابي) فهو (Mechablīm) وتعني (الأشخاص المضطلعين بالنشاطات التخريبية) .

هذه الممارسات في اللاإعتراف قد تجذرت عن سابق إصرار كمسعى يصبو للحط من شأن العرب وليخلق إنطباعاً ان النضال ليس بين أمتين بل هو بيتنا نحن أمة اليهود وبين العرب الذين هم قطيع حيوانات . وتجشموا عناءاً دائماً لتوظيف أدوات لغوية وبلاغية تدعم هذا النضال القومي وهذا يفسر لم يتحدثون عن الحرب والمعارك بمصطلحات تجريدية : تولى الإسرائيليون دوماً (تنظيف) أرض العرب و (تطهيرها) . إن اللغة باستخدامها هذه الدعوات المقرفة لتخليص إسرائيل من سكانها الفلسطينيين إنما تعيد إلينا الذكرى المشؤومة للحركة الأمريكية لمسح (مواطنيها الأصليين) .

وضعت المعارضة العربية العميقة للمشروع الصهيوني الحكومة البريطانية في زاوية ضيقة فقد وجدوا أنفسهم كأنهم حكم مباراة كرة القدم يركض بين الأعضاء الخصوم لحركتين قوميتين . غير أنهم وعلى نقيض الصهاينة إستوعبوا أنفسهم خطورة وعمق المقاومة العربية وتوجب عليهم لانهم حكام معظم بلدان الشرق الأوسط ألا يتناسوا مصالحهم الأوسع سيما إكتشاف النفط في العالم العربي . وعليه غير الإنجليز سياسة الدعم الأحادية الجانب لصالح القضية الصهيونية الى سياسة أكثر توازناً ومساواة حملت في ثناياها ضرراً جسيماً للمجتمع اليهودي في فلسطين والحركة الصهيونية معاً .

لقد تراوحت الإستجابة البريطانية مع كل موجة احتجاج عربية بين تعليق الهجرة اليهودية لحين من الزمن وبين تحديد أو إيقاف شراء اليهود لقطع الأراضي العربية وظلت هكذا حتى توصلت نهاية المطاف الى قرار بدا منطقياً: إذا ما تخاصم طرفان على نفس القطعة من الأراضي؛ فليتقاسماها. وعليه شكلت بريطانيا في تشرين الأول عام ١٩٣٦ (لجنة التحقيقات الملكية) برئاسة اللورد (روبرت بيل) أصدرت خطة بتقسيم فلسطين - أرض إسرائيل الى دولة عرب - يهود مع (دولة إنتداب) على أن تبقى تحت الحكم البريطاني، أما المنطقة التي ستستعيدها بريطانيا لصالح الإمبريالية والمسيحية فهي الأماكن المقدسة في القدس وبيت لحم والناصرة.

طبق مفهوم التقسيم لأول مرة في مجرى الصراع الدموي العربي - الإسرائيلي كحل مناسب وما زال حتى اليوم وإن مضت عليه سبع وخمسون عاما الحل الوحيد القابل للتطبيق والراسخ والمعقول والبعيد عن دائرة العنف. إلا أن كلا الجانبين لم يأخذ به لأنه مساومة ولأن قدر المساومة دوما هو الفشل. فقد أخذ جانب الرفض لدى الجانب الفلسطيني طابع (الرفض الجماعي) بين العرب والمتطرفين والمغتصبين أما الإستجابة اليهودية فكانت أشد تعقيداً حيث رفض المقترح الجناح اليميني بعد أن شم في السلوكية البريطانية بعضاً من الترتيبية أي الإنسحاب المتتالي من وعدها الأصلي والتزامها اللذين عبرت عنهما في إعلان بلفور. إلا ان الإتجاه السائد لصهيونية بن غوريون قد قبل على مضض فكرة التقسيم وفرضت القرار عنوة على المجتمع اليهودي لما تتمتع به من سيطرة مطلقة على المستدروت وعلى المؤسسات السياسية والإقتصادية وشبه العسكرية.

توصل بن غوريون في فترة مبكرة تماماً الى قناعة مفادها ان اتفاقاً مع العرب لن يكون ممكناً ليس لأنه كان راغباً عن هذا الأمر وإنما هي القومية العربية التي لا تريد هذا حسب ظنه وتوافق منذ عام ١٩٣٦ مع الحركة العمالية في موقفهم المتبسط هذا

للحق الصهيوني برغم انها لم يعترفا بذلك قط حتى شاعت حيثذ (النكتة) الشعبية (وما زالت حتى اليوم) (كيف ترى المشكلة العربية من سداة البندقية) .

تمياً بن غوريون وكذلك المجتمع اليهودي عام ١٩٣٦ لاستقبال تحد كبير أيقنوا فيه هذه المرة أن يكون ذا طبيعة عسكرية ساعدت بن غوريون أن يطور حينها مفهوم (القوة الصهيونية) الذي اشترط ان الهجرة والاستيطان والقوة العسكرية الجبارة ستكفل ضمان بقاء المجتمع اليهودي وتوفير الأداة الضرورية لنيل الاستقلال .

وقد ظن بن غوريون بخلاف الجناح اليميني ان الخلاف مع بريطانيا يجب أن يتقوض لأدنى حد ممكن أي الى القضايا الجوهرية المتعلقة بالصهيونية وبناء الأمة والهجرة وشراء الأرض بهدف جني الفوائد الهداية (ميزات مضافة للأجور) . لقد ساعد الضباط الإنجليز في سنوات الشغب العربي الثلاثة التي بدأت عام ١٩٣٦ في تنظيم وحدات الكوماندوز اليهودية التي شاركت (تحت القيادة البريطانية) في هجومات ضد القوى العربية لقمع الانتفاضة وبالتالي زودت القوة الصهيونية غير الشرعية بالتجربة التي كانت تحتاجها في الحرب الليلية وما القوات الخاصة الإسرائيلية اليوم إلا ثمار هذه الوحدات الصغيرة .

لقد نهضت دولة إسرائيل من رماد الحرب العالمية الثانية ومن المذبحة ولولاها لما كان لها اليوم في الوجود حيز حتى غدت أولى وأهم حصاد للنظام الجديد بعد الحرب الكونية الثانية . فالمذبحة التي اوخزت ضمير العالم الغربي المسيحي قد أفضت بمعظم الأمم والقوتين العظيمتين الولايات المتحدة وروسيا الى الاعتراف بحق الشعب اليهودي بإقامة دولته الخاصة به . وكانت بريطانيا بين سبع وأربعين دولة أعضاء في الأمم المتحدة أيدت تقسيم فلسطين الى دولتين . غير أن القادة الفلسطينيين تمسكوا بسياسة الكل أو اللاشيء ورفضوا مشروع التقسيم بينما قبله بن غوريون وأتباعه للمرة الثانية في غضون إثني عشر عاماً والذي حاول لما تحلى به من حرفة صنع المخاطر

وجرأة لخوض حرب اهلية أن يفرض سلطته وإرادته على هذا الحق اليهودي الصغير في حجمه الكبير في تهديده . رفض اليمينيون قرار الأمم المتحدة فهم ما زالوا أوفياء لايديولوجيتهم بـ (إسرائيل العظيمة) وهنا لم يتردد بن غوريون باستخدام الوحدات العسكرية الموالية له لسحق المعارضة اليمينية ويفرض إرادته بالقوة .

تم نقل قرار الأمم المتحدة في ٢٩ تشرين الثاني عام ١٩٤٧ الى فلسطين على الهواء مباشرة وخرج أغلب المواطنين اليهود الى شوارع تل ابيب مبتهجين محتفلين بنتائج هذا القرار التاريخي ستتحقق بيد أن ليلة التاسع والعشرين من تشرين الثاني عام ١٩٤٧ كانت ليلة غبراء لبن غوريون فهو يعلم ان الهيولة قادمة في الطريق .

بدأت الحرب الفعلية بعد ستة أشهر من صدور القرار وبالتحديد في ١٥ أيار عام ١٩٤٨ وكان آخر يوم للانتداب البريطاني الذي استمر قرابة ثلاثين سنة وفيه أعلن بن غوريون ولادة دولة إسرائيل . في ذلك اليوم وما ان انتهى من إعلان إستقلال إسرائيل أعلنت الدول العربية (كما توقعها) الحرب على دولة اليهود الجديدة وغزو فلسطين .

وحاك العرب والصهاينة كلاهما الأساطير والخرافات عن حرب ١٩٤٨ ونتائجها معظمها لا يمت للحقيقة إلا ببعض الصدق فترى كتاب التاريخ الإسرائيلي الرسمي يقارنون بين هذه الحرب وبين النصر التوراتي الذي حققه (ديفيد) الصغير على (غوليان) بينما نرى المؤرخين العرب يشيرون اليها بـ (الفاجعة) وأوقعوا لوم النتائج على العالم بأسره بدلاً من أن يكون عليهم .

أما الحقيقة فتمكن في ان هذه الحرب لم تكن حملة عسكرية عادية وليست بمناوشات حقيقية تبادل فيها طرفي القتال وابلاً من النيران حتى يتقرر من الفائز بينهما . لقد وقعت الحرب على عدة جبهات سياسية وتوقف القتال لمرات عديدة

بقرارات صدرت من جهات أجنبية لاسيما الأمم المتحدة . إستمرت الحرب رسمياً ثمانية أشهر بدأت بالغزو العربي لدولة فتية ، وإنتهت بتوقيع هدنة بين الإسرائيليين والعرب . أما القتال الحقيقي فقد إستمر لشهرين فقط . كان التفوق العددي يقف بجانب الجيوش العربية التي قدمت وخلفها نحواً من أربعين مليون نسمة وكانوا أيضاً أفضل تسليحاً من الإسرائيليين . ووقف بجانب القوة الإسرائيلية الممثلة لقراية ستائة ألف يهودي فقط وحدثها وتماسكها وقوة الإرادة وكذلك التقنية الحديثة وكان قادتها العسكريين اكثر إبداعاً وجرأة فنشروا قواتهم الصغيرة العدد بطريقة أفضل من خصمهم ليس هذا فحسب بل ان الحظ رافقهم حين وضعهم تحت قيادة قائد عسكري واحد برغم خلافاتهم وإنقساماتهم السياسية والايولوجية . بينما انقسم العرب الى قوى وطنية متعددة تحت قيادات ملائتها الغيرة والشكوكية أبعدهم عن التوصل الى إستراتيجية واحدة برغم اللغة التي كانوا جميعهم يشتركون بها . وهنا إنتهز الإسرائيليون فرصة هذا الموقف ووظفوا الاسلوب الروماني القديم (فرق تسد) .

إن أهم وأكثر أساطير ما بعد الحرب هي تلك التي تتعلق باللاجئين الفلسطينيين الذين هم الخاسر الحقيقي في هذه الحرب . إذ فقد خلال الفترة الممتدة بين كانون الاول عام ١٩٤٧ و ايلول عام ١٩٤٩ ما يربو على سبعمائة ألف فلسطيني منازلهم وباتت قضية اللاجئين القضية الأكثر أذى في علاقة إسرائيل بجيرانها العرب وأسكنت الشرق الأوسط لخمس عقود مضت في جو من التوتر .

تستند وجهة النظر العربية في هذا السياق على أساس ان اليهود قد طردوا الفلسطينيين وجعلوهم لاجئين بلا مأوى وبأن هذه السلوكية كانت مبيتة احسن في اليهود اداءً . إن مثل هذا الموقف اليهودي لم يكن مقبولاً على المستوى الرسمي إطلاقاً برغم حقيقة ان إسرائيل قد احتوت بين عناصرها دوماً أولئك المؤمنين بوجوبية الإبعاد الفلسطيني المنظم وأيدت الأحزاب السياسية في إسرائيل اليوم ؛ سواء من

تشغل مقاعد في الكنيسة الصهيوني أو من لها من يمثلها بمستوى وزير داخل مجلس الوزراء ؛ هذا الموقف البائس وأعلنت جهازاً ضرورة طرد الفلسطينيين . لقد إستثمر العرب هذه الحجة التي تصف الصهيونية بالحركة التوسعية في مسعاهم إنكار الحق الإسرائيلي في الوجود بينما أخذت الدعاية الإسرائيلية من جانبها طابع التهليل والتصفيق لذلك اليوم الذي هجر فيه الفلسطينيون بمحض إرادتهم ديارهم بعد أن أمرهم قادتهم العرب أن يتركوها لحين من الزمن .

وهدفت الدعاية الإسرائيلية الى المحافظة على صورة إسرائيل كمجتمع عادل وأخلاقي لا تشوبه شائبة فهي (إسرائيل) قد أدركت ان الدعاية والعاطفة لهما اليوم حكم السيف وان أبواب الارشيفات ستبقى موصدة وعليه سيكون من العسير الوصول الى جذور مشكلة اللاجئين الفلسطينيين . وما برح الحال هكذا حتى السنوات الأخيرة حين نفقت هذه الارشيفات عن بعض غبارها وكشفت للرأي العام الإسرائيلي بعضاً من محتويات طياتها وأصبح من الممكن لنا أن نميط اللثام عن تلك الحقيقة التاريخية التي تقف وراء ذلك الحدث المروع .

أنني أدرك تماماً ان مشكلة اللاجئين الفلسطينيين هي الحصاد المباشر لحرب ١٩٤٨ بيد أنه لم يكن حصاداً خطط له عن سابق إصرار صناع القرار سواء اكانوا يهوداً أم عرب . كما ان إجابة للسؤال المتعلق بكيفية نشوء هذه المشكلة الخطيرة يتطلب الجمع بين القولين المتناقضين كليهما .

لقد ناشد القادة العرب في حالات معينة شعبهم أن يهجر قراه ومدنه بعد أن قطعوا لهم وعداً أن يعيدوهم عاجلاً الى ديارهم بنصر صاعق يترقبوه . تلك حقيقة قائمة . بيد أن معظم العرب المحليين قد تركوا منازلهم طواعية بعد أن هجسوا الخوف القادم من الحكم اليهودي . فالبلاد بأسرها كانت أيام حرب ١٩٤٨ جبهة طويلة واستحالت كل قرية ومدينة عربية ويهودية الى حصن عسكري وهنا غادر

الفلسطينيون ديارهم تحت لهيب الحرب وضغط الجيش الإسرائيلي عليهم وكان أول من هرب من الفلسطينيين في المدن الكبيرة مثل (يافا وحيفا) أصحاب المال والمثقفون . وقد كان لرحيلهم صدى نفسياً بليغاً على من مكث في دياره فهم قد فقدوا نخبهم الحاكمة وعلى هذا المنوال تطورت الهجرة الإسرائيلية وانتشرت كالنار في الهشيم من بيت لآخر ومن عائلة لأخرى ومن شارع لشارع .

إن هذا لا يلغي حقيقة أن بعض الفلسطينيين قد طردهم الجيش الإسرائيلي من منازلهم بعد أن إستولى على قراهم ومدنهم بأمر صادر من ضابط الوحدة الإسرائيلية نفسه أو ممن هم أعلى منه رتبة . إلا أننا نفتقر الى إثبات وجود سياسة متعمدة وصریحة بصدد هذا الأمر وهذا قد يفسر لم يتخذ أحياناً ضابطان من موقعها قرارين متناقضين فبينما يصدر احدهما أمراً للقرويين أن يتركوا منازلهم ترى الآخر يتقدم ليمد لهم يد المساعدة ويعيدهم الى ديارهم . كما يتيسر لدينا بعض نماذج الحرب النفسية التي استخدمها الإسرائيليون ، عندما أشاع الإسرائيليون إن من يبقى من الفلسطينيين سيقتل وستغتصب زوجته وبناته .

لقد إقترف الجنود الإسرائيليون وحشيات كثيرة تضمنت المجازر الجماعية والقتل والإغتصاب والتخريب وقد أخبرني بعضاً عن هذا (إيريك بتشامكن) العضو في حزب العمال والذي شغل منصب وزير الزراعة الإسرائيلي سابقاً . كان إيريك مزارعاً مثالياً إتنمت فيه الحدة والبساطة والبصراحة والمباشرة وخدم اثناء حرب ١٩٤٨ قائداً لإحدى الوحدات الخاصة وشاهد بأم عينه أعمال القتل لعشرات المواطنين العرب الذين احتلت القوات الإسرائيلية قريتهم الواقعة في (صحراء النقب) بعد أن شدوا أيديهم وأطلقوا عليهم النار بوحشية ورموا بجثثهم الى أحد الآبار المحلية .

وسيشاهد من يسافر اليوم من تل أبيب والقدس بنايات شائخة تشكل ستارة خلفية لمنطقة سكنية راقية كانت ذاتها عام ١٩٤٨ أرضاً لقرية عربية تسمى ب

(دير ياسين) التي دخلها المقاتلون الإسرائيليون في نيسان عام ١٩٤٨ أي قبل شهر من غزو القوات العربية المتحالفة وفي قمة المناوشات بين الميليشيات الفلسطينية واليهودية . لقد قتل هؤلاء الإسرائيليون المئات من سكان القرية بضمنهم حتى النساء والأطفال .

تمثل مجزرة دير ياسين الحدث الأكثر تجسيدا لطبيعة الصراع العربي الإسرائيلي وهي الحدث الذي يوجز هذا الصراع في أكثر جوانبه مرارة وهي الصفحة السوداء في تاريخ الصهيونية وإسرائيل . وما برح الجدل حول ظروفها سواء أكان بين المؤرخين العرب والإسرائيليين أو بين الجناحين الإسرائيليين اليساري واليميني جداً منهكاً فليست عواقب المجزرة هي التي كانت مشارك ونقاش ، بل ان حتى الحقائق الحماسية المتعلقة بعدد القتلى ، ومن أصدر الأوامر لمن ؟ ولماذا ؟ قد بقيت ألغازاً مستعصية ، ولما يزل عرب اليوم يتذرعون بمجزرة دير ياسين لدعم حججهم بوجود شرطة إسرائيلية سرية أجبرتهم وفق ترتيب معين على هجر أرضهم . أما المحاجة الإسرائيلية فهي انهم قد حذروا المستوطنين سلفاً من مغبة البقاء في قريتهم بيد انهم (العرب) رفضوا الخروج وماتوا بنيران المعركة التي وقعت بعدئذ .

بقي بن غوريون وحكومة إسرائيل لسنين طوال نخجلى لما حدث في دير ياسين إلا انهم لم يأسفوا على نتائج المجزرة التي أصبح ضحاياها الحد الفاصل في المعركة بين اليهود والفلسطينيين وغدت هي فيما بعد مسؤولة عن (هوس الرحيل) أو هجرة الفلسطينيين الجماعية .

لقد فقد الفلسطينيون بين عامي ١٩٤٧ و ١٩٤٩ بلادهم التي تقاسمت أرضها ثلاثة جيوش مختلفة هي الجيش المصري الذي أخذ قطاع غزة والجيش الأردني الذي سيطر على الضفة الغربية والجيش الإسرائيلي على بقية البلاد . وقد تنفست إسرائيل الصعداء بعد هذا النجاح ونتائج التي تمثلت بضمها للأراضي التي احتلتها كما منحها

الثقة بالنفس وشعور بالتفوق .

وقد تغير حكام مباراة الشرق الأوسط مرات عديدة منذ عام ١٩٤٨ دون أن يحاول فيها العرب ان يتحملوا مسؤولية النتائج التالية للحرب جزاء رفضهم القاطع لحق دولة إسرائيل في الوجود وحق الشعب اليهودي في تقرير المصير . ها هنا تطور نموذج متكرر من التفاعل العربي الإسرائيلي إذ بينما رفض العرب حلول التسوية التي عرضها المفاوضون الدوليون ، قبل الإسرائيليون هذه الحلول برغم ان موافقتهم تلك كانت اسلوباً تكتيكياً تماماً . وهكذا فقد العرب الفرصة الاولى التي إذا ما تداركوها نهاية المطاف وأعلنوا إستعدادهم لقبولها حتى كانت جولة إسرائيل في الرفض وقالوا : «جاءت موافقتكم متأخرة جداً» فحكام المباراة قد تغيروا والإسرائيليون برفضهم هذا أنها يعبرون عن رغبتهم عن اللعب مع العرب ، وبرفضهم لأية محاولة لقلب الموقف أنها هم يؤثرون البقاء في شراك نفس المشكلة . لقد اختاروا العيش في الليمبوس والبقاء بين الحرب والسلام .

هنا حافظت وعلى مدى السنين حملات الدعاية الإسرائيلية على منهجيتها في ان العرب هم من يكره السلام وانهم رفضوا يد إسرائيل التي امتدت تصافحهم ومع هذا فان بعض الوثائق التي خرجت الى الأضواء من أرشيفات إسرائيل وأمريكا قد كشفت صورة أكثر تعقيداً . فقد عقد الزعماء العرب والإسرائيليون خلال السنوات الاولى بعد حرب الإستقلال عدة إجتماعات سرية ولم يبق زعيم عربي واحد لم تصله سرأيد إسرائيل وهذا أمر يتناقض والمفهوم الشائع بيننا ان الجانبين لم يلتقيا بالمرّة . وقد عبر القادة العرب عن إهتمام عام واستعداد أولي للتوصل الى صلح مع الإسرائيليين وطالب الفلسطينيون إسرائيل بتقديم تنازلات مقابل توقيعهم على اتفاقيات علنية وعرض القائد السوري ، العقيد (الزعيم) ، عقد إجتماع مباشر مع بن غوريون للتوصل الى معاهدة سلام وطلب مقابل هذا موافقة إسرائيل على منحه سيادة على

نصف بحيرة طبرية . وعبر بن غوريون في مذكراته ليوم ١٦ نيسان عام ١٩٤٩ عن هذا المقترح (عرض السوريون معاهدة سلام منفصلة مع إسرائيل وأقامة تعاون وتشكيل جيش موحد مقابل تغير رسم الحدود) . إلا أن بن غوريون رفض المقترح ثم ألح الزعماء الفلسطينيون عام ١٩٤٩ بتسوية للنزاع اذا ما أعادت إسرائيل مائة ألف لاجيء الى ديارهم التي تحتلها الآن . لقد حظي الموقف العربي بدعم الأمم المتحدة وحكومتى بريطانيا والولايات المتحدة .

انشطرت إسرائيل بالأمس كما هي اليوم الى معسكرين أولهما معسكر (الحمايم) أو المعتدلين وثانيهما معسكر (الصقور) أو المتطرفين . وظن المعتدلون ان على إسرائيل أن تتوصل الى تسويات حتى وان كانت لمجرد تقليص مساحة الخلاف مع العالم العربي بيد أن اليد العليا في شؤون إسرائيل الداخلية كانت لبن غوريون ومعارضته المتطرفة والذي آمن بصفته رئيس وزراء إسرائيل الاول ان العرب يطلبون ثمنا غاليا فهم ما زالوا يضعون الشروط ويحددون الطلبات برغم خسارتهم للحرب ولم يشأ أن يتخلى عن أية منطقة ورأى ان على إسرائيل ومهما تكالبت عليها الظروف ألا تتخلى عن سيادتها فوق بحيرة طبرية لأنه مصدرها المائي الرئيس وهو أمر لا بديل له في منطقة الشرق الأوسط الجدداء . وأكثر من هذا وذلك ان بن غوريون يكره أن يسمع شيئا يتعلق بعودة اللاجئين الى ديارهم فهو يرى بقلق كبير ان عودة لاجيء واحد ستشكل سابقة لغيرها وسيطلب المزيد من اللاجئين العودة الى منازلهم .

وجاء في دراسة أجرتها جامعة (بيرزيت) في الضفة الغربية ان القوة الإسرائيلية قد استولت ايام حرب ١٩٤٨ على (٤٥٠) قرية ومدينة عربية وان بعض هذه القرى قد زالت عن بكرة أبيها . كما نهب الجنود الإسرائيليون في منتصف أيام الحرب منازل الفلسطينيين وممتلكاتهم وتحولت ملكية القرى والمدن الى الحكومة الإسرائيلية التي شرعت حالاً بالتنقل بين هذه القرية وتلك لاستطلاعها ثم غيرت اسماءها الى اسماء

عبرية ذات أصوات مشابهة للأصوات العربية وهي دلالة على انها قد صادرت هذه القرى واستملكتهما وقد وجدوا ان بعض الاسماء العربية لهذه القرى تستند على الاسماء التوراتية القديمة وكان امراً زرع في الإسرائيلي الشعور ان ما يفعلوه مجرد إعادة حق مستلب لصاحبه الشرعي .

أعاد الإسرائيليون إسكان هذه القرى ؛ المهجورة من العرب والمحتلة منهم ؛ بالمهاجرين اليهود حتى ليتعذر على الناظر اليوم ان يتميز بصمات لقرى عربية بعد ان هدمتها الجرافات الإسرائيلية وأعادت بناءها قرى نموذجية شبيهة بالمناطق المجاورة الريفية الإسرائيلية ، او المجتمعات الإسرائيلية القروية . ويكفي أن اقول ان المنطقة المجاورة لنا (رمات أييب) قد أنشأت على حطام قرية عربية تسمى (شيخ مونس) وعلى بساتين برتقالها .

كان منطق بن غوريون والدوائر الإسرائيلية الحاكمة واضحاً جداً . لقد خسر العرب الحرب التي بدأوها وعليه يجب أن يتحملوا عواقب أفعالهم وجرائمهم . أن العقوبة التي يستحقون هي مصادرة ممتلكاتهم من الحقول والمنازل وحتى الأرض التي كانت أصلاً مخصصة لهم . هذه الأرض المقتصة سيكون أحق بها اليهود المهاجرون الذين هم ضحايا مناهضة السامية والإعدامات وضحايا المذبحة والذين عادوا الآن بعد ما يربو على ألفي سنة من النفي والتشريد الى وطنهم القديم .

لقد منح إعلان الإستقلال الأقلية العربية التي بقيت في إسرائيل ولم يجرفها تيار الهجرة اثناء وبعد الحرب حقوقاً وحريات مساوية للتي منحها لليهود وكان لهم وما زال حق التصويت والترشيح للكنيست الإسرائيلي . بيد أن الإدارة العسكرية مازالت مفروضة على قراهم ومدنهم وان حرية التعبير والحركة مقيدتين . إنه لم يكن بالاحتلال الوحشي الذي عرفه الفلسطينيون بعد احتلال اليهود للضفة الغربية وقطاع غزة عام ١٩٦٧ برغم تشابهه بالسلوب . فالإدارة العسكرية تعمل وفق نظام من

الترغيب والترهيب القائم على شبكة كبيرة من المخبزين والمتعاونين معها ولا يحق على سبيل المثال للعربي الإسرائيلي أن يدخل سلك التعليم ما لم يكن هو وعائلته متعاونين مع الجهاز الامني الإسرائيلي المحلي المتطفل .

لقد صادرت إسرائيل الأرض العربية وأبطأت سلطاتها عن سابق إصرار عجلة التقدم التقني لهدف غير مباح وهو إبقاء السكان العرب على حالهم مزارعين غير صناعيين ، وبقي العرب حتى بعد رفع الحكم العسكري عام ١٩٦٦ مواطنين درجة ثالثة بعد الاشكيناز والسيفاردم . ولم يكن الفلسطينيون المتواجدون عبر الحدود بأفضل حال فقد أبقتهم الأقطار العربية في غييات اللاجئين التي تحولت الى مدن اكواخ واستخدموهم أداة في حملتهم الدعائية للحرب ضد إسرائيل وما حركت حكومات سوريا ومصر ولبنان ساكناً لتحسين مستوى معيشة اخوتهم الفلسطينيين إلا الأردن الذي أحسن في معاملتهم .

ورفضت الحكومات العربية والمنظمات الفلسطينية التوصل الى إتفاق مع الوجود الإسرائيلي ولوحت بين الحين والآخر بإزالة (الكيان الصهيوني) وحذفوا متجاهلين بسذاجة الواقع التاريخي اسم إسرائيل من خارطاتهم وطبعوا بدلا عنه اسماء احتقار سياسية مثل (عصابة تل أبيب) و (الصهاينة الفاشيون) . وصور الكاريكاتير العربي اليهودي الإسرائيلي بمخلوق بملابس سوداء طويل الأنف جشع مادياً ونهم جنسياً وهي أقرب الى صورة النازية عن اليهود .

شن الفلسطينيون مبادرين هجمات عسكرية ضد المواقع العسكرية على طول حدودها مع سوريا ولبنان والأردن ومصر . هذه البلدان الأربعة المحيطة بإسرائيل دربت الفلسطينيين المحليين على أعمال التسلل وحرب العصابات وأرسلتهم عبر الحدود لسرقة المزارع والمصانع ولتعكير صفو الحياة اليومية ومهاجمة تحصينات الجيش الإسرائيلي العسكرية وكذلك الدوريات . وردت إسرائيل بما ملكت من قوة على كل

حادثة من هذه الحوادث وحملت الحكومات العربية المحترمة مسؤولية كل عمل تسليي وعن كل بقرة أو دجاجة سرقت وردت عليها بعنف كان في أغلبه عقوبات غير متكافئة . لم تفعل سياسة الرد بالمثل هذه شيئاً سوى انها أضافت للنار حطباً داخل الشرق الأوسط وصعدت من حدة التوتر .

قدم بن غوريون في حزيران عام ١٩٦٣ إستقالته بعد أن إستشاط غضباً في نقاش تعلق بالسياسات المحلية وجاءت الإستقالة التي لو نظرت اليها اليوم لبدت تافهة في ظرف كان أشبه بقضية موت أو حياة .

ترك بن غوريون في غضون سنتين من إستقالته حزب العمال وشكل جماعته المنشقة . كان آنذاك قد قطع العقد السابع من عمره وبات التزامه السياسي برغم كثرة أتباعه محل تساؤل كبير ، إذ ادرك معظم الإسرائيليين ان سلوكيته الأخيرة ستشوه كثيراً من نشاطه أيام الصبا . وقدر تعلق الأمر بحزب العمال فقد نجح برغم الجرح الذي أصابه بعد أن تجرد من (الأب الكبير) في أن يستعيد عافيته حين أناط منصب بن غوريون الى خليفته (ليفي اشكول) الذي ينتمي الى الجيل الثاني من الزعماء اليهود وهم أولئك الذين عاشوا حياتهم السياسية في ظلال بن غوريون .

كان اشكول رجلاً معتدلاً كره الجدال والنقاش وتحكمت فيه سياسات التنازل وقد أضحى لهذه الأسباب موضوعاً لكثير من السخرية التي تعكس طبيعته . لو سأل هل تفضل الشاي أو القهوة لتردد كثيراً وفكر ملياً ثم يجيب أخيراً : «أعرف ماأريد . إجعلها نصف شاي ونصف قهوة» . غير أن جميع السمات التي تجلّى بها وقت السلم من المذهب العملي والصوت الإسترضائي والسياسة الواقعية والتي جعلت منه رئيس وزراء محبوب قد انقلبت عليه في الوقت العصيب . فقد أدرك القاصي والداني ان العد التنازلي للحرب قد بدأ بحلول عام ١٩٦٣ . إلا ان الجميع في إسرائيل أخذوا على حين غرة حين اندلعت الحرب عام ١٩٦٧ . لقد بدأ زعماء إسرائيل بتوجيه كلام ينطوي

على تهديد جدي للسوريين رداً على هجمات الكر والفر وتسلات الفلسطينيين لأرضهم . هنا علم السوريون ان إسرائيل لا تعني الخديعة بهذا التهديد فقصدوا ظهورهم الدائم الاتحاد السوفيتي الذي استيقظ لأجل ان يعيق الإسرائيلي (المعتدي) همة المصريين الذين ساروا في وضوح النهار بجيشهم الجرار الى شبه جزيرة سيناء المجردة من العسكر . لم يكن دافع المصريين الحقيقي إعلان الحرب ضد إسرائيل بل انهم ارادوا مجرد إخافة عدوهم متناسين أنهم بمسيرهم هذا قد خرقوا اتفاقاً تعهدوا به وانهم قد تركوا إسرائيل بلا خيار غير إعلان حالة النفير في صفوف جيشها التي ما ان أعلنته حتى هذا الأردنيون حذو المصريين تحت شعار التضامن والأخوة العربيتين .

وهكذا وجدت الجيوش العربية في أيار عام ١٩٦٧ نفسها تشكل جبهة ضد إسرائيل وضد إرادتهم أنفسهم . لقد ظن العرب ان الفرصة الآن مواتية للإنتقام وسحق إسرائيل بينما جرفت قاداتهم حملات الدعاية التي أداروها بانفسهم وخرجت الجموع العربية الى الشوارع بشعارها القومي (بالدم والنار سنعيدك فلسطين) وأعلن القادة العرب والمعلقين عبر المذياع ونشرات الأخبار ان فلسطين المحتلة ستتححر وسيدفع باليهود الى البحر المتوسط . (سيغتصب المتصرفون العرب النساء وينهبوا ممتلكات الإسرائيليين) هكذا شاهد الإسرائيليون فلماً إخبارياً سينمائياً يصور الحشود العربية المغتصبة وهي تصرخ وتبكي وقد أطبقت بايديها حول اعناقهم وهي ايماءة أدرك الإسرائيليون مغزاها .

كان شعور الإسرائيلي بالأمان والثقة بالنفس جد هش ، وان الوجود الإسرائيلي خلال الأسابيع الثلاثة التي سبقت الحرب قد بدا جد متداع . هنا أعاد الإسرائيليون الى ذاكرتهم شريط (أوستويج) فقد هجسوا في العرب النازيون الجدد الذي يسعون الى إبادة الشعب اليهودي وأن يكملوا ما بدأه الالمان ورأى معظم الإسرائيليين في أنفسهم الصورة المستنسخة ليهود (الغيتو) في أحياء اوربا الشرقية يحيطهم أعداء متعطشون

للدماء.

سلم اشكول في حزيران من تلك السنة وفي محاولة منه لدفع الروح المعنوية وتعزيز الشعور بالوحدة القومية وزارة الدفاع الى الجنرال (موشي ديان) وضم في رئاسة وزارته ممثلين من الجناح اليميني المعارض الذي شغل زعيمه (مناحيم بيغن) منصب وزير في الحكومة الإسرائيلية بعد خمسة عشر عاماً من العزلة عن الدائرة السياسية. وهكذا يكون اشكول وحزب العمال قد وضعاً سابقة بأن ساعداً في تطهير وتشريع ارشيفهما السياسي. وبهذا القرار الذي استثمره بيغن وحزبه كبرهان لقدرتها على الحكم نجح بيغن بعد عقد من الزمان في إقناع العامة الإسرائيليين بالسماح له وحزبه في إدارة البلاد.

بعد ثلاثة أيام من تشكيل الحكومة الوطنية الموحدة وبالتحديد في الخامس من حزيران عام ١٩٦٧ تحرك الجيش الإسرائيلي صوب حرب الأيام الستة التي انتهت بفوز ظافر للإسرائيليين الذين احتلوا من مصر قطاع غزة وشبه جزيرة سيناء وحتى الضفة الشرقية من قناة السويس ومن الأردن الضفة الغربية والقدس الشرقية ومن سوريا مرتفعات الجولان. وان إسرائيل آنذاك لمدينة مقابل هذا النصر بالكثير الكثير لرئيس وزرائها ووزير لدفاعها السابق ليفي اشكول، بيد أن مجد النصر ذهب لصالح وزير الدفاع الجنرال موشي دايان.

أحدثت حرب الأيام الستة تغييراً جذرياً في النفسية الإسرائيلية التي غدت مطمئنة نشطة بعد أن كانت قلقة مضطربة وتنفس الإسرائيليون الصعداء فالنصر من عمل السماء وهي ابياء ان (رب اليهود) يحمي دولة اليهود.

لقد رافق التمجيد الإسرائيلي لجيشهم قدراً مساوياً لهم من الإزدراء حيال العرب الذين صورتهم الصحافة الإسرائيلية بالبدايين علمياً والمتخلفين حضارياً والتعساء

حالا ولفقروا على عجزهم كل اضحوكة ممكنة بل ان بعض النكات التي كانت تقال عن اشكول قد حولوها لتجعل من الزعماء والقادة العرب (الاغبياء) موضع سخرة وكررت دور السينما (لم تكن إسرائيل تملك آنذاك محطة تلفاز) عرضها لأفلام تصور آلاف العرب المذلولين جالسين في الصحراء بجوار دباباتهم وعرباتهم المحترمة وأيديهم مشدودة خلف رؤوسهم . وأضافت الحرب لإسرائيل بالإضافة الى النشاط الوطني وشعور الإسرائيلي بالتبجح والتفوق على العربي أبعاداً جديدة تتمثل بالتصوفية الدينية والتعصب .

فقد احتل الإسرائيليون أرض إسرائيل بأسرها وسقطت بين أيديهم الأراضي التي كان لها مقررأ عام ١٩٤٧ أن تكون دولة فلسطين وكذلك الأراضي التي تنقسمها بعد حرب ١٩٤٨ مع إسرائيل كل من مصر والاردن وتدفق الإسرائيليون صوب قرى ومدن وقطاع غزة والضفة الغربية يدفعهم فضولهم حول عدوهم ورغبتهم لاكتشاف أماكن جديدة .

الحق مجلس الوزراء الإسرائيلي برئاسة اشكول وبعد شهر من إنقضاء الحرب القدس الشرقية بدولة إسرائيل برغم المعارضة الدولية وشرع متحدياً القانون الدولي ببناء مستوطنات مكثفة في الأجزاء العربية من المدينة غير أن إسرائيل لم تكن في يوم من الأيام غير ملتزمة بحقيقة ان أمم الأرض قاطبة بضمنها حليفتها الأكبر الولايات المتحدة لم تعترف بضم إسرائيل للقدس العربية . فالقدس قد استحوالت أكثر من أي مكان آخر وقضية أخرى البقرة المقدسة لساسة إسرائيل فهي ليست مدينة فحسب ، إنها جميلة وجذابة ولها خصوصيتها التاريخية وهي إذا ما نظر الإسرائيلي الى أحجار بنائها لوجدها أهم حتى من السلام وحياة الانسان .

لقد أفزع هذا الحدث الفلسطينيين في الأراضي المحتلة بعد أن تسلل إليهم الرعب خشية أن تلحق بهم قوات الاحتلال ما توعد به قادة العرب قبل الحرب لليهود . ونظر

الإسرائيليون للعرب كأنهم (حيوانات) في حديقة الحيوان يستحسن على السائح الفلسطيني زيارتها، ثم تحول هذا الفضول الى مبدأي الدعاية والفاشية. وقبل هذا وذاك إن هذه الأراضي ليست غريبة على الإسرائيلي، فقد زارها قبل الحرب بتسعة عشر عاماً وهي لما نزل تحت الاحتلال البريطاني... وعاش بعضهم فيها... كما درسوا عنها في مدارسهم... وتعلموا أسماها التوراتية، إذ تطلق اللغة العبرانية على الضفة الغربية لنهر الأردن اسم (Judea and samari) التي نشأت منها المملكتين الإسرائيليتين القديمتين قبل نحو من ثلاثة آلاف سنة.

أهدرت أحداث الأسابيع والأشهر التالية للحرب مباشرة فرصاً جديدة للسلام ووضع حد للصراع العربي الإسرائيلي. فقد شكل أشكول بمجرد أن وضعت الحرب أوزارها فريق خبراء أوكل له مهمة تحديد المزاج العربي داخل الأراضي المحتلة. وقد طاف الفريق في رحاب الضفة الغربية وقطاع غزة حتى انتهى الى نتيجة مفادها أن الفلسطينيين ما برحوا يتشافون من الصدمة، انهم تكشفوا من جديد للإسرائيليين بعد استراحة دامت خمسة عشر عاماً، الا أنهم يملكون الرغبة للنظر في اتفاق مع إسرائيل. واقترح الفريق أن على إسرائيل أن تبادر بمنح الفلسطينيين حكماً ذاتياً (ليس بعيداً جداً عن حال دولة مستقلة) بالإضافة الى إعادة توطين لاجئي المخيمات الفلسطينية.

لم يتوصل أشكول كعادته الى قرار حيال هذا المقترح، بينما رأى موشي ديان أن الوقت الآن لصالح إسرائيل، وعليه فمن الأفضل الجلوس دون حراك. وحول مسؤولية الأمر الى العرب حين أخبر مسؤوليهم انه بانتظار مكالمتهم الهاتفية للتحديث في السلام. أما الحل الذي عرضته حكومة إسرائيل فكان (مساومة الأرض). أي ان إسرائيل ستسحب من معظم الأراضي باستثناء القدس وبعض المناطق الحيوية لأمنها مقابل التعهد بالسلام الشامل. بيد أن العرب رفضوا الحديث الى إسرائيل وشرعوا بدلاً عن هذا في سباق تسلح بدعم من الاتحاد السوفيتي الذي أعاد تجهيزهم بسلاح

أكثر مما فقدوه أثناء الحرب وأكثر منه تطوراً أيضاً. وأعلنت الدول العربية في اجتماعات قمة الخرطوم الذي عقد في آب عام ١٩٦٧ لاءاتها الثلاثة: لا سلام مع إسرائيل، لا اعتراف بإسرائيل، ولا مفاوضات.

أما حقيقة السياسة الإسرائيلية الرسمية أن هذه الأراضي ما عدا القدس ستبقى بأيديهم كسند ضمان. فإذا تم توقيع معاهدة سلام انسحبت منها إسرائيل وأعادتها ليد العرب. وكالعادة نشأت من هذا الركود السياسي ديناميكيات جديدة كانت تهدف الى خلق واقع حال داخل إسرائيل (لصالح الاتجاه السائد للصهونية سابقاً) سينهش هذا الموقف الرسمي. وعليه شرع الإسرائيليون؛ في منتصف الليل خلصة؛ ببناء مستوطنات وهو عمل يبدو ظاهرياً معارضاً لسياسة الحكومة، وتحرك المستوطنون اليهود صوب مرتفعات الجولان بينما راح المغامرون منهم ينقبون عن النفط او عن مصادر أخرى جديدة في صحراء سيناء، وبنى المتعصبون السياسيون منهم مستوطنات في الضفة الغربية تحت ذرائع موهمة.

لم يكن مسعى حكومة أشكول لطرد هؤلاء المستوطنين غر الشرعين جدياً، فقد تجاهلوا هذه النشاطات بادية الأمر ثم وبعد وقت لم يكن طويلاً شرعوا بتقديم دعم مالي لهم أخذ شكل (الدعم الإنساني) ووفروا لهم الماء والكهرباء وافتتحوا الطرقات وبنوا المنازل وشيدوا رياض الأطفال، ولم تمض سوى شهور حتى طفقت اليهودية تملأ الأراضي المحتلة وكان هذا أمراً صدع مصداقية الحكومة. فهي بينما رفضت فكرة ضم المناطق المحتلة وتحديث بمفهوم الأرض مقابل السلام قد شرعت عملياً بمد يد العون لعملية الضم التدريجي لتلك الأراضي.

وعارض اليساريون والليبراليون هذه الاتجاهات الوطنية النشطة، واتصفت معارضتهم بالأخلاقية والواقعية وكان الفيلسوف (بشاياهو ليبوفتش) الأستاذ في الجامعة العبرية في القدس أكثر اولئك المتشددین ضد هذا التيار السائد. لم يكن

ليوفتش مجرد يسارياً مثالياً ودينوياً فقد ارتدى القلنسوة الضيقة وأنسب لنفسه صفة رجل الدين ، وهو لهذه السمة بالتحديد عارض وما زال يعارض الوجود الإسرائيلي في الأراضي المحتلة . لقد شاهد فورة الإندفاع صوب حائط المبكى مباشرة بعد حرب عام ١٩٦٧ ، فوصفه على غير تردد بالإعجابية الوثنية وهي ظاهرة تمثل تناقضاً أثياً للروحية اليهودية ، وأشار إليها بـ(مرقص حائط المبكى) . وأكد في رأيه أن إسرائيل ستعود في نهاية المطاف قوة محتلة وحشية وإلى دولة شرطية ستضافر فيها الشرطة مع الأمن لقمع الفلسطينيين . وعليه رأى ان على إسرائيل أن تنسحب طواعية من الأراضي المحتلة وأن تطلق للسكان المحليين حريتهم ليقرروا مصيرهم بأنفسهم . وقد خرجت المظاهرات التي تنادي (بوضع نهاية للإحتلال) ، بيد أن نشوة النشاط السائد قد جعل منها ومن عبارات ليوفتش ومن الكتابات على الجدران مجرد أصوات مهرطق في منفاه .

واليوم أدركت إسرائيل متأخرة أن أصوات ليوفتش والأقلية معه كانت صائبة ، وتحولت حلاوة نصر ١٩٦٧ الى مرارة ، فإسرائيل قد أصبحت كشبكة لا منفذ فيها وشطرت قضية الأراضي المحتلة المجتمع الإسرائيلي الى قسمين .

تصاعدت في إسرائيل في اليوم التالي لحرب الأيام الستة مباشرة هي النقاشات حول كيفية تسمية هذه الأراضي . فهي كانت بالنسبة لـ(ليوفتش) وأنصاره أرضاً محتلة وأطلقت عليها حكومة العمال رسمياً اسم (الأراضي الإدارية) ، بينما شعر معظم الإسرائيليين أنها أراضٍ محررة وأنها كانت دوماً ملك للشعب اليهودي (الأراضي التوراتية للأب المؤسس) . كان واضحاً لمعظم الإسرائيليين حتى عام ١٩٦٩ أنهم يعيشون كمواطنين في دولة إسرائيل ، أما اليوم فإن معظمهم ؛ وحتى أولئك الذين عارضوا الوجود الإسرائيلي في الضفة الغربية وقطاع غزة ؛ يستخدم مصطلح (إسرائيل ايريتز) ، وإنك لو أشرت رسمياً أنهم يعيشون في دولة إسرائيل وأن الاسم

لم يتغير لما عرفوا عن أي شيء تحدثت . لقد أصبحت هذه الأراضي وعلى مدى ربع قرن مضى جزءاً لا يتجزأ من الحضارة الواقعة واللغة والضمير الإسرائيلي ورغم أنها لم تضم هذه الأراضي رسمياً . ومن الصعب الأيمان أن العمى قد أصاب الأمة بأسرها ، وأن جنون عبادة الأراضي قد هاجم الأمة كلها ، فالإسرائيليون قد وجدوا مرة ثانية عجباً ذهبياً ولم يترددوا بالرقص حوله .

يقول بعض القادة العرب (وأحدهم صدام حسين) أن الإسرائيليين قد رسموا على أحد جدران الكنيسة خارطة تعبر عن طموح إسرائيل الحقيقي وأنها تمثل إسرائيل العظيمة والتي تمتد حدودها من الفرات في العراق الى النيل في مصر . بيد أن أياً من هذه الجدران لا يحوي مثل هذه الخارطة الا واحدة تمثل صورة لهرتزل ، كما أن كثيراً من العرب يؤمن أن هذه الخارطة التي تمثل النوايا التوسعية الطويلة الأمد لإسرائيل موجودة حقاً ، وأن تمسك إسرائيل بهذه الأراضي هو جزء من برنامج توسعي سري قديم ، وهذا يرتبط مع الإصرار العربي المستمر أن عملية طرد الفلسطينيين بعد حرب ١٩٤٨ كان أمراً مدروساً . لم يكن لهذا الإدعاء أساساً من الصحة بالأمس واليوم ، لأن سياسة إسرائيل عام ١٩٦٧ وكما كانت عليه عام ١٩٤٨ قد تحددت بوضع واستثمار الفرص كما هي عليه ، وتلك هي خبرة الصهيونية على مدى المائة سنة الماضية من وجودها أكثر من أن تكون دلائل مشؤومة .

إن ما يستحق الذكر هنا أن إسرائيل قد انطلقت في أعقاب عبادة الأرض تحت الحكم الإشتراكي وليس تحت حكم جناح الليكود اليميني ، وربما شعر أشكول وزملاؤه بالذنب من عقود السنين الخالية التي فرضوا فيها اليهودية الدنيوية كشكل من أشكال الدين في محاولتهم بناء الدولة . إن عبادة الأرض قد ساعد عاطفياً في إعادة ذكرى الحنين الى الحياة الدينية في وطنهم الديسبورة الذي حاولوا طويلاً طمسه .

لقد أصبحت إسرائيل مجتمعاً ذا بعد واحد تداعت فيه ابتداءً من عام ١٩٦٧

جميع القضايا الوطنية الأخرى وغدت هامشية لتفسح المجال أمام القضية الأهم وهي قضية الأراضي التي ابتلعت جميع هموم إسرائيل الناجمة عن مشاكلها الأخرى مثل الاقتصاد والمشاكل الاجتماعية والصحية والثقافية وقضية الهجرة التي باتت الهاجس الشاغل للإسرائيليين ، وهو تحول يعني أن حرب الأيام الستة قد شكل حداً فاصلاً بين سنوات إسرائيل التسع عشرة الأولى من تاريخها وبين السنوات الخمسة وعشرين التالية والمختلفة عنها تماماً.

الفصل الخامس

إستبدال الحرس

بحلول الساعة الحادية عشرة من ليلة السابع عشر من أيار عام ١٩٧٧ ، بث التلفزيون الإسرائيلي نتائج الإنتخابات . معلناً أن كتلة الليكود المعارضة قد فازت بالإنتخابات ، وان مناحيم بيغن زعيمها الذي لا يختلف عليه اثنان سيكون رئيس الحكومة المقبل . في تلك الليلة أمطرت دموع السكان كل عتبة داره : انها دموع المفاجأة التي مسحت معها تسعة وعشرين عاماً من هيمنة حزب العمال . وذرفت جموع أخرى دموع الخوف . لم يكن خوفاً من المجهول بل من الذي في جعبة الليكود . كان ينبوع قلقهم وهو حصيلة عقود من التشرب الفكري هو أن إنتخاب بيغن يعني الحرب . فما انك خصومه يكونه بداعية الحرب . انني لما أزل أتذكر رد فعل أسرتي التي جلست قبال جهاز التلفاز . فما أن أعلنت نتائج الإنتخابات حتى أطبق علينا الصمت العصي على التصديق ، الصدمة الاولى أعقبها الغضب فالخوف فالقلق .

ونقر عدد من رجال الدولة من حزب العمال الإنصياع الى قواعد اللعبة الديمقراطية . وأعلنوا عبر التلفاز انه لا ينبغي على عامة الشعب أن يقبلوا النتائج : اي أن هذه النتائج لا تعني وجوبية تغيير الحكومة بل أن الشعب قد فقد أحاسيسه . إن قيادة حزب العمال بغطرستها النموذجية لم تتمكن حتى بعد أن رأت سلطانها يتهاوى

أمام ناظرها من الإنعتاق من اعتقادها انها فوق الشعب والدولة . لقد خال لها انها هي الدولة .

غير أن هاجس العمال الأكبر كان أن الليكود سيسعى ليحط من شأن الإمبراطورية الاقتصادية لحزب العمال : المصانع والمزارع الجماعية اليهودية والمصارف وشركات البناء والمؤسسات التجارية ، انه سيسعى لهدم كل ما بناه الحزب واتحاده التجاري العملاق والمستدروت على مدى خمسين عاماً . وسرت همهمات داخل أروقة الحزب عن خطط لنقل الأموال والثروات الى مكان خفي بعيداً عن عيون الليكود المتلصصة .

ليس عسيراً فهم هذا الخوف وذاك القلق : كان الليكود وبيغن حليفين وكان غالبية المجتمع الإسرائيلي شعر بالطمأنينة في ظل حكم العمال ، وعلى ذلك لا يمكن أن يكون ارتقاء الليكود السلطة مفاجأة تامة ؛ إنه نمو طبيعي على مر ما يقارب عشرة اعوام .

وجد حزب العمال نفسه بعد وفاة أشكول في شباط من عام ١٩٦٩ يتخبط في شجارات داخلية أعادت اليه أيامه في حقبة الستينات . فكيف له أن يعين خليفة لأشكول . كان موشي ديان المرشح الأقوى الذي يتمتع بأفضل الفرص لتولي قيادة الحزب وبالتالي رئاسة الوزراء . بيد أن حارس الحزب الأقدم لم يجد به بديلاً . لقد أخافهم جهلهم به . انهم لا يأنسون بعشرته . وهم قد انحدروا من أكواخ المدن اليهودية في اوروىا الشرقية ، وموشي ديان يهودياً صبارياً نشأ وترعرع في إسرائيل ايرتزر . لقد أطلق عليه أشكول يوماً ما وكان مازحاً : «قاطع طريق» . كان ديان سيداً لنفسه ومقت الإلتزام لحزبه ، فتسلل لأعضاء الحزب الأقدمين الخوف من انه سيتصرف بمحض مبادراته غير عابيه بالروحانية البلشفية التي ما برحوا منقادين وراءها . وكتسوية للأمر وقع الاختيار على (غولدا مائير) .

وما كان بوسعهم أن يتخذوا قراراً أغرب من هذا . كانت مائير حيثذ امرأة عليلة تقاسي الشيخوخة وفي أواخر ستينات عمرها . لقد سكنها السرطان فواصلت إجراء العمليات الإشعاعية . انها لممارسة متفق عليها في الولايات المتحدة وكذلك في باقي البلدان الديموقراطية الغربية أن يعرف العامة السجل الطبي لزعيم بلادهم . اما في إسرائيل واستناداً الى تقليد بال وسياسي وتأمري تبقى حقيقة مثل هذا الامر محجوبة عن الشعب ، وتلك هي غولدا مائير تقدم مثلاً حياً لهذا الأمر . لقد حجباوا بستر السرية مرضها فكانت تهرب الى المستشفى بسيارة قديمة صغيرة تعود لأحد مساعديها . ولغولدا مائير تاريخ شخصي وسياسي طويل وهام طغت عليه خدماتها في حركة العمال وجنوحها نحو الاشتراكية . فهي قد حافظت بعناد على قانون طاعة المنظمة وعليه قطعت خطوات مسيرتها الى الأمام . كانت أول سفير إسرائيلي لدى الاتحاد السوفيتي وشغلت عدة مناصب في عدة حكومات رأسها بن غوريون كان بينها منصب وزير الخارجية . كانت برغم عاطفيتها التي دوماً ما ذرفت فيها الدموع عنيدة ومعتدة بنفسها .

كان الافتراض السائد عندما أناط الحزب عام ١٩٦٩ مهمة زعامته بغولدامائير برغم انها قد بارحت السياسة بسبب كبرها ومرضها أنها لن تمكث لأكثر من فترة قصيرة تتولى فيها مهمة الوكيل حتى يجد الحزب له زعيماً تقبله العامة . لقد حصلت غولدامائير قبيل استدعائها من سبائها السياسي على ثلاثة بالمائة من الأصوات في استفتاء للرأي العام حول الشخص الذي يرغبونه أن يغدو رئيس حكومتهم المقبل . بيد أن العامة قد أحبوها حتى انها لسحرت لديهم . ست سنوات قد مرت على استقالة بن غوريون من رئاسة الوزراء وسيجد الإسرائيليون المتيتمون عزاءهم في غولدا مائير ، انها (الأم القومية) وخليفة (الأب الكبير) . لقد ذاب في وجودها الجميع واستحال حتى صانع المشاكل القبيح موشي ديان أمامها قطعاً وديعاً ، وغدت لمعظم الإسرائيليين ويهود الديسبوزة الأم من الطراز البدائي .

ماكانت غولدا مائير ذكية وإذا حكمنا عليها من خطبها فمفرداتها محدودة وجملها بسيطة وقصيرة واستعاراتها وصورها كانت شفافة ، وكانت تعرج في أغلب ظهورها للعامة الى الحديث عن (الغيتو) أو أحياء اليهود كنقطة رجوع لها . لقد أطالت متعالية في ذكر اللقاء الذي جمعها مع البابا في الفاتيكان عام ١٩٧٣ وكيف انها حدثت في عينيه مباشرة طوال ساعة الاجتماع وهي تسرد عليه تجربة طفولتها مع المذبحة الجماعية التي تعرض لها اليهود . وهي قد ذهبت أبعد من هذا لتقول بغطرسة حزب العمال حيال السفارديم أن اولئك الذين لم يعيشوا تجربة غيتو اوروبا الشرقية لايمكن لهم أن يكونوا يهوداً صالحين . وقد تجلى ضيقها ذرعاً باليهود الشرقيين في مناسبة أخرى حين أطلق جمع من شباب السفارديم في محاولتهم سرقة الأبصار اليهم على أنفسهم اسم (النمور السود) حيث ردت عليهم وهي تعلم انهم لايبغون سوى حقوقاً متساوية مع غيرهم بقولها : «انهم ليسوا لطفاء» .

لقد اقتربت غولدا الى العرب بنفس مفهومها انها أقوم خلقا من الآخرين بقولها عام ١٩٧٠ : «لا يوجد شعب فلسطيني» . وغدت فترة حكمها الواصلة بين نهاية الستينات ومطلع السبعينات واضحة لما تميزت به من رضى الذات . وبدا أن خفة ونشاط ما بعد حرب الأيام الستة مازالت تحكم البلاد .

تسلم زعامة مصر في صيف عام ١٩٧٠ رئيساً جديداً هو أنور السادات والذي أعلن انه مستعد أن يعمل سلاماً مع إسرائيل اذا أعادت اليه شبه جزيرة سيناء ، وإلا فلن يتردد ليذهب الى حرب ضدها حتى لو كلفت (مليون جندي مصري) . هاهنا افتقدت غولدا مائير الى حساسية الفهم أن هذه تمثل وجهة نظر جديدة . ليس ثمة مزيد من كلام طنان حول تحطيم إسرائيل والقاء اليهود في البحر ، بل هو استعداد حقيقي لبلوغ التسوية من جانب زعيم أقوى أعداء إسرائيل ، الا أن غولدا في نظرتها الضيقة للعالم التي لا تميز فرق لون بين الأبيض والأسود لم تجد في العرب شأن

الناس من غير اليهود سوى كارهين لليهود يبغون ايذاءهم ، فقصدت وزير دفاعها موشي ديان وقبلت اقتراضه (اننا اليوم أفضل حالاً من سابقه) . وعليه وتماشياً مع هذا النهج رفضت غولدا مائير ومعها ديان وكامل حكومة العمال عدداً من مبادرات السلام التي قدمها بعض الزعماء العرب والمبعوثين الدوليين ، ولم يتزحزحوا قيد أنملة عن الوضع الراهن الذي هم فيه . إن ما كانوا ينشدون هو سلام تام مقابل انسحاب جزئي .

ان كل ما أراده الإسرائيليون في خضم هذا الجو الذي أطبقه عليهم قادتهم هو (الخبز والمدرج اليوناني) . فامبراطورية إسرائيل قد اقتربت كثيراً في شبهها بعد حرب عام ١٩٦٧ مع الإمبراطورية الرومانية العتيقة المتداعية ، بينما توفر الخبز بكثرة بعد الإرتفاع المطرد في مستوى المعيشة بفضل الدعم السخي من طرف الولايات المتحدة ورخص الأيدي العاملة العربية المستوردة من الأراضي المحتلة . وبالنسبة للمباريات فما زالت أحزاب المجتمع موجودة .

وتلك هي الفترة التي شرع فيها الإسرائيليون يحتفلون برأس السنة الجديدة ولا أقصد هنا السنة التقويمية اليهودية (روش هوشانا) ، بل السنة الجديدة للتقويم الغريغوري البابوي . وربما حدث هذا لان التقويم اليهودي يضم في أغلبه وقائع مظلمة من التاريخ اليهودي ، وربما كذلك لان هذا التصرف يخلع على الإسرائيليين مسحة من الإنتساب للعالم الغربي . ومن المثير للتناقض الظاهري أن الدولة اليهودية لما تزل واحدة من الأماكن النادرة التي تشير الى السنة المسيحية الجديدة باسمها الأصلي (ليلة سلفستر) تيمناً باسم قديس مسيحي . كما استحوذ هاجس استعراض نكتة السادات على أغلب الأحزاب اللامعة في تل أبيب مطلع السبعينات ، وربما أفرط الشعب بأسره ضحكاً على تصريحات السادات . كانوا مؤمنين انه كان يخادع ، وسرعان ما أراهم انه يقصد القول ويبغي منه الفعل وهذا ما أدركه الإسرائيليون

ولكن بعد أن سبق السيف العذل ودفعوا ضريبة مرهقة ثمنها آلاف القتلى ومثلهم جرحى من الشباب اليهودي .

قرر السادات وبعد أن استوعب أن الإسرائيليين لم يقيموا وزناً لمحاولاته في بلوغ اتفاقية سلام أن ينخرط في واحد من أعظم أعمال الخداع في التاريخ ، في عمل يرتقي الى مصاف الهجوم الياباني على ميناء (بيرل هاربر) والغزو النازي للاتحاد السوفيتي في الحرب العالمية الثانية . لقد خطط جنبا الى جنب مع الرئيس السوري حافظ الأسد هجوماً فورياً ومنسقاً ضد الخطوط والمواقع الإسرائيلية على طول قناة السويس ومرتفعات الجولان . كان اليوم الذي اختاروه هو السادس من تشرين الأول عام ١٩٧٣ الذي يصادف (يوم خير) أقدس يوم من التقويم اليهودي . وحقيقة أن الإسرائيليين الذين طغى عليهم غرورهم وتبجحهم وظنهم أن العرب ضعاف ومتخلفين ، قد أخذتهم الحرب على حين غرة . بيد أن الأيام الأولى من الهجوم قد أثبتت أن الحرب أسوأ من المفاجأة . لقد اهتزت أركان البلاد من شدة الصدمة وخيمت عليها المستيريا وغلبها الذعر . وهنا تناثرت ثقة ديان أشلاء بينما كانت الجيوش العربية تمشي الهوينا وتقطع بالخطوط الإسرائيلية كأن أمامها قالب زبدة . وظن بعد أن أسدلت الحرب يومها الثالث أن نهاية الدولة العبرية قد حانت ، وتكلم بمصطلحات سفر الرؤيا عن (هدم المعبد الثالث) . لقد هدم البابليون المعبد الأول وهدم الرومانيون الثاني ، والآن قد حان دور العرب ليهدموا الثالث . وهنا قد تغير حال البلاد ومعها ديان رأساً على عقب ، فبعد أن غطوا لست سنوات في نشاط ما بعد حرب ١٩٦٧ خرجوا الآن ليتذوقوا الهزيمة والإحباط .

كان رد فعل الحكومة الإسرائيلية جد متطرف اذ وضعت الحكومة منظومة سلاحها النووي في حالة إنذار للمرة الاولى . إن المحصلة الثانية للمذبحة التي تعرض لها اليهود على يد النازية الالمانية هي قرار بناء المفاعل النووي وصنع السلاح الذري

الذي بادر به بن غوريون في منتصف الخمسينات وكان بحق الحدث الأكثر والأهم تطوراً في تاريخ إسرائيل الحديث والشعب اليهودي .

جرت مناقشة مشروع السلاح النووي الإسرائيلي في جو من السرية التامة بعد أن قرر بن غوريون وبعض من مستشاريه المقربين تجهيز البلاد بما تحتاجه من سلاح نووي ومنذ حينها بقي المشروع سراً لا يعلم به الا حفنة من صنّاع القرار وأفذاذ العلماء وكبار قادة الجيش ، بينما ظل حتى أعضاء في مجلس الوزراء غير عالمين بحملات البناء الهائلة التي حصلت بين الأعوام ١٩٥٨-١٩٦٣ في قلب صحراء النقب الواقعة في منتصف المسافة بين بئر السبع ومياه البحر الميت المالحة . ووقع الاختيار على مدينة (ديمونة) التي يتألف غالبية سكانها من المهاجرين السفارديم لتكون الموقع الذري بفضل بعدها .

ظهرت بذور هذا المشروع السري في الثاني والعشرين من تشرين الأول عام ١٩٥٦ في فيلا خاصة في ضاحية (سيفرس) الباريسية . فقد اجتمع في إحدى غرفها القارئة أنصار من ثلاث دول هم : رئيس وزراء فرنسا وبعض كبار إداريه ووزير خارجية بريطانيا ورئيس وزراء إسرائيل بن غوريون وبعضاً من كبار مساعديه . لقد خططوا سوياً لحرب ستعرفها إسرائيل باسم (حملة سيناء) وسيعلمها العالم على انها (ازمة السويس) . نزلت القوات البرية الإسرائيلية والمظليون بعد أسبوع من الاجتماع في صحراء سيناء المصريه وشرعوا بالتحرك نحو قناة السويس . هنا أعلنت بريطانيا وفرنسا تماشياً مع مؤامرة سيفرس إنذاراً يفرض على إسرائيل ومصر تجميد حركتهما عند بضعة أميال من القنال . قبلت إسرائيل الإنذار وفق ما خطط له مسبقاً ورفضته مصر التي لم تكن تعلم ما كان يدور خلف ظهرها فأعطت بذلك ذريعة لبريطانيا وفرنسا لإسقاط مظلّين في منطقة القناة والسيطرة على الممر المائي الحيوي . في هذه الأثناء كانت القوات الإسرائيلية قد أكملت غزوها لجزيرة سيناء في أربعة أيام فقط .

هنا بدأ أن هدف مؤتمر سيفرس قد تحقق وإن الشهور الطويلة من التخطيط العسكري والاستخباري والتنسيق السياسي قد أتى ثماره .

تمثل الهدف الفرنسي -البريطاني بإعادة السيطرة على قناة السويس التي أمتتها مصر قبيل اندلاع الأزمة ببضعة شهور . لقد اقلقتهم روح التأميم العربية الجديدة التي نهضت بها القيادة المصرية وإن مصالحهم في الشرق الأوسط - سيما النفط - قد أفضت بهم إلى قرار حمل في ثناياه الإطاحة بنظام القاهرة الحاكم .

أما أهداف إسرائيل الصريحة وكما أعلنها جهاراً بن غوريون فكانت تحطيم الجيش المصري ، تلك القوة التي أخذت تعد نفسها (لجولة ثانية) ضد الدولة اليهودية بهدف الثأر ولتستعيد الشرف الذي فقدته في حرب ١٩٤٨ . كانت حملة سيناء كحملة عسكرية نجاحاً وفشلاً إذا ما نظرنا إليها كمناورة سياسية . لقد توجب على إسرائيل في غضون أسابيع وجيشها لما يزل يعيش غرة الانتصار أن تعيد جزيرة سيناء إلى المصريين بتأثير كبير من الولايات المتحدة الأمريكية . تلك كانت صفقة مؤذية لإسرائيل كدولة تقدمية تنشد السلام ، فالحرب قد أعدوها حرباً إمبريالية عتيقة الطراز ، واستتج العالم أن إسرائيل قد غمست أصابعها في مؤامرة إمبريالية أخطأت فيها الحساب . إن الحقيقة المخفية أن بن غوريون انضم إلى مؤامرة السويس الثلاثية استجابة لرغبته الجامحة في الحصول على قدرة نووية وهو ما أنجزته الحكومة الفرنسية بعد عام وبالتحديد في تشرين الأول عام ١٩٥٧ حين تطوعت بتزويد إسرائيل بمفاعل نووي كبير وبالمعونة التقنية والمواد والأيدي العاملة وهو ما مكن إسرائيل نهاية المطاف أن تنتج قنابل نووية لتغلب بذلك الدولة السادسة بعد الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي وفرنسا وبريطانيا والصين العضو في النادي النووي ذي الهيبة . لقد استحال حلم بن غوريون واقعاً فهو قد آمن أن السلاح النووي سيجعل من إسرائيل قوة لا تجارها قوة في الشرق الأوسط ، وسيكون بمثابة فرس الرهان الأبدي الذي سيحفظ

لدولة اليهود وجودها . وهو لكي يمنح رغبته في أن يملك سلاحاً نووياً تبريراً شرع هو وأتباعه يستحضرون دوماً مأساة المذبحة اليهودية المعاصرة كذريعة وتفسير ومصطلح يعينهم في ديمومة مشروعهم النووي حتى وإن أثقل الضغط الدولي كاهلهم .

ويتشكل تاريخ ديمونة ومكانها عند جماعة علماء إسرائيل من رقاقة هشة من الأسطورة والتحريم . انه يمس أشد القلق وأعتى الخوف ويصل بنا الى جنون العظمة ، بينما أسدل العهد الوطني تعززه الرقابة العسكرية على المشروع النووي بستارة سميكة من الصمت . بيد أن قادة إسرائيل قد وجدوا برغم هذه السرية سيلاً ليخبروا شعبهم والعرب وبقية العالم - بمثل غمزة عالم بالأمور- أن وجود إسرائيل مؤمن عليه (بطريقة ما) .

ثم جاءت حرب ١٩٧٣ مع مصر وجلبت معها أول تحدٍ لسياسة إسرائيل النووية . لقد هيأت دولة اليهود نفسها لتستخدم السلاح النووي الذي صنعتته سراً وأخفته في مفاعل ديمونة وجعلت منه سلاح يوم القيامة وفعلاً أخيراً للإنتحارية الدفاعية ، ثم استخلصت القيادة الإسرائيلية في الوقت العصيب أن إسرائيل برغم خطورة الموقف لقادرة أن تهزم أعداءها بوسائل الحرب التقليدية .

أظهرت غولدا مائير ونفر من الجنرالات هدوءاً ملحوظاً في خضم هذه الأزمة سيما عند مقارنتهم بموشي ديان الذي أضل سبيل نفسه . فجأة سار ثبات غولدا المشكوك فيه وإرادتها القوية لصالحها . فإذا كانت هذه اللامرونة قد وقفت حائلاً ضد أية تسوية سياسية قبل الحرب ، فإنها هي ذاتها التي مكنت إسرائيل أن تقف بوجه الهجوم العربي ساعة اندلاع الحرب . ويأدراكنا المتأخر للواقعة نستطيع القول أن حرب يوم خيبر قد انتهت بجلب الإنتباه ، إذ لم تحقق سوريا ومصر من وجهة النظر العسكرية الا مكسباً محدوداً بينما حصلت الدول العربية على مكسب سياسي مهم

واحد وهو انها كسرت الجمود وأخرجت الصراع العربي الإسرائيلي من حالة الركود .
لقد أراد السادات ربح العملية السياسية عن طريق تحرك عسكري وأفلح في هذا
الصدد .

ان التوصل لحل سياسي غالباً ما يقع ولسوء الحظ بعد أن تكون حرب قد نشبت
بين طرفي النزاع . فبعد حرب ١٩٧٣ ومن خلال التدخل الدبلوماسي للولايات
المتحدة الذي قاده وزير خارجيتها النشيط (هنري كيسنجر) ، توصلت كل من
إسرائيل وسوريا ومصر الى إتفاقية مؤقتة شرعت بموجبها إسرائيل بالانسحاب من
شبه جزيرة سيناء ومرتفعات الجولان .

مضت إسرائيل لسنين تقول أن اللغة الوحيدة التي يفهمها العرب هي لغة القوة ،
وهكذا أيضاً آمن العرب أن بمقدورهم إذلال إسرائيل بقوة العضلات والهجومات
المباغطة . إن موافقة إسرائيل التي أعقبت حرب ١٩٧٣ بالانسحاب من الأراضي التي
رفضت سابقاً الانسحاب منها انها توضح أيضاً أن العقل القيادي الإسرائيلي الجامع
لقادر أيضاً أن يستمع ويساوم . من جانب آخر غيرت إسرائيل من نظرتها السابقة
للعرب وقالت انهم الآن يوفقون بين أنفسهم ووجودهم .

وثمة عامل آخر ذو أهمية بمكان ، إذ أصاب السادات حين قال أن تسعين في المئة
من الصراع ذو طبيعة نفسية . لقد أوضح العرب للعالم وبرهنوا لأنفسهم انهم ليسوا
حقى متخلفين كما صورهم بذلك الإسرائيليون ، ومزقت الحرب أسطورة إسرائيل
التي لا تقهر إرباً إرباً ، وأعادت للعرب الشرف والفخر اللذين فقدوهما في حربي
١٩٤٨ و ١٩٦٧ . انه الشيء الذي وهبهم مقعداً يجلسون عليه ويتفاوضون مع
إسرائيل .

وشهدت إسرائيل أيضاً تغيراً جذرياً فقد رأى العامة أن الإستخبارات الإسرائيلية

قد فشلت في حداث نويا مصر وسوريا ، وتعرض الإسرائيليون الذين ساروا في تصور أنفسهم جبارين لضربة قاصمة بهذه الحرب وكثر ضحاياها . إن ألفين وسبعمئة قتيل في مجتمع صغير ومتناسك كإسرائيل تمثل نسبة تعادل ما يربو على مئتي ألف في الولايات المتحدة ، فاتخذ قسم من الشعب وخاصة من الجيل الشاب موقفاً ساخراً ، وأضحت المقابر العديدة المنتشرة على طول البلاد وعرضها والتي أقيمت لتوازي جثث القتلى (مدن شباب) كما أحب هؤلاء تسميتها هكذا . وطالب أغلبية من نكبتهم الحرب بإيضاحات من قيادتهم وأمست معاذير مائير وديان وحججهما قاصرة عن تهدئة موجة الاحتجاج العارمة التي اجتاحت إسرائيل في ذلك الشتاء ، وتظاهر أبناء الجنود القتلى أمام منزل ديان رافعين أعلاماً تحمل الإتهام الوحيد : «يا قاتل» ، واعتبروا كلاً من غولدا ولاسيما ديان من خطط لهذه الفاجعة القاصمة فتقدماً باستقالتيهما مجبرين في نيسان عام ١٩٧٤ . ثم كتبت غولدا في مذكراتها (ان المعلومة المرعبة بانى من كان بوسعه الحيلولة دون هذه الحرب ستبقى تحوم حولي حتى يوم مماتي) . ورحلت مائير بعد أربعة أعوام . اما التغير في موقف الإسرائيليين تجاهها وتجاه ديان فكان مفاجئاً حقاً وجد جذري . لقد نالا من الإسرائيليين عام ١٩٦٧ مشاعر التبجيل وآيات العبادة وعقب ستة سنوات انقلب الحال عاليه سافله فكان نصيهما الإحتقار والإذلال . أن إسرائيل خلافاً لكل الدول الديموقراطية والاستبدادية لا تلتزم بإقامة نصب تليدي على شرف قادتها أو شهرتها العسكرية ، ولعل لوصية التوراة القائلة : «لا تضعوا اي تمثال حجري» أثر في ذلك . ولما كان الأمر مع دولة ذات أمزجة شفافة فان إسرائيل تبرع سواء في تنكرها أو تخليها لزعمائها الأبطال المنبوذين وهم لا يزالون احياء . لقد عاش ديان وغولدا تجربة المقولة الرومانية : «هكذا يموت مجد العالم» .

لقد فقد حزب العمال سيطرته الفعلية على السياسة الإسرائيلية في تشرين الأول عام ١٩٧٣ ولما يزل يملك في حقيته ثلاث سنوات ونصف حتى يغدو الإنتقال

رسمياً، وفي إسرائيل - وربما أكثر من معظم الديمقراطيات الغربية - غالباً ما يحل العقاب الفعلي بعد سنوات عديدة من الإنتظار. كان الحزب في انتخابات تشرين الأول عام ١٩٧٣ متهيئاً ليكسب جولة الفترة المقبلة، وارتقاء حزب الليكود الى السلطة عام ١٩٧٧ هو بمثابة استجابة متأخرة لهزيمة ١٩٧٣. وفي خضم هذه الفترة الكاثنة بين عام ١٩٧٣ وعام ١٩٧٧ دقت مسامير إضافية في نعش حزب العمال. قبل أن يحصد بينغن وحزبه أغلبية في التصويت.

استبدلت غولدا مائير وديان في ربيع عام ١٩٧٤ بمجموعة جديدة ظاهرياً من السياسيين ترأسها الجنرال السابق اسحق رابين البالغ من العمر واحداً وخمسين عاماً. كان في مرحلة الشباب نسبياً وذو مظهر حسن حين انتخبوه لرئاسة الوزراء. إن وجود رئيس وزراء شاب شيء غير مألوف في الساحة السياسية الإسرائيلية التي تعودت على قادة مسنين. مثل رابين جيل أبناء الأبناء المؤسسين، وإذا ما تصفحنا تاريخه الشخصي نجده يمثل الصبارين (اليهود المولودين في إسرائيل) الأسطوريين من الطبقة الممتازة. كانت وتيرة كلامه ضخمة وهو يلفظ عباراته بطريقة محسوبة تماماً. لقد قاتل ضد الجيش البريطاني في قوات نخبة المهام الخاصة السرية لحزب العمال وكان أصغر العقداء سنّاً في حرب عام ١٩٤٨ ونال استحساناً طيباً في عام ١٩٦٧ على دوره رئيساً لأركان الجيش الإسرائيلي. وقد جاء في الملف النفسي لوكالة المخابرات المركزية (CIA) أن رابين انطوائي للغاية، ويمقت الكلام المخادع الذي تتطلبه الدبلوماسية، وبرغم هذا تم تعيينه سفيراً لإسرائيل في الولايات المتحدة في السنوات الأربعة التي أعقبت حرب ١٩٦٧.

فشل حزب العمال تحت قيادة رابين أن يعيد الشعب المشدوه بصدمة ١٩٧٣ الى صوابه: لقد أحطت خصومة رابين مع وزير دفاعه شمعون بيريز كثيراً من سلطاته وسارت معدلات التضخم من سيء الى أسوأ ففرق البلد في أزمة اقتصادية عويصة.

والأدهى من هذا وذاك أن الفساد سيما الصادر من أعضاء كبار قد نخر حكومة راين حتى بلغ السيل الزبى حين كشف النقاب علناً عن أن راين وزوجته قد حازا بصورة غير شرعية على عشرين ألف دولار أمريكي في حساب مصرفي في واشنطن . ها هنا غدا حزب العمال في عيون الإسرائيليين رمزاً للفساد ، وهي منظمة متعصبة لا تابه لغير حالها وحال أعضائها بشيء فهي متكرة لمصالح الأمة جمعاء ، ولو حصل في السابق أن نظر الحزب والناس أحدهما للآخر ولأنفسهما كجسد واحد لغير كثير من الناس رأيهم اليوم . وإذا لم يمر وقت طويل حتى يفقد حزب العمال سلطته ويتزحزح من عتبة السلطة في إنتخابات عام ١٩٧٧ ليحل محله حزب بيغن-الليكود .

مناحيم بيغن : طيرٌ نادرٌ في قفص طيور إسرائيل السياسي . كان أسلوبه مختلفاً عن غيره وبقي خارجاً كأنه غريب بين سياسيي البلد . ولد بيغن في بولندا عام ١٩١٣ واختلط (الصهيونية التطورية) التي شربها إياها معلمه السياسي والأيديولوجي فلاديمير زيف جابوتنسكي بصماتها داخل أعماقه وهو لما يزل صيماً .

كان جابوتنسكي هذا المولود في ميناء اوديسا عام ١٨٨٠ الطفل المعجزة للحركة الصهيونية الروسية . لقد عمل بعد أن وضعت الحرب الكونية الاولى أوزارها مع بن غوريون في الحركة الصهيونية كمستشارين سياسيين وجامعي أموال ودعاة لجميع أغراض الصهيونية . بيد أن مسارهما أخذ بالافتراق عام ١٩٢٣ . فقد غطت الظلمة أمل جابوتنسكي الذي افترض أن تحققه بريطانيا في الحال وهو إنشاء دولته اليهودية وجيشه المستقلين ، وعليه انشق عن تيار صهيونية بن غوريون واستفاق يؤسس قوة معارضة تطورية في الحركة الصهيونية غدت بعدئذ منظمة سياسية تعرف باسم "الحركة التطورية" . هذه الحركة على اية حال لم تجد في نفسها بالخارج الجذري عن الصهيونية التقليدية ، بل على العكس من ذلك كله اعتقد جابوتنسكي وأتباعه التطوريين انهم حملة المشاعل والورثة الحق لهيرتزل وصهيونيته السياسية القديمة وهو

قد شعر أن الذي بحاجة للتطوير ليس الصهيونية بل سياساتها الراهنة .

تيمم جابوتنسكي بالفاشية الإيطالية وزعيمها بيتينو موسوليني ، وهنا وسمت التطورية علامة صهيونية قاسية لا تعرف الرحمة مجردة من العاطفة غير مؤمنة بالتسوية . ذاك هو نمط وحشية الصهيونية الذي عبرت عنه أقوال وأفعال مناحيم بيغن ومن بعده اسحق شامير . لقد حاول أعضاء حركة جابوتنسكي التطورية في الثلاثينات أن يحاكيوا النموذج السياسي وحضارة الحق الأوروبي ، ولأنهم ظنوا بالليبرالية (التحررية) والديموقراطية كائنين ضعيفين فقد آثروا أن يكونوا يهوداً فاشيين ، وانسجماً مع هذا الدور وأدوارهم الأخرى ، إرتدى من انخرط في حركة جابوتنسكي قمصان بنية اللون وأقاموا الاستعراضات ونظموا المظاهرات وعبدوا زعيمهم ، بل إن بعضهم أثار جدلاً أن هتلر لو لم يكن معادياً للسامية لانضموا له مؤيدين إشتراكيته الوطنية .

لقد استوعب جابوتنسكي بحلول عام ١٩٢٣ وما بعده أن الصراع مع العرب (لعبة نتيجتها صفر) بحيث أن كل مكسب للعدو أتى كان يمثل خسارة لليهود . وعليه فإن الحل الوحيد الذي رآه جابوتنسكي الأنسب هو أن يكونوا دوماً أقوياء ومستعدين للعبة الصراع . واعتقد أيضاً أن دولة اليهود لن تجد حيزها في الوجود بغير سبيل الدم والنار . ولأنه قد اقتنع أن هذه حتمية تاريخية فقد دعى في الثلاثينات الى الإستيلاء على إسرائيل ايريتز وفتحها بصراع دموي . وهو قد ذهب أبعد من هذا في ايمانه ليقول أن (الجدار الحديدي) الذي ستشيله الصهيونية غير الهيابة وحده القادر على كسر طوق العرب ولتقوم الدولة اليهودية في منطقة محفوفة بالعداءات .

بيد أن خلافات أخرى في التفكير والأسلوب ما برحت قائمة بين بن غوريون وجابوتنسكي . فجابوتنسكي شخص يحلم ياقظاً ورومانسي ومغامر جاهز لركوب المخاطر . اما بن غوريون فمشدود أكثر الى أرض الواقع وهو عملي وسياسي عاقل

ومسؤول.

بلغت الخلافات بين التطوريين والاشتراكيين أشدها ما إن حلت منتصف الثلاثينات وما بعدها، فهي قد اتسمت بالعنف والمرارة وبذلت كل طائفة مساعيها لتعطيل اجتماعات الاخرى وتشتيت تجمعاتها السياسية، وذروة هذه الخلافات أخذت شكل العراك بالأيدي. وأعلن جابوتنسكي جهاراً أن بن غوريون وأنصاره الاشتراكيون ينزعون الى سياسات استرضائية، واثمهم بالتخلي عن حقوقهم للإنجليز والعرب، فهو يؤمن بإسرائيل الكبرى: إن اليهود مؤهلين لأرض إسرائيل التوراة بطولها وعرضها بما في ذلك إقليم شرق الأردن. فهذه المنطقة قد وهبتها الإمبراطورية البريطانية هدية الى الملك الهاشمي عبدالله وهذا هو المكان الذي تأسست فيه إمارة شرق الأردن عام ١٩٢٣ المعروفة اليوم باسم الأردن.

أطلق جابوتنسكي عام ١٩٣٧ جناحاً عسكرياً لحركته التطويرية ودعاه (اتزل) وهو الرمز العبري للمنظمة العسكرية الوطنية ومن ثم دعيت للسهولة باسم (آرغون) (منظمة). قامت هذه المنظمة بمهاجمة الجنود البريطانيين والمنشآت العسكرية ونظمت الهجرة غير الشرعية ليهود اوروبا الى فلسطين وفي عين الوقت شرع أعضاؤها بممارسات إرهابية بما في ذلك قتل العرب الأبرياء الذين يمرون في أحياء اليهود، كما قاموا برمي القنابل على الحافلات العربية وداخل الاسواق العربية.

علقت نشاطات الأرغون العسكرية بعد موت جابوتنسكي في عام ١٩٤٠ واندلاع الحرب العالمية الثانية ومن ثم استؤنفت في عام ١٩٤٤، وتم انتخاب مناحيم بيغن رئيساً سياسياً وقائداً لحركة التطوير. في عام ١٩٤٢ ألقى العملاء السوفييت القبض على مناحيم بيغن في فلنو-ليتوانيا وزجوا به في السجن بتهمة إثارة حملات الدعاية الصهيونية، وسمحوا له بعد أن أطلقوا سراحه أن ينضم الى الجيش البولندي في المنفى. تحرك هذا الجيش الذي تولت رعايته بريطانيا الى روسيا وفلسطين بعد أن

تراجع تحت وطأة الاحتلال الألماني فانتهاز الكثير من أعضائه الفرصة وبقوا في إسرائيل
ايرتزو. الا أن بيغن أبى أن يقوم بذلك ويهين كرامته كجندي بولندي وبعد أن غادر
الجيش البولندي رسمياً شعر انه قادر على تسلم زمام القيادة في الأرغون .

لقد تجذر الحقد المتبادل عميقاً بين فرعي الصهيونية بعد موت جابوتنسكي
وتأسيس دولة إسرائيل ، وتعمق معه مقت بن غوريون على مدى سنين الى الحد الذي
رفض فيه أن ينادي مناحيم بيغن باسمه وأشار اليه أثناء المناقشات البرلمانية (بالرجل
الجالس بعد ٠٠٠) . كما قاطعت حكومة حزب العمال وعلى مدى العقد الأول من
قيام الدولة جماعة بيغن وأبقتهم خارج الدائرة العامة وحظروا عليهم أن يكونوا
معلمين أو مثقفين لثلا (تسمم) عقول أبنائهم ، وجنحوا الى ايقاف ترقية جماعة بيغن
في الخدمة العسكرية ، وامتنع بن غوريون وصحبه من الإشتراكيين عن قبولهم في
الشاباك وهي مكتب التحقيقات الاسرائيلية ، ولم تتوانى حركة حزب العمال عن
توظيف الأجهزة السرية المحلية لأغراض سياسية . إذ أصدرت الأوامر في مطلع
الخمسينات الى وكلاء الاستخبارات بالتسلل الى أحزاب إسرائيل السياسية وبخاصة
حزب بيغن - حירות (الحرية) الذي تأسس ليكون خليفة لحركة التطوير ثم اندمج في
مستهل السبعينات داخل كتلة الليكود المشكلة حديثاً .

إن بيغن نتاج عصره وبيئته السياسية وتجربته الشخصية . كان جد كاره للشيوعية
والألمان فهو قد فقد جميع أعضاء عائلته في المذبحة النازية ٠٠ وغدت الإبادة الجماعية
التي تعرض لها شعب اليهود بالنسبة له مشعلاً ينير الدرب لجميع قراراته السياسية ،
ورأى في المذبحة تهديداً مستمراً وأبدياً فما سلاها فمه في اية خطبة ألقاها وأضحت
مسنده آتى حل ، وطوع ميراثها كأداة سياسية في صراعه ضد حكومة بن غوريون .
وقد بلغ هذا الصراع أشده مبكراً في مطلع عام ١٩٥٢ حين نظم بيغن مظاهرة
احتجاج واسعة في القدس آلت الى الانتهاء برجم مبنى الكنيسة بالحجارة كرد فعل

على قرار الحكومة بقبول التعويضات الالمانية . لقد ساعد هذا الحادث بيغن في جعل موروث المذبحة قيمة بديلة عن أسلوب بن غوريون غير الشغوف في السياسة الواقعية .

وعلى نحو مشابه أثار بيغن والليكود غداة وصولهم السلطة في مارس عام ١٩٧٧ فكرة إسرائيل ايريتز كبديل لفكرة حزب العمال في الدولة ، ويحق القول هنا انها فكرة جاءت لتحل محل المذبحة كسلاح سياسي لبيغن والليكود . وتكمن الحقيقة في أن فكرة إسرائيل ايريتز كانت سبيلاً أسهل على الليكود أن يسلكه ، فهي فكرة غرسها منذ عام ١٩٦٧ حزب العمال - وان كان بشكل جزئي - في قلوب وعقول الإسرائيليين وما كان على بيغن الا أن يجني الثمار أينما تركها حزب العمال .

بعد شهرين من فوزه في الإنتخابات وبالتحديد في تموز عام ١٩٧٧ ذهب بيغن الى (آلون موريه) المستوطنة الكائنة في الضفة الغربية وتلك كانت أول جولة من سلسلة جولات قُدر لها أن تبقى سمته الثابتة . أن آلون موريه - طبقاً لما ورد في التوراة - هي أول مكان نزل فيه أبراهام في كنعان بعد خروجه من بلاد الرافدين حيث بنى فيها معبداً لله ، وهي كما يراها المتدينون والوطنيون مهداً للأمة اليهودية . وفيها أقامت إسرائيل مستوطنة عام ١٩٥٧ على الأرض التي صادروها من قاطنيها الفلسطينيين . وفي هذا اليوم من عام ١٩٧٧ شارك بيغن جماعة المستوطنين المبتهجين في رقصاتهم وواعدهم بمزيد من (مستوطنات آلون موريه) .

هذا هو واحد من أوائل بيانات بيغن الى العالم : انها ايماءة رمزية ودلالة أن قلبه مع المستوطنين وتأيبده للمستوطنين . اما العرب وبقية شعوب العالم فقد ترجعوا الرسالة أن الليكود لن يتخلى عن شبر من الضفة الغربية . بيد أن بيغن ومهما بلغ الأمر من حال كان يرسل إشارات مختلفة أيضاً بعيداً عن أضواء التلفاز . اذ وظف القنوات القديمة للأبواب الخلفية بين جهاز الاستخبارات السري (الموساد) والعالم العربي وقام

بتبادل رسائل سرية مع رئيس مصر أنور السادات وقد أناط مهمة إجراء المفاوضات السرية -وهذا ما يثير الدهشة- بموشي ديان، وربما أراد أن يرفع الحظر السياسي المفروض من الشعب الإسرائيلي على الجنرال ذي العين التجميلية بسبب دوره في حرب ١٩٧٣.

وأصبح ديان المقدم الذي وصفوه بالمرتد داخل حزبه (العمال) ووزيراً لخارجية بيغن. كانت تلك فرصة ذهبية قدمها بيغن لديان: إذ ربما استطاع من خلال مفاوضات السلام أن يحسن من صورته أمام العامة. تلك الصورة التي تشوهت كثيراً من دوره في الكارثة الحديثة العهد لحرب يوم خيبر. بيد أن الصورة أبت أن تتحسن داخل صفوف حزبه أو أمام الشعب اليهودي. وهي قد ألفت ضوءاً مريباً عما إذا كان بيغن قد شعر أن ديان أو حزبه قادرين على إدارة البلاد. ومن الوجهة الظاهرة توجس رئيس وزراء إسرائيل الجديد من الضغط الناجم عن الحملة الدعائية (لمروج الحرب) التي استخدمت ضده. لقد قرر بيغن أن يبرهن أنه داعية سلام، ووضع المهمة على كاهل ديان المتمرس الذي ما زال يحتفظ باحترام العرب له، واعتقد بيغن أن ديان الصباري يعرف أفضل من غيره كيف يتحدث إلى العرب وهذا ما حصل فعلاً: أمسى ديان المتعهد الثانوي بيغن السلام.

لم يكن لإشارة بيغن الاستفزازية حول الون موريه في مطلع رئاسته الوزارية وقعاً لدى الرئيس المصري. أن ما أراد السادات أن يعرفه من قادة العالم الآخرين هو إذا ما كان بيغن زعيم شرف يمكن ائتمانه لتسليمه ودائع السلام. إن تعامل السادات السابق وما فهمه من ضعف من قيادة راين قد حدث به إلى الوصول إلى اتفاقية مؤقتة مع إسرائيل ولكنها ليست معاهدة سلام كاملة. كان الجواب الذي تلقاه السادات من العالم هو (نعم مؤكدة)، وهكذا بدأت مفاوضات ديان السرية مع مستشاري السادات في الدوائر التابعة لملك المغرب الحسن الثاني وسحبوا سوية مسودة لاتفاقية سلام.

وأعرب السادات أثناء مقابلات أجرتها معه قنوات التلفاز الأمريكية في مطلع تشرين الثاني عام ١٩٧٧ عن استعدادة (للذهاب الى آخر العالم بما في ذلك القدس) في إطار مساعيه نحو السلام . لم يتردد بيغن أن ينضم لمستمعي هذا التصريح ويوجه الدعوة للسادات ليخطب في الكنيسة ، وقبل الرئيس السادات العرض !!!! .

وفي ظرف أقل من اسبوع استعدت كل من إسرائيل ومصر والعالم بأسره لأول زيارة رسمية يقوم بها زعيم عربي الى إسرائيل . في ذلك السبت الموافق السابع عشر من تشرين الثاني من عام ١٩٧٧ التصق الاسرائيليون صغيروهم وكبيرهم بشاشات التلفزة ، ومسح الكثيرون منادموهم حين حطت الطائرة المصرية في مطار بن غوريون وظهر السادات مرتدياً كعاداته بدلة ليس فيها من عيب وصافح بيديه الاسرائيليين الذين هم حتى لحظة نزوله أعداؤه . لم يحضر لاستقباله أعضاء مجلس الوزراء فحسب بل حتى قادة المعارضة وضمنهم العجوز غولدا مائير . وسمع جميعهم الرجل الذي ما خطا خطوة واحدة حتى أبان : إنني لست بمراوغ ، انني اريد السلام . لقد كان ثمة شيء يوحى بان التاريخ يصنع هنا ، مثلما شاهد الجميع .

وعاهد السادات وبيغن في خطابهما في الكنيسة : لن تدور رحى حرب ثانية ولن تراق مزيد من الدماء . لقد خطت عملية السلام خطواتها . وثمة عامل مهم آخر هنا ، انه الدعم المطلق من جانب الرئيس الأمريكي جيمي كارتر الذي اشترك بشخصه ووجدانه في المفاوضات . إن كارتر المعمد الذي اهتمته عاطفته الدينية مع الأرض المقدسة والمستجيب لرغبته الجائعة في رفع العالم الى مستوى أفضل وأكثر سلماً كان الأكثر من اي شخص آخر في تحقيق اتفاقية السلام .

تم توقيع اتفاقية السلام الاولى بين دولة اليهود وبين بلد عربي في خيمة فارمة ملونة في أحد مروج البيت الأبيض وتناقلتها وكالات التلفزة على نحو واسع ، وفيها تصافح الثلاثة بيغن والسادات وكارتر . كانت أكثر من مجرد ايماءة رمزية فهؤلاء القادة

الثلاثة هم حقاً صناع السلام.

جمعت الرجلان بعض خصال الشبه برغم الاختلافات الأخرى الموجودة بينهما والمتثلة بتمسك بيغن بصغائر الأمور بصفته محامياً واللامبالاة التي تحلى بها السادات حيال بعض التفاصيل الدقيقة. لقد اشترك الرجلان بتذوقهما للدراما واحساسهما للتأريخ، فكلاهما رغب أن يحجز له التاريخ مقعداً في سفره. كانت اتفاقية كامب ديفيد ذات الثنائي صفحات جد مفصلة، بيد أن كلا الطرفين أدركها بالطريقة التي يشاء. فالسادات ظن انه سيجني من وراء الاتفاقية دعم الولايات المتحدة المالي له (وهذا ما حصل فعلاً) لمساعدته في النهوض باقتصاده المتداعي، وعادت له فوق هذا شبه جزيرة سيناء التي استثمرت فيها إسرائيل منذ عام ١٩٦٧ عشرين مليون دولار في أعمال التطوير بضمنها حقول النفط ومنتجات الغطس في البحر الأحمر. وقد آمن السادات في عين الوقت انه بتوقيعه اتفاقية السلام انما يضع حجر الأساس لاتفاقية مستقبلية بين إسرائيل والفلسطينيين. واعتقد بيغن من ناحيته انه صنع سلاماً لا نظير له مع أقوى وأكبر دولة عربية. وكان يأمل من السادات تخليه مقابل سيناء عن الفلسطينيين وأن يحصل منه على الدعم اذا ما وصل الحديث الى قضية الضفة الغربية وقطاع غزة. وهو قد شعر انه قادر على إعادة سيناء لانها حسب وجهة نظره ليست جزءاً من الأمة الإسرائيلية الكبرى المشار اليها في التوراة. لقد سار كلاهما في سبيل ضال.

واخيراً فان اتفاقية السلام برغم أهميتها السياسية والفعلية كانت حضيصة تصورات خاطئة لكلا الزعيمين. فالسادات ألمح ذات مرة (ان بيغن قد خذله الندم بعد ثلاث ساعات من توقيع الاتفاقية). أما بيغن وان لم يكن آسفاً حقاً فقد خشي عواقب هذا الأمر بخصوص القضية الفلسطينية. فها هي منظمة التحرير الفلسطينية قد رفضت الانضمام الى الاتفاقية واعترضت على أن الحكم الذاتي غير مقنع

للفلسطينيين ذلك انه لا يستجيب لطموحهم في إقامة دولتهم . ثم أن (آبا ايان) أشهر دبلوماسي مقتدر في إسرائيل قد صرح ذات مرة بأن العرب ولاسيما الفلسطينيين لم يدعوا مطلقاً فرصة أخرى تفلت كي يفقدوا فيها فرصة أخرى .

لقد أوردت اتفاقية السلام في عام ١٩٧٧ قضية الحكم الذاتي للفلسطينيين في الأراضي المحتلة كحل مؤقت لمدة خمسة اعوام ، بعدها يقرر الإسرائيليون والفلسطينيون الوضع الدائم للحكم الذاتي للفلسطينيين . وبدأ القلق يتتاب بيغن وهو الذي صاغ مسودة خطة الحكم الذاتي خشيةً على صورته الجديدة . وهو وإن سار للسلام بقدميه تحدوه آمالاً من بينها البرهنة لخصومه أنهم أساقا الحكم عليه وأنه رجل مختلف قد أصابه الشعور بالحاجة الى أن يعرض أمام مؤيديه انه لا يزال بيغن نفسه . فكثير من أنصاره أصابتهم الصدمة وهم يرون أن بيغن -كاره العرب- يتصرف (بلين) مع العرب ، والأمر من هذا أن زعيمهم المدهش وافق على إزالة عشرات المستوطنات اليهودية في سيناء والتضحية بالوف المستوطنين على مذبح السلام . وعلى حين غرة وجد بيغن نفسه في أتون صراع مع العديد من أصدقائه وحلفائه ، ورآه الناس الذين كانوا في جانبه على مدى عقود (خائناً) ينثر بذور تأسيس دولة فلسطينية مستقبلاً . ووصل الأمر أن بعضاً من رفاقه الذين نذروا أنفسهم له قد أقدموا على الاستقالة من مجلس الوزراء وكتلة الليكود في عام ١٩٧٩ من أجل إنشاء (حزب النهضة الجديد) الذي حمل (مشعل الرفض) (الرافضية) ، فكان هذا ضغطاً أثقل كاهل بيغن وارتأى أن يغير من توجهاته قبل أن يسبق السيف العذل ! فقرر أن يدرك مسبقاً العملية التي ستفضي الى تحقيق حكم ذاتي للفلسطينيين .

إن الأداة الرئيسية للمماطلة عند التعامل مع العرب هي إنشاء الكثير الكثير من المستوطنات اليهودية في الأراضي التي تحتلها إسرائيل ، وهنا عزم بيغن على الوفاء بتعهده الذي أخذه على نفسه قبل سنتين في (الون موريه) وقبل أن يشرع في عملية

السلام . وها هي حكومته تسقي الضفة الغربية بعشرات المستوطنات الجديدة . وقد طلب عمداً حشر بعض المستوطنات في وسط أكثف المناطق المأهولة بالعرب . فلا عجب إذاً أن يندesh الفلسطينيون والعالم بأسره من سياسات الاستيطان الحكومية الإسرائيلية المزمع من ورائها تخريب عملية السلام عن سابق قصد .

انطوت خطة بيغن ومن بعده شامير على جعل قبضة إسرائيل على تلك الأراضي المحتلة غير قابلة للرفع ، وكان مدى نجاح الليكود في هذا كبيراً . فحكومة العمال ليست في السلطة الآن وإذا سيفقدوا الأمر عليها صعباً إن لم يكن مستحيلًا التوصل الى اتفاقية سلام على أساس المساومة على الأراضي التي ستعيد أغلب الضفة الغربية الى العرب . والحق أن بيغن والليكود حولوا المنطقة الى خليط متكامل يجد فيه الفلسطيني القروي نفسه يعيش جنباً الى جنب مع المستوطنين اليهود أو انهم يحيطون به من كل ناحية .

أما الرجل الذي تولى قيادة مشروع بيغن الاستيطاني اليهودي فهو (أريئيل شارون) . إنه واحد من مجموعة من كبار ضباط الجيش الذين انضموا الى الليكود مطلع السبعينات ، وهو ما يدعوننا الى القول أن انضواء الرجال العسكريين تحت راية حزب الليكود حتى قبل أن يتولى السلطة يؤكد حقيقة أن الحزب كان يحرز مسحة تأثير قوية على جميع أفراد المجتمع الإسرائيلي . كان شارون في واقع الحال واحداً من أعمدة الليكود حين تشكل عام ١٩٧٣ باعتباره كتلة أحزاب وجماعات جناح اليمين . وقد أدى به إخفاقه في تبوء منصب رئيس أركان الجيش الإسرائيلي الى تقديم استقالته وهو متأثر بنوبة عصبية بثلاثة أشهر قبل حرب يوم التكفير كما حدا به الغضب الى تنظيم ائتلاف اليمين .

ولما اشتعل أوار الحرب استدعي شارون كحال اي احتياطي آخر وآلى به الحال أن يراه الجندي الاعتيادي كأنه أحد أبطاله . لقد اطلقوا عليه اسم (ايرك - ملك إسرائيل)

نكايه برأي الجنرالات الآخرين الذين اعتقدوا أنه أبدى تقديرات سيئة واقترب أخطاءاً تكتيكية . فحضور شارون يصنع دوماً أينما أراد أن يظهر هزة كبيرة .

ولد شارون الصباري من عائلة فلاحية في منطقة ريفية غير بعيدة عن تل أبيب وقاتل في حرب ١٩٤٨ وجرح ثم تمائل للشفاء ، وهو يتمتع بسيرة طويلة في سجلات القوات المسلحة الإسرائيلية ، وبصفته قائداً لأول وحدة للقوات الخاصة الإسرائيلية وأول لواء مظلي إسرائيلي فقد نال سمعة لا تطالها الشبهات كمقاتل باسل . لقد عرفوا أنه تعود المشي فوق جبل مشدود بين أن يطيع أوامر رؤسائه وبين ترجمتها بطريقته الشخصية المميزة . لقد شارك في بعض من أقسى معارك إسرائيل ضد العرب ، وتولى عام ١٩٥٣ عملية الإنتقام من بعض المتسللين العرب داخل الأراضي الإسرائيلية والتي تسببت في قتل عشرات المستوطنين اليهود . وفي واحدة من أكثر القضايا جدلاً انتقمت وحدة شارون من قرية أردنية تدعى (قبية) . إذ ارتأى شارون وبعض من مساعديه أن يتولوا أمر عدد من المنازل باخلائها من ساكنيها ومن ثم نسفها ، غير أن حسابات عملية الإخلاء كانت سيئة وبقي عدد من الساكنين في ديارهم ، ففضى تسعة وأربعين شخصاً نحبهم بعد أن انهارت عليهم منازلهم . كانت صدمة كبيرة للعالم ، ولجأ بن غوريون القلق والمحزون الى الكذب في ايضاحه أن ذلك تصرف قام به (مستوطنون يهود) دون أن يكون للسلطات الإسرائيلية علم به ، ممسكاً عن الاعتراف بمسؤولية الجيش عن الحادث وبالتالي مسؤوليته بصفته وزيراً للدفاع !! .

إن هذا النمط من سوء التأويل هو في الحقيقة سمة استراتيجية لمؤسسي الدولة الآباء . فقد راقهم ارتكاب أعمال الإنتقام الخسيسة وإرهاب العرب والبطش بهم ، بعد أن وجهوا اليها الشباب المتحمسون أمثال شارون بينما أبقوا على صورتهم البريئة والطاهرة خلقياً .

اتخذ ضباط الجيش وكذلك سياسيو حزب العمال موقفاً مزدوجاً حيال شارون :

فهم قد احتراموه وخافوه في ذات الوقت . ولما غادر الجيش رغب بعض سياسيي حزب العمال أن ينضم الى صفوفهم . ويعيد الينا موقفهم هذا ، الموقف المنسوب الى الرئيس ليندون جونسون : من الخير أن تحتضن الوغد داخل الخيمة وهو يبول الى الخارج من أن يفعل ذلك بالطريقة العكسية . إنهم ارادوا شارون بمعيتهم وخافوا منه العكس في أن يخلق لهم المتاعب . بيد أن المعارضة على انضمام شارون لمخيم العمال كان لها اليد الأطول فرفضوا قبوله في صفوفهم .

اختار بيغن شارون وزيراً للزراعة في المجلس الوزاري الذي شكله عام ١٩٧٧ ، ووجد شارون الذي يمتلك مزرعة كبيرة ومزدهرة بإسرائيل نفسه مزارعاً حق ، والمح بشيء من التأكيد انه باق رجل حزب العمال ما حيا بيد أن العمال نفسه قد تغير وانجرف بعيداً عن عقيدته .

كان أمل شارون أن يتبوأ منصب وزير الدفاع ، غير أن بيغن كان متناقضاً معه أيضاً . فهو قد أطلق على شارون لقب (أعظم جنرال للشعب اليهودي منذ عهد المكابيين) الذين قاتلوا الاغريق ببسالة قبل أكثر من ألفي سنة خلت . بيد أن بيغن أوجس من الجانب الآخر خيفة من شارون ومقت بعضاً من سماته لاسيما طموحه الجموح ، وقد كشف يوماً أحد وزراء بيغن الثقة أن رئيس الوزراء قد عبر عن قلقه من أن يتسلم شارون منصب وزير الدفاع فهو لن يتردد في أن يطوق مكتب وزير الدفاع بالدبابات ويغتصب السلطة المطلقة . ويسرعة أوضح بيغن أنه كان مازحاً في قوله . . . غير أنه قليلاً ما كان يمزح .

شرع شارون بمهمة بناء المستوطنات بسرعة كأنه في هجوم عسكري خاطف ، فهو قد أنشأ بين الاعوام ١٩٧٧ - ١٩٨١ مائة مستوطنة في الضفة الغربية وقطاع غزة أغلبها صغيرة جداً في مساحتها لا تتسع الا لعشر أو عشرين عائلة ، بيد أنه دفع نسبة السكان اليهود في هذه المناطق الى الزيادة من عشرة آلاف الى خمسين ألف .

كان النظام الذي اتبعه بيغن ومن بعده شامير جداً بسيطاً ، فبفضل الدعم الحكومي المتمثل بالخوافز والمعونات يمكن توفير الإسكان الرخيص . هذه البيوت غير المكلفة الثمن التي ستشيد في المناطق المحتلة ستحوز على طلبات الأزواج الشباب الذين جاءوا من مناطق فقيرة تم تأسيسها في مرحلة الخمسينات . فلا عجب إذاً حين بدأت جموع كبيرة من الشعب تؤيد نشاطات بيغن وشامير وشارون . وقدر تعلق الامر بالمستوطنين فانهم قد أصبحوا حلقة متكاملة . فذاك حزب العمال قد أفضى بهم الى مناطق فقيرة موحشة وهذا الليكود يتشلهم منها مانحاً إياهم الفرصة الذهبية في أن جعل لهم مأوى كل باسمه الخاص .

الفصل السادس

ثورة اليهود الشرقيين الخفية

شهد التاريخ الإسرائيلي عام ١٩٦٤ أي قبل ثلاث سنوات من حرب الأيام الستة تغييراً هاماً كان في ذات الوقت تغييراً لامترياً، فللمرة الأولى في تاريخ إسرائيل فاق عدد اليهود الشرقيين (السفارديم) عدد (الأشكينايز). ولم يتم استيعاب أهمية هذا التغير الديموغرافي (الإحصائي) إلا بعد مرور عقدين من السنين وعشية ارتقاء الليكود سلم السلطة. انه صوت اليهود الشرقيين ذلك الذي غير أخيراً ميزان القوى مطيحاً بحكومة العمال رافعاً بيغن - الليكود الى عرش الحكومة. وحتى تضم على نحو أشمل تأثير التطورات الديموغرافية والعرقية على إسرائيل اليوم، يتوجب علينا ان ننزاح بعيداً عن المدينة الواسعة الصاخبة - تل أبيب - وعن سياسات السلطة في القدس ساعين نحو المصلى الكنسي الساحر الواقع في أحد المعالم الشاهقة.

توجد في الغابات القريبة من صفد التي هي البلدة المركزية لمنطقة المصلى مجموعة كبيرة من الأضرحة، ويقال أن هذه المقابر هي قبور حاخامات اليهود البارزين الذين عاشوا في العصور الوسطى وما قبلها حيث كانت أغلبية اليهود في المنفى. ويرى الكثير من اليهود الشرقيين في هذه الأضرحة أماكن مقدسة وان تكتل هذا العدد الكبير من المواقع المقدسة حوالي صفد ليس بظاهرة مدهشة ذلك ان المدينة لها علاقة وثيقة بتاريخ وظهور المذهب الصوفي (kabbalah) التي تعني حرفياً في اللغة العبرية

(استقبال) كما يمكن ترجمتها بـ (تقليد). أما النص الصوفي الرئيس فيعزى الى عالم يهودي عاش في القرن الثاني للميلاد في مدينة صفد وهي إحدى المدن اليهودية الأربعة المقدسة. وبينما يتمعن اللاهوت اليهودي الغالب في العقلانية نرى المذهب الصوفي أو (الكابالا) يرقب العالم عن كثب فيما وراء الحقيقة والعقل. انه نوع من التصوف اليهودي ذي الهدف الرئيسي بتعلم كيف يقرب المرء من الرب بود؛ أي (الشعور) به بدلاً من القيم المجردة.

وكتيجة ثانوية لهذه الصوفية يلجأ المؤمنون بها الى عزو القوى السحرية الى القبور القريبة من صفد وهم يظنون بالذي دفن فيها قديساً، وقد نشأ مفهوم القديس في القرن الثامن عشر بين اليهود الأشكناز في اوروىا الشرقية ولكن المفهوم وصل أيضاً مجتمعات السفارديم سيما أولئك الذين عاشوا في المغرب. والقديس رجل خير عرفوا عنه صراطه المستقيم وحياة تقية أخلاقياً ويساعد الفقراء والناس البسطاء ويعتقد انه يتمتع بقوى شافية.

إن العديد من هذه القبور مثل قبر الحاخام (جوناثن بن عوزيل) تقوم مقام أماكن الحج لألوف النسوة اللواتي يتمنين الزواج أو الحمل. ولا يكتفي العابدين بإقامة الصلاة بل ان يتركوا قطعة منزوعة من قماش أو يضيئون الشموع على القبر ويعتقد أيضاً أن المصلي على قبر القديس يتوسط بين الله وبين أياهه.

وغالباً ما تتحول زيارة الحج هذه الى حدث عائلي صاحب نابض بالحياة تملأه الموسيقى الصاخبة الصادرة من أجهزة التسجيل المحمولة، ويتصاعد دخان لحم الخنزير المشوي مشكلاً طبقة ثخينة تغطي هواء المنطقة، وتوفر الشروط الصحية شيء أساسي في هذه العبادات التي استحال الى مهرجانات، حيث يبيع الباعة الجوالون المأكولات والمشروبات وصور القديسين واسطوانات التسجيل وأنواع شتى من الحلوى التي تستخدم لطرد العين الشيطانية.

ويوضح عالم الآثار (ماتير بن دوف) ان عبادة القبور هي ظاهرة سابقة في الديانة اليهودية وهو يقول ان إقامة الأضرحة المقدسة والشعائر للأموات تقليدين ظهر أول الأمر في العصور الوسطى . بيد ان التقاليد التوراتية القديمة تعارض مثل هذه الممارسات . وانه ليس بتصادف ان قبر (موسى) غير معروف بالتوراة وعليه واستناداً الى التأويلات الدينية لا يحق تخليد موقع او عبادته او ان يكون مقصداً للنحجاج .

إن عبادة الموتى في الأصل طقس وثني إتبعته المسيحية والإسلام . والمسيحيون القدامى إهتموا لدرجة كبيرة ببناء كنائسهم في فلسطين في الأماكن المرتبطة بالمسيحية والأنبياء والحواريين وأشهرها جميعاً كنيسة الضريح المقدس المشيدة في القدس في القرن الرابع بعد الميلاد وبالتحديد في البقعة التي تناقلتها الروايات انها المكان الذي دفنوا فيه المسيح .

وفي القرن السابع فتح* المسلمون فلسطين على اثر ظهور النبي (نبيهم) محمد وبينما أضافوا لهم قبوراً جديدة تراهم إحترموا حرمة القبور المسيحية التي إعتقدوا ان بعضاً من ثقافتهم** قد دفن فيها . لقد تردت اليهودية بهذه الممارسات لمدى طويل معتبرة إياها أحد امارات الحضارة المتفسخة والحياة الدنيا . وكوجه من وجوه محاولة منع عبادة الموتى اعلنت غالبية الديانة اليهودية ان المقابر أماكن غير طاهرة ومطلوب لمن زارها أن يتحمل تطهيراً طقوسياً .

غير أن التقاليد اليهودية بدأت تتغير وأخذت تحاكي عبادات المسيحية وشعائر المسلمين وان تأثير المسلمين يتجلى بشكل خاص على قبور المصلين التي ينكشف عنها شبه بليغ بتصميم القبور العربية بل ان بعضها يحمل نقوشاً عربية .

* استخدم المؤلف كلمة Invade التي تعني غزا وليس فتح .

** استخدم المؤلف كلمة Saint التي تعني القس وهي مرثية دينية اقترنت بالمسيحية فقط وليس الاسلام .

وتنتشر أنماط العبادة والتعابير الصوفية على طول اسرائيل وعرضها الى الحد الذي تسلمت فيه الى كل جماعة من جماعات اليهود الشرقيين . فقد سافر في شتاء عام ١٩٩١ حاخام من بلدة جنوبي اسرائيل الى الغرب لزيارة قبور أسلافه حيث نبش العظام اليابسة لأربع جثث ووضعها في حفية دبلوماسية إعتيادية وهربها بنجاح من خلال الجمارك المغربية والفرنسية . إنه لم يكن مدفوعاً بتقليد إعتيادي إستحوذ عليه ليوحي اليه باعادة دفن البقايا الفانية لليهود بل ان هذا الحاخام اعتقد ان أولئك الرجال الأربعة كانوا قديسين وانه ببساطة أراد التقرب منهم .

وضاعت منه الحقية في اسرائيل وانهار معها عالم الحاخام بأسره مؤقتاً حتى عثروا عليها بعد حين من الزمن بعد أن تجشموا عناء بحث كبير فأعاد دفن العظام في بلدته ومن وقتها غدت القبور الأربعة (المقدسة) مكاناً شعبياً للطواف .

ويلقى الإفتتان الاسرائيلي الحديث بالصوفية والايان بالسحر صدىً واسعاً وتغيره المدهش والمتوهج كلما إنحدرنا جنوباً الى بلدة (نتيفوت) . فالذهاب اليها ليس مجرد أن تستقل سيارة وتقطع خمسين ميلاً (من تل أبيب) بل هو رحلة عبر آلة الزمن من مدينة عصرية تمتطيها حضارة القرن العشرين الى بلدة ناعسه متخلفة في صحراء النقب . ينحدر أغلب قاطني هذه البلدة من أصل يهود شرقيين من أصل مغربي وفيها بلغت نسبة البطالة عام ١٩٩٢ عشرين بالمئة أي ضعف معدل نسبة البطالة القومية وتزدهر بين سكان البلدة البالغ عددهم عشرين ألف نسمة نسبة الأمية أيضاً كما أن عدد طلبة المدارس الذين اجتازوا إمتحانات دخول الكليات أقل من خمسة عشر بالمئة وهي إحدى أوطأ نسب البلد بأسره .

إن مكاناً مثل نتيفوت بات -وياأسفاه- مرتعاً للدجالين والمشعوذين الذين يسعون لاستغلال السكان المحليين . ففي بداية الثمانينات زعم رجل يدعى (بابا باروخ) أو (ابو هتزة) وهو مقاول داهية متدين أنه (قديس) ونصب له في وسط

نتيفوت مجمعاً باعتباره ضريحاً على الحجاج أن يتوجهوا إليه . وقبل هذا التاريخ في مرحلة السبعينات كان (بابا باروخ) قد حكم عليه بالسجن لمدة ثلاث سنوات بتهمة الإحتيال ثم أصبح هذا المتهم المغامر والسياسي السابق بعد أن أطلق سراحه يهودياً (ولد من جديد) حيث أعلن نفسه وريثاً لوالده الذي كان يتمتع بسلطة دينية في المغرب حتى كان يكنى (بابا سالي) ومدعياً ان (قديسية) والده قد عادت لتجسد في روحه وجسده . وهكذا نجح بعد أن وظف اسم عائلته ان يجمع مالا أقام فيه مؤسسته الكبرى .

إن مبنى بابا باروخ أكثر شبهاً بقصر شرقي منها بكنيس (معبد يهودي) وفي ظل إدارة بابا باروخ وحفنة من أقربائه ومساعديه ازدهر مركز نتيفوت وأصبح صناعة تدر بالملايين من الدولارات . إنهم يبيعون الماء (المقدس) للمرضى وتعاويز لإبطال السحر والملصقات المكتوبة وأشرطة التسجيل وكل ما يمكن أن يذكر بعبادة بابا باروخ .

ويحضر في حزيران من كل عام عشرات الآلاف من السكان الإحتفال الخاص المقام على شرف بابا سالي وهو خليط من حفلة موسيقى البوب وسوق خيري شرق أوسطي . لقد غدت الوليمة مركز إستقطاب لكثير من السياسيين الذين لا يقوون حالاً على مقاومة فرصة الإمتزاج مع هذه الأضواء الكامنة من الناحيين . ولن يصحح لك بابا باروخ الذي نصب نفسه ولياً للعهد إن أخطأت وناديته (حاخاماً) برغم أنه لم يحظ حتى بلقب كاهن . لقد سار الإحتفال أن يكون ناجحاً مالياً حتى أضحي المصدر الأكبر لدخل البلدة المالي .

أهم نجاح بابا باروخ الكثير من غيره ليعلموا (قداستهم) وليضيفوا الجديد الى صناعة اسرائيل المزدهرة من العرافين والمنجمين والشافين والمتبصرين وكاشفي البخت . ويصر البعض منهم إن قواهم متجذرة في الكابالا ووعده هؤلاء الدجالون

بحلول لقائمه طويلة من العلل تبتدىء بعدم الإخصاب وتنتهي بأمراض العضال .
أما أجورهم فتتجاوز مئات الدولارات .

لقد تنامت هذه الظاهرة كثيراً الى الحد الذي دعت فيه عام ١٩٩١ مكتب التحقيقات الاسرائيلي الى فتح التحقيق في هذا الكسب غير المصرح به لهؤلاء الدجالين والمشغوذين وتم استدعاء الشرطة أيضاً في أحيان كثيرة بعد أن تكون جريمة ما قد وقعت . وعلى سبيل المثال إستغل أحد ممارسي هذه الشعوذة الذي إدعى انه وهب قوى شافية تقاها وجهل إحدى مريضاته فاغتصبها وآخر حكم عليه بالاعدام لتصرفه المشين وسلوكياته الجنسية البذيئة وثالث أمر عدد من طالبات المدارس الثانوية المراهقات بوضع دم حيضهن في زجاجتي بول غلامين وأقنعهن انه بمجرد عمل ذلك سوف يستطعن إيقاع الغلامين في شباك حبهن .

ويسخر رجال الثقافة الاسرائيليين ووسائل الإعلام من هذه الظاهرة وعدوها دليلاً على سذاجة اليائسين ولأن أغلب الذين يسعون وراء هذه الاستشارات هم من اصل سيفاري فقد تطور مفهوم تحاملي لما يدعى بـ (بدائية السيفاردي) . بيد أن الايمان بالقوى الخارقة للطبيعة لم يكن في كل الاحوال مقتصرأ على سكان اسرائيل من السفارديم فهناك عشرات بل مئات الألوف من اليهود الغربيين الذين يتبنون مثل هذه الخرافات . وقد تعلق الأمر بالسفارديم الاسرائيلي اليهودي الشرقي فان الإستحواذ المفاجيء والمبكر نسبياً للصوفية عليه له أثره في ضوء مضمونها الإجتماعي والتاريخي .

إذ تبني حزب العمال منذ أوائل الخمسينات حين هاجر السفارديم أول مرة الى اسرائيل قادمين من اليمن والعراق والمغرب يهود الأشكناز وهذا ما تسبب بالدفع باليهود الشرقيين الى النزول الى مرتبة المواطنين من الدرجة الثانية وأزيج بهم الى أدنى درجة من التمثيل السياسي والتجاري والعسكري . فالسيفاردم يدخر أقل مالا فهو يشغل أقل مناصب إدارية من الأشكناز ويعمل أكثر في الأعمال اليدوية قليلة الأيراد

مثل العمل في البناء أو المصانع أو المزارع . وأطفالهم أقل حظاً في التعليم فلا عجب إذاً أن تكون مجتمعاتهم منبعاً للمجرمين . كما حرم المذبح والتلفاز الاسرائيلي لفترة طويلة مضت بث الموسيقى الشرقية لا شيء سوى ان المتعجبين قد شعروا فيها طعم (الرداة) و(الحضارة المتدنية) . لقد قال بن غوريون في العام ١٩٥١ : إن المجتمع الاسرائيلي سيكون كلاً لا يتجزأ اذا ما تبوأ أحد السفارديم منصب رئيس أركان الجيش الاسرائيلي . وما زال رقاص الساعة يتأرجح .

لقد وصل أغلب المهاجرين من السفارديم الى اسرائيل من دون قادتهم بينما فضل عباقرتهم وصفوة اهليهم ورجال المال والحرف لاسيما من يهود المغرب الهجرة الى الغرب بدلاً من اسرائيل ويوسعك أن تعثر في باريس ومونتريال على لافتات لأطباء ومحامين ومصرفيين تحمل أسماء تقليدية يهودية مغربية أما في اسرائيل من الجانب الآخر وبعد سنين طوال على إكمال الهجرة الأولى لليهود المغاربة اليها فقلما ظهر اسم منهم في الأدلة الطبية أو مكاتب المحاماة أو بين رجال الأعمال . وبقي الحال يتراوح هكذا حتى مؤخراً حين وقع تغير ملموس على اثر ثورة السفارديم . إذ أخذت أعدادهم من الأطباء والمحامين والمهندسين والصحفيين بالتزايد برغم أنها مازالت قليلة نسبياً في اسرائيل اليوم .

وفوق هذا تعرض السفارديم الى التحامل والعنصرية ضدهم . وشعر دوماً أصحاب الدار من الأشكيناز انهم أعلى مقاماً من السفارديم واني مازلت أذكر موقف عائلتي المتفضل على جيراننا العراقيين كانت علاقتنا بهم جيدة ظاهرياً فكنا نحبي بعضنا البعض إذا ما التقينا عند السلام المشتركة للعمارة وتبادل الإبتسامات الرقيقة . بيد أننا كنا نصفهم دوماً ومن خلف ظهورهم بالجهاز والفظاظة .

و ذات مرة دخلت إبتهم المستشفى لأيام معدودة بعد أن حامت بين الموت والحياة لعدة لا أعرفها حتى شفيت منها أخيراً . وعند عودتها الى منزلها أقامت عائلتها

حفلة فوضاوية في المرجة المخصصة للعمارة وفيها وضعت النسوة أصابعهن على أفواههن وشرعن بالزغرودة كتعبير عن فرحتهن . وذبحت العائلة حملاً احتفاءً بالمناسبة وسال دمه على طول السلم وبقيت منه بقع في المرجة . تطلعت أسرتي لذلك المشهد من النافذة وهي مرعوبة كأنها تشاهد يوم سبت للسحرة وغصنا في تنويم مغناطيسي . لقد رأت عائلتي الحدث تؤكداً لايمانها أن جيراننا وكذلك جميع اليهود الشرقيين نموذج للتخلف الحضاري بدلاً من أن تتعامل معه على أنه جزء من طقس أجنبي . والآن وبعد ثلاثين سنة من التواجد المتجاور توقفتنا في التعارف واحترام بعضنا للبعض الآخر . ان موقف السفارديم في اسرائيل ليبن بأسى كبير كيف ان لأحد بمنجى من هذه العنصرية الكامنة بضمنهم أولئك الذين كانوا مؤخرأ أهدافا للاعتداء العنصري .

لقد تجذر الموقف السلبي حيال اليهود الشرقيين داخل المجتمع الاسرائيلي الذي وصمه بالعرقية المرافقة للوحشية وشاعت عنه الخصائص المهينة ونعتوهم بـ (خصائص وطنية) كحال اليهود المغاربة انهم جميعا (مجرمون) . وفي عام ١٩٤٩ صرح بن غوريون نفسه ان المهاجرين المغاربة (متوحشون) والواقع ان تلفظهم للعبرية قد وصفوه بـ (من الحلق وذئ نغمة عربية) .

لقد نوى التأسيس الاولي تغيير السفارديم ليواكبوا نمط الحياة فكان الصباري هو المثالي الاسرائيلي الذي ينبغي أن يحاكيه جميع الاسرائيليون واعتقدت الحكومة دوماً ان الثقافات الاجنبية ممكن إمتصاصها عن طريق التحديث وان اي فرد لا يتماشى مع خطوات عصرية الحياة وصموه بالفاشل واذا وفي اطار هذه الايديولوجية لم يتوقف أحد ليدرس الصعوبات الجمة في التفاعل والتي قاساها أولئك القادمون من ثقافات مختلفة من رأسها حتى قدميها والذين علقت اسرائيل عليهم آمالاً لرأب صدع قرون الماضي ببضعة شهور من الحاضر . كان المفهوم الاسرائيلي السائد بلشفياً بطبيعته

فمثلما بدأ السوفييت بالتصنيع عام ١٩١٧ وسبق الفلاحون الروس الى القرن العشرين جردت اسرائيل اليهود الشرقيين المهاجرين اليهم من ميراثهم الروحي ومن أملاكهم . إذ استبدلت لهم ملابسهم التقليدية بملابس خاكية اللون كثية الحال والتي كانت جد شعبية آنذاك وخدمت كزي وطني غير رسمي . واكتشف العديد من المهاجرين عند وصولهم ان كنائزهم من الكتب القديمة النادرة والمجوهرات قد (فقدت) بعد أن وجدت هذه الاشياء سبيلها بطريق أو بآخر الى حوانيت المواد التذكارية أو رفوف جامعيها وحين يصعب على مسؤولي شؤون الهجرة تلفظ اسم ما نادوا عليه باسم (أسهل) . ومن المثير للسخرية ان هذا الاسلوب ذاته قد مارسه البيروقراطية الاوربية الشرقية مع اليهود القادمين قبل قرنين او ثلاثة قرون . لقد بذلوا جهداً دؤوباً لطمس الماضي السيفاردي .

قدم أغلب اليهود الشرقيين من خلفية دينية شديدة الحرص على تقاليدها ولم تهيء لهم السلطات الدينية عند سعيها الى فطمهم عن ممارساتهم الدينية الضروريات الدينية الاساسية . لقد أرسلوا الأطفال الى مدارس دينية وجردت أقران أذان الأطفال اليمينيين .

وتبقى ثمة حادثة خاصة تبحث عن حل لها وفتأت تهيج لها الطائفة اليمينية حتى اليوم . لقد اختفى بين عام ١٩٤٩ وعام ١٩٥٠ قرابة (٣٥٠) رضيع يمني دون أي إيضاح بشأنهم . إن أولئك الرضع الذين يفترض أنهم أخذوا الى العيادات الطبية المنتشرة في البلاد لم يعودوا من (علاجهم) وأخبر الآباء ان صغارهم قد لقوا منيتهم . ولم يتضح حتى اليوم أين تكمن أماكن دفنهم بينما يصر بعض الزعماء في اسرائيل ان هؤلاء الرضع قد باعهم الأشكيناز والعوائل الاجنبية لاغراض التبني .

واسرائيل حتى وان قدمت هؤلاء السفارديم بعض الاهتمام في التعبير الديني فان ذلك لم يحصل الا بشكل تنازل أو منة . فقد قدمت منظمات اليهود الأشكيناز لأطفال

السفارديم تعليماً دينياً ولكن بأسلوب لا يقل قسرية عن الأسلوب الديني الدنيوي . فقد أجبروهم ثانية على التخلي عن ملابسهم وعاداتهم التقليدية وهذه المرة باسم الرب وليس باسم الدولة واستبدلوا لهم تقاليدهم الدينية بتقاليد الأشكيناز من أوروبا الشرقية وعليه يمكن لك ان تلتقي اليوم بالحالة الشاذة أن ترى السفارديم الارثوذكسي مكتسباً بملابس سوداء وقبعات ويتكلم اللغة اليهودية وكأنه قادم تماماً من حي يهودي في بولندا .

لقد تعامل السياسيون المتدينون منهم والدنيويون مع المهاجرين كعلف لمصالحهم السياسية وسعى المحرضون السياسيون من جميع الأحزاب للفوز بأصواتهم عن طريق الرشوة والوعود الكاذبة وكم هي الانتخابات التي حصلت في الخمسينات والستينات المشوبة بمثل هذه الإحتيالات . وشهدت اسرائيل منذ أوائل الخمسينات ظهور (أمتين) إحداهما سفاردية وأخرى أشكينازية ولم تبذل البلاد جهداً حقيقياً لتوحيد المجتمعين لسبب بسيط هو هيمنة الأشكيناز المطلقة . فقد أحجم الأشكيناز عن الزواج المتبادل وأعتبرت زواج أحد أبناءها أو بناتها من السفارديم عملاً ينم عن تمرد خطير . وأنشأت لها مدناً جديدة (نقية) أخلاقياً كما أنشأ السفارديم لهم مناطق جديدة معزولة تماماً عن مناطق الأشكيناز . لقد أرسلت الدولة بالسفارديم الى مستوطنات زراعية في تربة قاسية ومناطق أقل خصوبة من البلاد والى المناطق الجبلية قرب القدس وصحراء النقب الجرداء بينما حجزت المناطق الخصبة الواقعة على الشريط الساحلي للأشكيناز .

وحاول نفر صغير من صفوة الأشكيناز عندئذ أن يدق ناقوس الخطر على مسامع القيادة الاسرائيلية حيال التحرق ورغبة الإنتقام التي يمكن لهذا الموقف ان يطلق لها العنان . وكان أحد هؤلاء النخبة (ديفيد هاروفيتز) وهو مسؤول مالي كبير أدلى عام ١٩٤٩ بشهادة رائعة عن الحياة الأولى داخل الحكومة الفتية . ففي وقت مبكر من

ذلك العام كان يكتب ان المهاجرين الجدد (قد شكلوا نوعاً من دولة جديدة ، دولة
ثائرة تجدد فينا حكومة الأثرياء والأكثر من هذا ان موقفاً قد نما لديهم تجاهنا بأننا نحن
المتفوقون . انهم بطريقة أو باخرى يأخذون مكان العرب وهذا شيء قابل للاشتعال . .
شيء كبير جداً للسيد بيغن وحزبه . .) . لقد تضمنت كلمات هاروفيتز بذور مستقبل
اسرائيل ولعل المرء يسأل لماذا اذن أخذت الدهشة الكثير من الاسرائيليين في أيار عام
١٩٧٧ عندما انتخب مناحيم بيغن رئيساً لوزراء اسرائيل بدعم كاسح من طائفة
السفارديم؟ ولماذا اهتز كيان العديد من الاسرائيليين حتى اليوم حين شاهدوا تجمعات
اليهود السفارديم في ساحة بابا باروخ في نتيفوت أو ولعهم المتجدد بالصوفية؟ ولماذا
أخذهم على حين غرة الغضب والإحتجاج الموجه ضد المؤسسات الأشكنازية لقد
استبصر ديفيد هاروفيتز قبل ثلاث وأربعين سنة العواقب الكامنة لقمع اليهود
الشرقيين وما سلوكهم اليوم إلا رد فعل مؤجل .

وفي هذا المضمار قطعت حكومة الليكود شوطاً في طريق إعادة الإعتبار لليهود
الشرقيين فقد استعاد لهم الليكود كبرياءهم وشرفهم المفقود وعرض عليهم فرصاً
متساوية في الإقتصاد والسياسة والإجتماع وهو قد ضم في حكومته الأخيرة خمسة
وزراء من أصل شرقي بين أعضاء المجلس الوزاري العشرين ليكونوا ممثلين لليهود
الشرقيين بينما لم يكن لحزب العمال وعلى مدى فترة حكمه البالغة ثمانية وعشرين عاماً
سوى ثلاثة وزراء فقط .

واليوم متاح لك أن تشهد ظهور طبقة إجتماعية جديدة ، انها طبقة السفارديم
الوسطى أو بحسب ما أطلق عليهم الكاتب (موشي اوز) اسم (برجوازيو اليهود
الشرقيين) هنالك في اسرائيل جيل أول وجيل ثان نشأوا في هذا العالم وعاشوا حياة
رغيدة . فعلى أطراف المناطق المتاخمة لي تقام شوارع جديدة وبلغت أثمان الشقق
الجديدة حداً جنونياً تجاوز النصف مليون دولار ومع هذا يوجد لها كثير من المشترين .

ويقوم أكثر المقيمين الجدد من المناطق الفقيرة من تل أبيب المعروفة باكتظاظها بأعداد كبيرة من السكان السفارديم . ويرتدي القادمون الجدد الابناء والآباء بحسب آخر تقليعة من الملابس الباهضة الثمن والأحذية الخفيفة مثل (ريبوك والتايك) ويستقلون سيارات أنيقة وتراهم يقضون الشتاء في منتجعات التزلج ويمضون الصيف في زيارة البحيرات الايطالية .

وفي إطار سياساته الداخلية وعد بيغن (أن يعطي الشعب شيئاً طيباً) فخفض من الضرائب ومكن الطبقات الواطنة وخاصة ذات الأصل الشرقي أن تحسن مستواها المعيشي وانخفضت أسعار أجهزة التلفاز بنسبة ثلاثين بالمئة وتوفرت الكثير من الحاجيات على الفور وازدهرت أسواق تل أبيب الصغيرة لتبادل العملات كحال الاسواق المالية أو (وول ستريت) في عصر الرئيس الأمريكي رونالد ريغان وامتلك المضاربون الاسرائيليون شأنهم شأن أثرياء زملاءهم الأمريكان الزمن لصالحهم برغم انه في نطاق أصغر . ووفرت حكومات الليكود سياسة الاسواق الحرة وخفضت الضرائب وشجعت المبادرات الاقتصادية وباعت عقارات الدولة الى القطاع الخاص . واستطاع الليكود بفضل معونة أمريكية ناهزت الخمسين مليار دولار أن يتكفل من خلال سياسة دبلوماسية ناجحة برفع مستوى معيشة الحياة الاسرائيلية وكان السيفاردي الاسرائيلي المستفيد الأكبر من هذه التغيرات .

بيد أن إرتفاع سلم الحياة الاجتماعية والاقتصادية لليهود الشرقيين لم ينجح في محو إحساسهم المتلذذ بأنهم مغبونون ثقافياً وهم منكودون دوماً بشعور الأشكينااز الذين يعتبرونهم متدينين ثقافياً واجتماعياً وقلوبهم محملة بنذب جروح آباءهم ومعاناة تجاربهم "خبروها . وهاهم اليوم يعودون غير هيايين الى فولكلورهم وجذرهم الحضارية جبات طعامهم المتميزة وموسيقاهم وميراثهم . إن الجزء الذي لا يتجزأ من لليهود الشرقيين هو الطريقة التي يعبر فيها حتى أولئك الذين لا يعيشون حياة

ارثودكسية عن شعورهم الديني في كل وجه تقريبا من وجوه تجربتهم اليومية . وانهم بطريقتهم هذه قد ساهموا في رفع التعبير الديني اسرائيل اليوم . وهذا النوع من العبادة يتناقض على نحو مباشر مع يهودية الأشكناز التي يتجلى فيها واضحاً الفارق بين الارثودكسية والنشاط غير الديني .

الفصل السابع

نحن نثق بالله

((إقطع!)) ، أصدر الجاحام أمره فأطاع الدفانون بسرعة . ففي يوم ربيعي متعش من أيام نيسان عام ١٩٩١ تم تنفيذ أحد أكثر الطقوس غرابة في تاريخ اليهودية . لقد نزع الدفانون القلفة المقيية من جثة .

لقد بدأت القصة كلها قبل يوم واحد حين كان الكسندر ياسوف وهو مهندس معماري مما كان يعرف بالإتحاد السوفيتي ومهاجر جديد الى إسرائيل مسافر الى تل أبيب يحدوه طموحاً عظيماً . لم يفلح ياسوف شأنه شأن أغلب المهاجرين في الحصول على مهنة . وفي (نهاريا) تلك المدينة الساحلية الناعسة الصغيرة كانت سوق العمل غير متوفرة تقريباً . وإذا رحل الى تل أبيب المزدهمة وهناك وبعد عناء بحث حالفه الحظ وعثر على فرصة عمل . وبينما شرع المهاجر السعيد ذو الأربعة وثلاثين عاماً يعبر أحد شوارع تل أبيب المزدهمة دهسته سيارة وقتلته . بعدها أخذت جثته الى نهاريا ليدفن في مقبرتها .

ولكل مقبرة في إسرائيل ملحق مغلق يعرف بـ (بيت التطهير) وفيه تعرى الجثة حسب التقليد اليهودي أو تغسل بالماء ثم تغطى بكفن قبل مواراتها . ويعكس المسيح يدفن اليهود موتاهم في الأرض بدون تابوت وهذا يتطابق مع الشعر في (سفر التكوين) ، ((من التراب خلقتكم والى التراب ترجعون)).

ان البساطة الجمالية هي أحد خصائص اليهود. إلا أن اليهود الإسرائيليين غير ذواقين الى حد كبير. فعلى الدوام يلبس الدفانون ملابس رثة تاركين للحزاني شعوراً غير طيب بأنهم قد شاركوا لتوهم في عملية دفن غير كريمة. بيد أن الإسرائيليين الدنيويين لا يملكون خياراً على أية حال. فللمؤسسة الدينية اليد العليا على جميع المقابر وجميع الخدمات الدينية لذلك الغرض.

حين كانت جثة ياسوف تنتظر دورها لطقس التطهير إكتشف الدفانون أنه لم يكن محتوناً وحين هالهم المنظر لم يستطيعوا أن يقيموا له دفناً يهودياً وهو في هذه الحالة وهكذا قرروا أن يجروا الختان (وهو الطقس اليهودي الذي يخضع له كل ذكر بعمر ٨ أيام). يرمز هذا الطقس الى دخول الطفل ساحة الايمان والأمة طبعاً وتذكراً للعهد الذي قطعه إبراهيم مع ربه.

تمثل هذه الحكاية الفظيعة مجرد مثال بسيط على سلطة الدوائر الدينية والارثوذكسية وفي الواقع ان إسرائيل إحدى الدول القليلة في العالم الغربي التي لاتعرف متصلاً حقيقياً بين الكنيسة -أو الكنيس- والدولة ولعل الحضور القوي للدين يعطي الإنطباع ان إسرائيل قد أصبحت بلداً مثل إيران يسيطر عليه ويديره المتطرفون ومع انها محاولة لإجراء مثل هذا التوافق بينهما فانها الصورة المبسطة جداً لإسرائيل فحقيقة إسرائيل حيث الدولة والدين مشدودان بعقيدة غوردديوس، هي حقيقة معقدة تتطلب فهماً لما حصل في السابق وفوق هذا هي مشكلة لاتقتصر حدودها على قضايا المجتمع والدولة غير الدينية من جهة والدين من جهة ثانية، بل أنها ترتد في الواقع الى الوراثة الى أسئلة عويصة تتعلق بالإسرائيليين والهوية اليهودية ومفاهيم وتعريف الوطنية والإصلاح والدولة.

كما سيكون العمل ناقصاً أيضاً لو أوحينا باللائمة فقط على التحالف الذي شكله بيغن والليكود مع الأحزاب الدينية لظهور هذه الحقيقة. فبرغم أن هذا التحالف بين

الجناح اليميني والسياسيين الاكليريكيين قد حوفظ عليه جيداً ومارس وظيفته على نحو منسجم تماماً منذ عام ١٩٧٧ ، فإن الليكود قد سجل بحق لنفسه سبقاً أنه حزب العمل الذي أرسى دعائم العلاقات الخاصة بين الصهيونية غير الدينية والدين .

وباتجاه نهاية القرن التاسع عشر ، اعتبرت الصهيونية حين بدأت بالظهور حركة منشقة ليس فقط من طرف حاخامات مدن أكوخ اليهود في أوروبا الشرقية بل كذلك من طرف أوروبا الغربية والولايات المتحدة . وقد رأت فيها المؤسسة الدينية شيئاً ينطوي على الخطيئة برغم ان اليهود شكلوها لصالحهم . فأولاً عارضت الارثوذكسية أي تأثير غير ديني أو عصري . وعلاوة على ذلك وجد الحاخامات في الصهيونية تحد غير مرغوب به لزعامتهم وسلطتهم والتي هدفت الى استبدال اليهودية بنمط حديث وديني من الدين . والأسوأ من هذا وذاك ان الحاخامات اعتبروا ان الصهيونية هي المسيحية عينها .

إن أحد أكثر الفروق بروزاً بين المسيحية واليهودية هو ذلك الذي يتعلق بقضية المسيح . فالمسيحيون يعتقدون ان يسوع المسيح كان متقدمهم بينما لما يزل اليهود يترقبون قدوم موعودهم المخلص . وبحسب المعتقد اليهودي سوف يصل المخلص فقط عندما تجد العناية الالهية ان الظروف مواتية . ولا يمكن أن يتخذ مثل هذا القرار إلا في السماء وليس في الأرض على أيدي الفانين المجردين . ويقال أن يسوع سيصل (في نهاية الأيام) . وهكذا أمل اليهود على طول تاريخهم بقدومه بيد أنهم لم يتوقعوه مطلقاً . فاليهود أرادوه وخافوه على السواء . فدوره هو أن يأتي بالأمل الى حياتهم اليومية التعيسة وليضيف بعداً مثالياً وروحياً لحياتهم المقبوضة في الديسبورة .

ومع ذلك يشتمل التاريخ اليهودي على حوادث متفرقة حصل فيها أن أظل الأمل المجرد طريقه واتجه صوب الأوهام المؤقتة من الواقع . وبدا أن مزيج التطلع الى جبل صهيون واليأس الملموس بين صفوف الشعب اليهودي قد أفضى الى إنتاج سلسلة من

أعلنوا انهم المسيح . وهذه هي الطريقة التي يرى اليهود من خلالها المسيح . فالإنقاذ المسيحي قد حفز في القرن الأول على الثورة ضد الإمبراطورية الرومانية . وفي سنة ١٦٦٥ امتلك (شابتاي زفي) وهو نجل تاجر تركي غني رؤيا مساوية أدت به الى أن ينصب نفسه مسيحاً . وجرب وقائعا للشعور غير السوي بالقوة والنشاط المفرط والنشوة والتي تناوبت مع الإنهيارات التي هبطت بالبلاد الى هوة سحيقة . ولعل أي طبيب نفسي سيشخص حالته . غير أنه على الأرجح كان دجالاً ساحراً ولزملائه كان رجلاً موهوباً ذا طاقات غير عادية واستحوذ على خيال الكثير من يهود اوربا الشرقية ووعد أن يعيد اليهم مجد الأمة اليهودية ويقود اليهود ثانية الى أرض الأجداد . وعلى الفور رحبوا به باعتباره المسيح ومنحوه أموالهم وجواهرهم أما هو فقد خدعهم وأذلم بقسوة . ثم قبضت عليه محكمة السلطنة التركية هو وحاشيته . وبعد أن خيرته المحكمة بين الموت أو أن يتحول الى الإسلام إختار الإسلام وارتدى عمامه وغير اسمه الى (محمد أفندي عزيز) وعاش بقية عمره على تقاعد عسكري .

لقد أحدث إنقلاب شابتاي زفي الى الإسلام وانهار حركته هزة عنيفة لليهود في جميع أنحاء العالم وأدت بهم الى اتخاذ موقف الريبة من أي فرد ينصب نفسه مسيحاً مستقبلاً . كانت الصهيونية للأرثوذكسية عند نهاية القرن التاسع عشر مجرد إعادة لفاجعة شابتاي زفي وحقيقة ان القيادة الصهيونية قد حركتها العقلانية الصائبة فانها قد تجردت من أي عناصر صوفية للمسيحية . بيد أن الصهيونية قد جعلت من أمة يسوع أمة غير دينية بعد أن توصلت الى حقيقة أن التدخل الإنساني هو الذي سينقذ شعب اليهود ولايتوجب على اليهود بعد اليوم أن يترقبوا معجزة مساوية . لقد إختطفوا المسيح لأغراضهم السياسية غير الدينية وأفرغوه من محتواه الديني . أما الحاخامات فقد وجدوا هذا المفهوم الصهيوني الذي إدعى انه يعرف ما أراده الرب أمراً لا يغتفر . ان عليهم إدانته ورفضه .

ومع دوران عجلة الزمن خفت المعارضة الأرثوذكسية للصهيونية ويمكن تشخيص ثلاثة تطورات مهمة في موقف الأرثوذكسية الدينية نحو الصهيونية غير الدينية، وقد غدت هذه الاتجاهات الثلاثة وعلى نطاق واسع جزءاً لا يتجزأ من العلاقة المعقدة بين الدين والصهيونية ودولة إسرائيل.

كان الموقف الأول في جوهره رفضاً للصهيونية بسبب تدخلها بالمنخطط السماوي للإيفاء بالميعاد. هذه الفلسفة وأتباعها يرون في الصهيونية ودولة إسرائيل كقوة شريرة تفسد اليهودية التقليدية، واليوم أنزلت هذه المدرسة الفكرية إلى غيم ديني واحد في إسرائيل وما تبقى من هؤلاء المؤيدين يمكن إيجادهم في غيم صغير في القدس تراقبه إسرائيل باهتمام بالغ ويزوره الأجانب كمركز جذب سياحي. تسمى هذه المقاطعة بـ (رمي شيريم) أو (المئة بوابة) ويسكنها اليهود المغالين في الأرثوذكسية والمعروفين باسم (تيوتري كاترا) أو (حراس السور). ولكلمة (سور) معنى مزدوجاً، فهي تشير إلى أسوار مدينة القدس وتحتل بالمعنى المجازي السور الذي يشكله هؤلاء الناس كحملة مشاعل اليهودية التقليدية. وهؤلاء الذين يرتدون ملابس سوداء طويلة ليهود أحياء الغيتو يعتبرون الصهيونية ودولة إسرائيل إنحرافاً خطيراً. وموقفهم تجاه إسرائيل هو: لا نريد عسلكم ولا نريد لسعاتكم، إننا لا نريد خدماتكم ولستنا مدينين لكم بشيء. وهم يرفضون دفع الضرائب ولا يسمحون لجباتها في القدس بدخول أراضيهم. ويحرقون العلم الإسرائيلي ولا يرددون النشيد الوطني. وهم مؤيدون لمطلب العرب بـ (إبادة الكيان الصهيوني). وقد انضم ممثلهم في مؤتمر السلام الذي عقد في مدريد في تشرين الأول عام ١٩٩١ إلى الوفد الفلسطيني.

أما الموقف الثاني فيقف على طرف نقيض من الأول وأدى إلى نشوء فرع وطني ديني للصهيونية. لقد تولد هذا الموقف حول جماعة سياسية عرفت باسم (ميزارحي) وهي التسمية العبرية المرادفة لـ (المركز الروحي). ويتألف أعضاء المجموعة من

اليهود المتدينين بيد أنهم ساعدوا الحركة الصهيونية سياسياً ولا يوجد حسب رأيهم أي تعارض بين الصهيونية والدين، بل على النقيض من ذلك تؤمن الميزارحي أن الصهيونية هي تحقيق لعملية الخلاص. ويجادل غالبية أعضاء الميزارحي أن (الخلاص الأكبر) عملية متروك شأنها ليسوع إلا أن الصهيونية تساهم في تحقيق هذا الخلاص ولكن على نطاق أصغر. ويحقق اليهود ذاتهم بذاتهم في الحياة اليومية داخل أرض إسرائيل. بينما ذهبت أقلية منهم يقودهم الحاخام كوك، الأب والإبن، إلى أبعد من ذلك حين احتضنوا بكل أفئدتهم الصهيونية لدوافع دينية-إيديولوجية واعتقدوا- بكل جلافة- أن الصهاينة هم (يد الله) التي تنفذ المهمة السماوية لتقريب موعد الخلاص. وانهم بهجرتهم إلى إسرائيل واستيطانهم وبنائهم تلك الأرض وتشكيلهم جيشاً لحمايتها إنما يساعدون على نحو غير متعمد عمل الله الذي سوف يتوج في (الخلاص الأكبر). ويرى كوك وصحبه أن على المتدينين ليس الوقوف بجانب الصهيونية فحسب بل أن ينخرطوا في المغامرة الصهيونية. أما وقد وصل الصهاينة المتدينون هذا الحد فانهم شرعوا بإقامة المزارع الجماعية والتجمعات الريفية وأمسوا جميعاً رواداً مثلهم كمثل اشتراكي بن غوريون. فأعتقوا أنفسهم من ملابس أحياء الغيتو وأكواخ المدن اليهودية واكتسوا بزي رفاقهم الإشتراكيين باستثناء قبعة الرأس الصغيرة التي بقيت الدلالة الخارجية الوحيدة التي تميزهم.

ونخفضت الإستجابة الثالثة للصهيونية عن تشكيل (أغودات إسرائيل) وهي الكلمة العبرية لـ (اتحاد إسرائيل) وهي منظمة شاملة سعت صوب إيقاف إنتشار الصهيونية والأرثوذكسية اليهودية وكانت في واقع الحال عبارة عن خليط وتسوية بين الموقفين الدينيين الآخرين تجاه الصهيونية. لقد رفضت عقائدياً الصهيونية بيد أنها أيدت إنجازاتها السياسية والتنظيمية وتوافق رفضها الإيديولوجي هذا مع مبدأ الإذعان الواقعي أو الذرائعي: إذا كنت أعجز من أن تصرعهم وراغباً عن أن تنضم إلى ركبهم فعليك أن تقبلهم وذلك أضعف الإيحاء.

ولما بلغت الصهيونية الدنيوية أفضل حال لها في أعقاب المذبحة وعشية الإستقلال الإسرائيلي توصل بن غوريون وحركته العمالية والصهيونية الدينية وإتحاد إسرائيل الى تفاهم صريح بينهم أيضاً إستند على مفهوم (واقع الحال) . نشأ هذا المفهوم في الرسالة التي وجهها بن غوريون و(ميزراحي) زعيم إتحاد إسرائيل عام ١٩٤٧ الى الشعب اليهودي وتعهدا فيها أن الظرف الديني للسكان لن يمسه سوء في ظل الدولة الجديدة . لقد أراد بن غوريون من وراء هذه الرسالة أن يترك إنطباعاً لدى الإنجليز والعرب معاً أن وراءه يقف الشعب اليهودي وأنه فقط أراد أن يؤمن دعم الأحزاب الدينية الى حركته العمالية وهكذا تشكل إتحاد سياسي إستمر لثلاثين سنة أي حتى انتخابات عام ١٩٧٧ .

وافق بن غوريون والأحزاب الدينية بعد ولادة دولة إسرائيل على ترجمات واسعة النطاق لضمون رسالة عام ١٩٤٧ . فقد حصلت الأحزاب الدينية على كامل الحرية للعمل وفق مشيئتها كوسيط داخل عرض البلاد وطولها وقدر تعلق الأمر بالدولة والدين . وكان أكبر تنازل قدمه بن غوريون لهذه الأحزاب هو مجال التعليم . فبينما تفككت الشبكة التعليمية لحركة العمال وحل محلها نظام جديد من التعليم غير الديني الموحد وجد ميزراحي وإتحاد إسرائيل لنفسيهما متنفساً كاملاً ليديروا أنظمتها التعليمية المستقلة بالطريقة التي يشاؤون .

لقد تم إختيار يوم السبت ومنذ اليوم الأول للإستقلال كعطلة رسمية للبلاد وفيه تتوقف تقريباً كامل نشاطات الدولة اليهودية باستثناء العمل في محطات الطاقة وفي المطارات ومحطات الإتصال التي يتقلص فيها أيضاً العمل الى أدنى حد له ، كما تتوقف حركة السير تماماً وتقتصر على ذوي العجلات الخصوصية . ووافق بن غوريون على أن تغلق يوم السبت جميع المطاعم والمسارح ودور السينما وجميع وسائل الترفيه الأخرى أبوابها باستثناء المطاعم التي تباع الطعام المباح في الشريعة اليهودية .

كان قرار بن غوريون إعفاء عدد ضيق من الطلبة الدارسين في المعاهد اللاهوتية اليهودية من الخدمة العسكرية من أكثر القرارات إثارة للجدل إذ لم يتجاوز بادیء الأمر أعداد هؤلاء الطلاب الذين أطلقت عليهم العبرية اسم (ياشيفاز) وتعني (الطلبة القاعدين) الأربعمئة طالب من الذين استفادوا من هذا الإمتياز، ثم تزايد هذا الرقم كثيراً على مدى السنوات. لقد أحدث بن غوريون وحزب العمال بموافقتها على هذا القرار شرخاً بين صنفی طلبة التعليم العالي في إسرائيل: أولئك الذين يتوجب عليهم الخدمة كمجندين في القوات المسلحة لثلاث سنوات و أولئك المستثنين من خدمة العلم.

وقد وهبت الحكومة أيضاً منحاً مالية الى الأحزاب السياسية إذ أصدرت الحكومة أوامرها عام ١٩٦٦ الى محافظ البنك المركزي أن يمنح اجازة الى إتحاد إسرائيل بفتح حساب مصرفي خاص به. لقد منحت هذه الصفقات الخاصة للأحزاب الدينية البلاد متنفساً سياسياً واستقراراً وضماناً لحكم حزب العمال في ذات الوقت بيد أنها قوبلت البلاد في نمط خاص جعل منها حتى هذا اليوم بلداً يناضل ضد كثير من تناقضاته ومشاكل التعريف بهويته.

ليس لدولة إسرائيل أي دستور وهي لم تعرف لحد الآن بحدودها وعليه فإنها تجد صعوبة في التعريف بمواطنيها. إن مصدر السلطة الشرعية الرئيس للبلاد هو إعلان الإستقلال في أيار عام ١٩٤٨ وقد كشف (زيفي بيرتسون) قاضي المحكمة الإسرائيلية العليا السابق وأحد الذين صاغوا هذا الإعلان ان صياغة الإعلان قد تمت في سرعة شديدة لم تتجاوز اليومين وتحت ظروف في غاية الصعوبة (لم أكن قادراً أن أستقي المعلومات الضرورية وأن أراجع أي دستور أو إعلان لأية أمة أخرى). ومع هذا يبقى نموذج الإعلان طيباً ويستند الى الحكمة والمنطق.

كان غياب الترسيم الواضح لحدود إسرائيل في أي بند من بنود إعلان الإستقلال

غياباً متعمداً. فقد طلب معدوا مسودة الإعلان من بن غوريون تحديد حدود إسرائيل استناداً الى خطة التقسيم التي أعلنتها الأمم المتحدة عام ١٩٤٧ وأصروا ان بقاء الحدود هكذا يتعارض والمبادئ القانونية وسيضع إسرائيل أمام عقبة كأداء في علاقاتها مع بقية العالم. بيد أن بن غوريون رفض المقترح لسيين. أولها انه خشي المعارضة الدينية إذ يؤمن رجال الدين ان حدود إسرائيل يجب أن تتوافق والحدود التي وعد الله فيها إبراهيم. وثانيهما ان بن غوريون كان واثقاً من ان الحدود ستتغير بعد الحرب مع العرب التي توقع انها وشيكة الحدوث، وهذا ما حصل فعلاً ووسعت إسرائيل من حدودها بضع مرات وهو ما أكد المزاغم العربية ان إسرائيل تمارس سياسة توسعية منذ عهد صباها الأول.

إن افتقار البلاد للدستور ليؤكد حقيقة الاختلاف بين بن غوريون وبين الأحزاب الدينية التي أصرت دوماً على ان إسرائيل إن أرادت لها دستوراً فعليها الرجوع الى شرائع التوراة والى المخطوطات القديمة والمعقدة لشريعة الـ (هالاكا) التي طورها الحاخامات على مدى ألفي عام من النفي. رفض بن غوريون ومؤيدوه الذين تصوروا إسرائيل بلداً ديمقراطياً غير ديني الموافقة على دستور ديني سيحيل البلاد الى حكومة كهنة وعليه وجدوا ان من الأفضل لإسرائيل أن لاتقرر. ومنذ حينها والبلاد تعيش بين آونة وأخرى موجة احتجاج تتضمن الحاجة الى تشريع دستور مناسب يضمن عدم وقوع أي انتهاك لحقوق الانسان المدنية وهو أمر لم يتشاطر فيه الشرعون الرأي ان الدولة الديمقراطية الحديثة بحاجة الى دستور يرمي حقوق وحرريات أفرادها. فاذا كانت الولايات المتحدة وفرنسا تقدمان لنا مثلين رائعين عن مدى فعالية الدستور في هذا السياق فتلك هي جنوب أفريقيا وسوريا اللتان تملكان دستوراً عجز أن يجد من القمع الذي يتفشى فيها ثم ان هناك بريطانيا التي لا تملك دستوراً بيد أنها بلد متقدم ويلتزم باللوائح والقوانين التي تضمن حقوق الأفراد. لقد جاء في إعلان الاستقلال أن الأقليات في إسرائيل لن تكون عرضة لأي شكل من أشكال التمييز العنصري

وستمتع بحريات كاملة ومتساوية: حرية التعبير الديني والتعليم وياقي الحريات الأخرى ذات الطبيعة المدنية والديمقراطية. ثم أن إسرائيل لا تملك ديناً رسمياً للبلاد وسمح القانون الإسرائيلي للطوائف الدينية أن تمارس تقاليدها وتطبق قوانينها الشرعية الخاصة في الزواج وعليه يجد اليهود لهم المحاكم الحبرية والمسلمون محاكم الشريعة وكذلك للمسيحيين الحق في الرجوع الى القانون الديني الذي يتوافق وطائفتهم. بيد أن الإعلان صرح بوضوح أن إسرائيل هي دولة اليهود.

يعتقد القاضي (بيرتسون) ان مؤسسي إسرائيل لم تكن لديهم أية نية في أن تكون دولتهم ذات صبغة دينية مستنداً في هذا الرأي على تحليله أنك لن تجد الصفة (دينية) لتظهر ولو لمرة واحدة مترابطة مع عبارة (الدولة اليهودية). بيد أن إسرائيل لأي غرض أو هدف أنى كان هي الدولة الصهيونية اليهودية: وفيها يتزين العلم الأزرق والأبيض بنجمة داوود. والأكثر أهمية من ذلك أن (أبواب دولة إسرائيل ستكون مفتوحة أمام الهجرة إليها) وقد تعزز هذا الحق عام ١٩٥٠ مع إصدار (قانون العودة) الذي يمنح إمتيازاً لليهود المشردين (يهود الديسبورة) أن يفدوا إسرائيل ومذ حينها بات بإمكان أي يهودي يختار أن يكون إسرائيلياً أن يحمل جواز سفر كمواطن إسرائيلي. لقد إقتصر قانون العودة على اليهود فقط. لقد زرع قانون العودة بذرة الشك لدى كثير من العرب والغرب حيال إسرائيل وسياساتها الجماعية. وفي واقع الحال ان نظام القانون الإسرائيلي اذا ما استثنينا قانون العودة لا يشير في اي مكان آخر الى كلمة اليهود فقط. ومع هذا يبقى هناك كثير من المنافذ داخل لغة القوانين الإسرائيلية التي يمكن تمييزها ضد الأقلية العربية وهو ما أوجد حالة مستمرة من عدم التساوي برغم الجهود المتواصلة لايجاد حالة من المساواة والعدالة ولنع التمييز القائم على أساس الدين أو الجنس أو العرقية أو الأصل القومي.

يتنامى هذا الموقف في هوية البطاقة الشخصية الإسرائيلية (التي يحملها جميع

المواطنين) حيث تدرج فيها كلمة (الديانة) تحت حقن (القومية). وتلك طريقة بسيطة وسهلة ابتدعها بن غوريون ومستشاروه للتمييز بين اليهود والأقلية من العرب الذين بقوا داخل حدود إسرائيل بعد حرب ١٩٤٨ فهم قد شعروا ان هذا سيمسح الصبغة اليهودية من على دولة إسرائيل. وعليه يمكن القول أن رغبة بن غوريون الجامعة لتهدأة العاطفة الدينية ممزوج معها مخاوفه الأمنية قد أفضيتا الى تسجيل الهوية التي فرقت بين الإسرائيليين العرب وبين الإسرائيليين اليهود. لقد أدى هذا الإرباك الى حالات شواذ مستعصية وغموض شرعي يستحق الغيث له. إذ يمكن أن يكون الإسرائيلي منسوباً الى طائفتين دينيتين في ذات الوقت: فالولد من أب مسلم (تتبع ديانة الإبن في الاسلام ديانة أبيه) ومن أم يهودية (ويتبع الإبن في اليهودية ديانة أمه) سينضوي في هذه الحالة تحت لوائي طائفتين دينيتين. أما سيء الطالع الإبن القادم من أم مسلمة وأب يهودي فلن يجد له ديناً في أي من الديانتين. فلاعجب اذاً أن يواجه الإسرائيليون مشاكل خطيرة تتعلق بهويتهم. لقد أحدث التوتر العويص بين الأغلبية غير الدينية والأقلية الدينية قضايا عميقة رفضت القيادة الإسرائيلية مواجهتها.

فمن تكون إسرائيل؟ فلو كانت هي الدولة التي يقطنها الإسرائيليون فلم لا يعكس النظام هذا الحال إذا؟ أهى دولة اليهود أم دولة للشعب اليهودي؟ ولو كان الأمر كذلك فلم يعيش معظم اليهود خارج إسرائيل؟ ولو كنا نحن يهوداً في دولة اليهود فبأي حال نختلف عن يهود نيويورك ولندن وموسكو؟ وماذا بشأن غير اليهود الذين يتخذون من إسرائيل مسكناً؟ وماذا بشأن قوميتهم ووضعهم؟ إن السؤال الأكثر تردداً هو من هم الإسرائيليون؟ وهل ثمة شيء اسمه إسرائيلي؟ وأخيراً ماذا يعني أن تكون يهودياً؟ هل اليهودية دين أم قومية؟ هل يمكن لها أن تكون كلا الشئين في عين الوقت؟ لا يوجد جواب قاطع لهذه التساؤلات.

إن المحاولة الأكثر إمتاعاً ومنطقية لتسوية هذه التناقضات والمشاكل هي تلك

التي قامت بها مجموعة صغيرة ومؤثرة تعرف بالكنعانيين تألف معظم أفرادها من رجال المنطق والكتاب والفنانين. ظهرت ايدىولوجية الكنعانيين الى حيز الوجود مطلع الثلاثينات من هذا القرن (برغم ان الاسم مذكور في التوراة) بعد أن تجلى ان الصهيونية أخذت بجر نفسها من ماضي اليهود وتقاليدهم ودينهم لقد رأت الكنعانية في الصهيونية حركة انبعاث وطني بيد انها (أي الصهيونية) رفضت على نحو فاعل الديانة اليهودية. بعد أن وجدت فيها الجذر لكل فساد وشيطانية المجتمع اليهودي. كان (أدولف كوريفيتش) المنظر الأول لهذه الحركة وهو يهودي روسي درس اللغات السامية والتاريخ في جامعة السوربون في باريس وقسم وقته بين فلسطين والولايات المتحدة. حصل كوريفيتش الذي غير اسمه الى اسم عبري هو (غورهورون) على نفر قليل من الأتباع لنشر رسالته كان أبرزهم الشاعر (جوناثان راتوش).

ولد راتوش في بولندا سنة ١٩٠٩ باسم (يوريل هالبرت) وهاجر الى إسرائيل يافعاً مع والديه. ومن حينها واصل دراسته باللغة العبرية التي استخدمها بشكل مفرط ليتخلص من لغته الأم البولندية والييدية. وتتنسب اليه كثير من المفردات العبرية الأصلية وكان الشعر هو موهبته الخلاقة والذي شدد كثيراً على الجنس والشهوة الجسدية. بقيت كتاباته مهملة لم يسلم بها حتى وقت متأخر من حياته ولربما بعد مماته عام ١٩٨١. لقد نال معظم شهرته من طراز حياته المؤمن بمذهب المتعة الجسدية وهو سكير أمضى معظم وقته يتسكع بين مقاهي تل أبيب ولعن المؤسسات الأدبية التي رفضته. أسس راتوش عام ١٩٤٢ حركة الشباب اليهود التي سخرت من الديانة اليهودية وتقاليدها ومن اللغة الييدية. وقد تكلم معظمهم العبرية من (الحلق) ليتقاربوا بذلك كثيراً من أجدادهم القدامى برغم أن معظمهم قد جاء من اوربا الشرقية وشعروا بتوق كبير الى الاسطورة الرمزية سيما تلك التي تمثل القوة والطبيعة وعلاقة الانسان بالروح وصور رساموهم ونحاتوهم أفكاراً عن الزراعة والصيد وآلهة الكنعانيين الأوائل وطقوسهم. واستخدم شعراؤهم وكتابهم الكثير من الصور

التوراتية وطوروا رؤية عاطفية وتجريدية للمكان وأرضهم الأم وجسدوا حضارات البحر المتوسط أحسن تجسيد وأكدوا على التوافق بين الانسان والطبيعة وعارضوا ما وصفوه بالهاجس الصهيوني-الإسرائيلي في البناء والإستيطان وامتلاك الطبيعة .

كانت الحركة عبارة عن مجموعة صغيرة ليس لها أي مورد مالي ومع هذا خشيت لها الصهيونية السائدة تأثيرها على الشباب الإسرائيلي وعليه صورت الصهيونية هذه الحركة في مسعاها للحط من شأنها بأنها مجموعة من الحمقى الفاسقين الفاجرين شرعت تقوم بطقوس عريضة على هيئة عبادة وثنية قديمة . وقد أطلق عليهم خصومهم للسخرية اسم (الكتنانيين) .

لقد وجد راتوش وأصدقائه ان الصهيونية هي عينها اليهودية وأصروا على الفارق بين (اليهودي) الديسبورة وبين الشخص الذي عاش في أرض إسرائيل . إن ما تخيلته الكتنانية هو ليس دولة يهودية بل دولة عبرية تنهض لتعيد أيام العصر الذهبي للعبرانية القديمة ، ان على الدولة العبرية الجديدة أن تتطلع لتغدو جزءاً من منطقة الشرق الأوسط وأن تمد جذورها في هذه المنطقة بدلاً من أن تقيم روابط مصطنعة مع الحضارة الاوربية . فالعبرية القديمة كانت جزءاً من الحضارة الكتنانية المحيطة بها ومن هناك حيث غزت الأرض كان الهدف من إسرائيل أن تجسد الثالوث الحقيقي المؤلف من اللغة العبرانية والأمة اليهودية وأرض اليهود كبديل للتركيب المغلوط عن اللسان العبري والشعب اليهودي وقدر الصهيونية . ان على الأمة اليهودية طبقاً لعقيدية الكتنانية أن تكون ذات هوية واضحة وقاعدة أرضية ووحدة لغوية وحضارية . واذن يمكن ايجاز مسعاها بتأسيس دولة تتمتع بالمبادئ العصرية لدولة الأمة وفيها تتوافق الأرض مع المواطنة مع العرقية ، بيد انهم فشلوا . فالكتنانية لم تنجح قط ان تزرع لها جذراً داخل المجتمع الإسرائيلي برغم انها تجشمت عناءً كبيراً . فهاهو واقع الحال السياسي الذي بشر فيه التحالف بين العمال والأحزاب الدينية قد

وضع حجر عشرة أمام أية مبادرة لكسر الطوق المتعلق حول قضايا الهوية الإسرائيلية-اليهودية.

وبرغم أن واقع الحال قد شكل عقبة كأداء ومرض عضال فإن عشرات الطرق قد ابتدعت لتراوغ حول الحدود التي وضعها المتدينون بوجه الدنيويين الإسرائيليين . وفي حقيقة الأمر وجد هذا الخيار البديل لواقع الحال أو ذاك نفسه جزءاً من واقع الحال . فمثلاً سمح القانون الإسرائيلي لسيارات الأجرة الخاصة وسيارات الأجرة العمومية فقط بنقل المسافرين بين مدينة وأخرى يوم السبت كما يمكن إقامة مباريات كرة القدم أو باقي أنواع الرياضة في هذا اليوم بينما تعلق كافة وسائل الترفيه الأخرى ويطلق على المشجعين الذين يتجهون بسياراتهم صوب ملاعب الكرة اسم (المدنسين لقدسية يوم السبت) وتفتح الشواطئ الساحلية أبوابها في يوم السبت من كل صيف أمام مئات الألوف من السباحين .

وبرغم أن الزواج المدني نادراً ما حصل في دولة إسرائيل فإن المحاكم غير الدينية التي لها اليد العليا في المحاكم الدينية قد أصدرت تعليماتها الى وزارة الداخلية (التي تحكمها الأحزاب الدينية) للإعتراف وتسجيل الزوجين اللذين أتما مراسم زواجهما المدني خارج إسرائيل . ولم تشهد إسرائيل صراعاً مفتوحاً بين الطائفتين الدينية وغير الدينية إلا قليلاً حتى مطلع عام ١٩٦٧ . ومع هذا فإن معظم أزمات مجلس الوزراء لتلك الفترة كانت جذورها تتعلق بقضايا دينية أو لنقل ان الأحزاب الدينية لم تكن راضية عن سياسات الحكومة وقد تمثلت مخاوفهم في الثقافة الدينية ولدعم المؤسسات الدينية وفوق هذا وذاك السؤال من هو اليهودي؟ .

وفي إجابتهم عن هذا السؤال طالبت الأحزاب الدينية أن يمنح قانون الهجرة وسجل الأحوال المدنية لقب (يهودي) لمن ولدته أم يهودية أو لمن تحول إليها وفق شريعة (هالاكا) . التي تعمل كمصطلح شفري لتمييز أولئك الذين تحولوا الى

اليهودية على يد حاخام ارثوذكسي . كانت في إسرائيل مؤسسة دينية واحدة هي الحبرية الأرثوذكسية . هذه الأحزاب الدينية وجدت الأمر لا يطاق أن تعترف دولة إسرائيل بالتحويلية التي يجريها الحاخامات المحافظون والإصلاحيون خارج دولة إسرائيل وطالبوا بتعديل على القانون الإسرائيلي بيد أن كلاً من حزب العمال ومن بعده حزب الليكود لم يخضعا لهذا الضغط .

وظهرت الى الوجود في السنوات السابقة لعام ١٩٦٧ الطبقة الاجتماعية التي حددت لكل قطاع دوره الخاص به . فقد حكمت نخبة الأشكيناز الأغلبية السفاردية التي قبلت مذعة المواطنة من الدرجة الثانية بينما شكل المواطن العربي مواطن الدرجة الثالثة . ولم يتعرض هذا التنظيم الثالث لأي جدال حوله باستثناء بعض الأصوات الخافتة المتناثرة هنا وهناك . أما في المخيم الديني فقد كان مصدر اللاأستقرار هو جيل الشباب .

لقد أربك الوضع الديني الذي وضعه حزب العمال داخل إطار سياسي رجال الدين من الشباب فطلبة ياشيفا أغودات إسرائيل مستثنين من الخدمة في الجيش بينما خدم شباب ميزراحي لفترة قصيرة في مهام ذات طبيعة دينية مثل الحانوتي ومشرفين على محلات بيع الغذاء الذي أقرته الديانة اليهودية أو موفرين لكتب الصلاة .

وينظر مجتمع فكري شوفيني كإسرائيل ؛ حيث تتناسب فيه الخدمة العسكرية مع الوضع الاجتماعي ؛ الى الجماعة الدينية نظرة استهزاء وهامشية . ويذهب صغار الجماعة غير الدينية الى مناداة أتراهم من الدينين باسماء سخرية ويعاملونهم معاملة الأقل شأناً منهم . وعليه شرع رجال الدين لاسيما الشباب الراديكالي منهم بتحسين الفرصة ليرد لهم الصاع صاعين وقد واتتهم هذه الفرصة في حزيران عام ١٩٦٧ .

ترجم معظم رجال الدين الإسرائيلي نصر عام ١٩٦٧ بأنه معجزة سهاوية وصلت

فروتها حين دخل الجنود القدس الشرقية ووصلوا حائط المبكى . واستحال الإذلال السابق الذي قدمه الدنيويون لرجال الدين الى شعور بالأعجاب اقتراب حد النشوة القصوى ومن هذه اللحظة تغيرت الصورة الذاتية للشباب الصهيوني الديني كثيراً وتلك كانت عملية تبلورت تدريجياً عام ١٩٧٤ : لقد خرج الشباب الديني متصراً بعد فاجعة حرب تشرين عام ١٩٧٣ وفجر آخر حكومة عمال فهم قد أصبحوا طليعة مستوطني الضفة الغربية بدلاً من أن يكونوا موظفين دينيين .

أطلقت القوة الرئيسة والجوهرية للمستوطنين العسكر والمتدينين داخل الأراضي الفلسطينية المحتلة التي احتلتها إسرائيل على نفسها اسم (غوش امونيم او كتلة الايمان) فهي قد آمنت - باعتبارها مجموعة من المتطوعين المتحمسين - بأنها الكتلة الوحيدة القادرة على إدراك الأهمية التاريخية واللاهوتية للأحداث داخل إسرائيل وهي قد عرفت نفسها في شكل القلنسوة (اليرملك) الملونة والكبيرة والبراقة التي ارتدوها بدلاً من القلنسوة السابقة الصغيرة والمستوية . وقدم معظم قادة كتلة الايمان من الياشيفا التي مقرها القدس والمسماة بـ (مركز الحاخام) يتزعمه الحاخام يهودا زيفي كوك .

وجدت كتلة الايمان في الحكومة عدوها الكامن حتى عام ١٩٧٧ . فهم قد أخذوا القانون بأيديهم وأقاموا مستوطنات غير شرعية متخذين سياسة الاستيطان الحكومية وتصادموا مع الجنود الإسرائيليين الذين جاءوا لطردهم من هذه المستوطنات ونظموا مظاهرات عنف وأقاموا الحواجز في الطرقات عندما حاول وزير الخارجية هنري كيسنجر (الذي أطلقوا عليه لقب الصبي اليهودي) بين عامي ١٩٧٤ - ١٩٧٥ التوسط للتوصل الى اتفاقية مؤقتة بين إسرائيل من جهة ومصر وسوريا من جهة أخرى . وبعد انهيار حكومة راين وتولي بيغن رئاسة الحكومة ، قدمت كتلة الايمان دعماً قوياً للحكومة الجديدة واستبدل التحالف بين الصهيونية الدينية وحكومة العمال

باتحاد جديد بين الليكود والأحزاب الدينية الإسرائيلية التي كانت فيها كتلة الايمان إحدى أقوى هذه الأحزاب وأكثرها حركة داخل اللوبي السياسي في إسرائيل . لقد عرفوا كيف يجنون أموالهم ونجحوا في عرض صورتهم أمام العامة على أنهم أحفاد الصهيونية الأولى وهكذا استعمروا الأرض كما فعل من قبلهم الرواد الصهاينة .

بيد أن بيغن أدرك نهاية المطاف أنه غير قادر على إشباع الشهية المفتوحة لكتلة الايمان ، لقد آمنت الكتلة أن الحكم العسكري الإسرائيلي داخل الأراضي المحتلة ليس بالوحشية والعدوانية التي يجب أن يكون عليها وما هو إلا وقت قصير حتى نعتوا بيغن بنفس العبارات التي أطلقوها مسبقاً على رابين : رقيق جداً في معاملة الفلسطينيين . ولما لم تلق دعوتهم لإجهاض الطموح القومي الفلسطيني أذناً صاغية قرروا أن يغيروا من معدل سرعتهم ويتعصبوا أكثر في فعاليتهم ، إذ شكل عشرون عضواً من كتلة الايمان منظمة ارهابية عام ١٩٨٠ بعد أن استشاروا لهذا الأمر حاخاماتهم . لقد جرحت المجموعة أبرز ثلاثة رؤساء بلديات فلسطينيين ونفذوا بعد أربع سنوات حملة ارهابية للتمييز العنصري قتلوا فيها عن سابق إصرار ثلاثة طلاب فلسطينيين داخل الكلية الإسلامية في الخليل . كما فشلت خطة أخرى لنسف حافلة كانت تقل عدداً من أطفال المدارس الفلسطينيين .

و داخل هذه العصابة الإرهابية ثمة عصابة أصغر كان نشاطها أخذاً بالنمو فهي قد خططت لنسف المسجدين الواقعين على جبل الهيكل في القدس وهذان المسجدان تم بناءهما في موقع في موقع المعبد اليهودي الثاني القديم (الهيكل الثاني) الذي هدمه الرومان . وانطوت خطة هذه العصابة المتحمسة على رفع المسجدين وفسح المجال أمام بناء كنيسة ثالثة تقودهم فكرة أن يسوع والخلص النهائي سيقومان إذا ما تم إنجاز الهيكل الثالث . بينما يعتبر المسلمون هذين المسجدين من أكثر الأماكن المقدسة لديهم بعد مكة والمدينة في العربية السعودية التي هي مهد الإسلام . ولك أن تتخيل

ماذا كان سيحدث لو نجح المتطرفون الصهاينة في خططهم هذه ونسفوا المسجدين . إن أمة الإسلام كلها والتي يزيد عدد نفوسها على ثلاثمئة مليون نسمة كانت ستهد عن بكرة أبيها وسينادون بالجهاد أو الحرب المقدسة ضد إسرائيل .

إن مثل هذا المشهد الرؤيوي كان جد كبير حتى لوزارة الليكود العسكرية العقل . لقد تجاهل الليكود حتى ذلك الوقت التطرفية اليهودية ليس هذا فحسب بل ان الليكود بادىء الأمر أنكر وجود مثل هذه التطرفية مشيراً الى ان عمليات الاغتيال التي تحدث إنما حرض عليها الإرهابيون الفلسطينيون . ففي عام ١٩٨٤ تم القاء القبض على عشرين شاباً وكهلاً يهودياً متحمساً ينتمون جميعاً الى كتلة الايان أو غوش امونيم . وقد صدر الحكم على معظمهم بعقوبات خفيفة بينما صدر الحكم على ثلاثة منهم فقط بالسجن المؤبد بعد ثبات تورطهم بجريمة القتل .

وحتى اليوم ما برحت فكرة بناء الهيكل الثالث قائمة . اذ يوجد في الحي الإسلامي في مدينة القدس القديمة بنايات (كوهانيم ياشيفا) التي يتخصص طلابها في دراسة الهيكلين الأول والثاني . وهي قد نحتت نماذج لهذين البنائين ونسخاً من أدواتها الدينية مثل المذبح وتاج الملك وحتى رداء الكهنة الخارجي بالاستناد الى المواصفات الواردة في التوراة . وقد حاول بعض هؤلاء الطلبة وهم في حالة انتقاد الذهاب الى جبل الهيكل وإقامة طقوس تقديم القران بيد أن أياً من هؤلاء الطلبة أو أوصيائهم لم يؤيد علناً نفس هذه الجوامع لأنهم أيقنوا انها ستحدث بطريقة ما . وان زيارة هذه الياشيفا ستزرع فيك يقيناً مطلقاً ان بناء هذا الهيكل الثالث ليس سوى مسألة وقت .

في هذا الوقت وعلى النقيض من هذا الاتجاه الراديكالي الذي دفع بالصهيونية من قطاع الواقعية الى العسكرية كانت بذور اتجاه آخر آخذة بالنمو بين الأرثوذكسيين . لقد انتقلت الأرثوذكسية من القبول السلبي للصهيونية والدولة في عصر العمال الى

المشاركة الفعلية في شؤون الدولة . وبدأت تجني الفوائد المالية بمجرد وصول الليكود الى السلطة عام ١٩٧٧ .

لقد حولت حكومات الليكود المتعاقبة مئات الملايين من الدولارات الى الأرثوذكس وقد ساعدتهم ازدهارهم المفاجيء هذا على توسيع سجلاتهم فمزيد من الطلاب ومزيد من الياشفا يعني مزيداً من المطابخ وماشايها وهي تعني أيضاً ان مزيداً من الشباب سيقنطادون الى الخدمة العسكرية .

يقول المؤلف (حاييم بير) : «ان الأرثوذكسية الجديدة تتعامل مع إسرائيل كأنها ماكنة مصرفية» فكلما احتاجوا مالاً -وحاجتهم للمال لايمكن إشباعها- تصرفوا كأنهم مستهلك مثالي ، يذهبون الى الماكنة ويضغطون بعض الأزرار ويحصلون على ما لهم وانهم بدلاً من أن يضعوا البطاقة البلاستيكية يضعون التخويف السياسي . فالليكود لا يقوى حالاً بدونهم وهم من يملك ميزان القوى . ولأنهم كذلك فان الاحزاب الارثوذكسية تستخدم لغة بسيطة : «أعطنا هذه ، لانريد تلك وإلا فلن نصوت لصالحك» .

ان علاقة الأرثوذكسية الجديدة بالدولة كالشارع ذي الاتجاه الواحد . لقد قال الرئيس جون كينيدي : «لاتسأل عما بوسع الدولة أن تعطيك بل تسأل بالذي أنت قادر على أن تعطيه للدولة» ويبدو أن الأرثوذكسية قد تجاهلت الجزء الثاني من الجملة وركزت على الذي تدين به الدولة اليها .

هذا التغير في موقف الأرثوذكس والذي تضمن دخولاً فاعلاً في نشاطات مجلس الوزراء قد ساعد اليه كثيراً ظهور حزب (شاس) وهو حزب أرثوذكسي جديد مثل الى حد كبير السكان السفارديم . ظهر هذا الحزب في أول الأمر في إنتخابات عام ١٩٨٣ بأمل محاربة التمييز العنصري ضد السفارديم . وقد تأسس الحزب على يد حاخام

أشكيناوي (وتلك هي المفارقة) كان واقعاً في شجار مرير مع بقية زملائه . وقد تألف معظم قادة الحزب السياسيين والروحانيين من حاخامات من أصل مغربي تعلموا في مدارس الياشيفا الأشكيناوية الأرثوذكسية . لقد تبنا طرائق معلمهم لكنهم عاشوا دوماً في شعور الحرمان .

كان لحزب شاس ؛ وبخلاف الكثير من الأحزاب الدينية الإخرى لاسيما إتحاد إسرائيل التي اعتمدت غالباً على مرشح لها ؛ نفوذاً وصوتاً مسموعاً على نطاق واسع . كان جمهورهم الخطر هو السفارديم عموماً وليس فقط الأرثوذكسيين بين السفارديم . لقد عرف معظم السفارديم من الذين لم يعتبرهم الأشكيناويين أنفسهم بالتقليديين والملتزمين . لقد عرفوا أنفسهم في أقل تقدير في إطار بعض جوانب الدين والتزموا ببعض ممارساته . لقد شق حزب شاس طريقه ليكون منظمة سياسية لها جذورها داخل إسرائيل سيما بعد أن حصل له على وزير داخل مجلس الوزراء وستة أعضاء كنيسة وحفنة من بعض كبار رجالات الدولة . وانصبت معظم جهودهم على تعزيز شبكة التعليم المستقل التي أسسها الحزب على مدى ثماني سنوات وهذا يعني ان الأحزاب الدينية تتولى إدارة ثلاثة أنظمة تعليمية داخل إسرائيل من أصل أربعة .

ويتمتع زعماء حزب شاس بشعبية واسعة بين جمهورهم ليتعارضوا في هذا الأمر مع قادة حزب إتحاد إسرائيل مثلاً البعيدين عن جمهورهم والقساة حيالهم . انهم يتحدثون باللغة العامية ولا يترددون في الإختلاط مع مؤيديهم . لقد رفض قادة الأرثوذكسية الظهور على شاشات التلفاز لأن مشاهدة التلفاز يعد أمراً مرفوضاً تماماً في نمط حياتهم ، وهنا استوعب قادة حزب شاس أهمية الإعلام فكررُوا ظهورهم في لقاءات من على شاشة التلفاز الذي اعتبروه أداة إعلامية مهمة في مسعى منهم للعودة بالإسرائيليين الدنيويين الى جذورهم الدينية .

في هذا الإطار يكون حزب شاس الحزب التبشيري الأكبر في البلاد والذي جعل

من شعائر التوبة صناعة جماهيرية . فقد شرع الحزب سنوياً بتجميع المتعاطفين معه في ساحات رياضية كبيرة . هذه الأحداث تشبه الى حد كبير حفلات الروك الصاخبة وفيها يتناول الحضور بين كل موسيقى دينية شعبية جرعات من الموعظة التلقينية يلقيها عليهم أحد الحاخامات المسعورين في أسلوب يشابه أسلوب معمدانية التلفزيون الأمريكية . وفيها يوظف (صيادوا الأرواح) من حزب شاس كل أدوات وتقنيات التسويق الحديثة من الدعايات والأعلانات واجهزة التسجيل المرئية والسمعية . إنهم خبراء في الدعايات واستغلوا الضعف الناجم عن أزمة الهوية الإسرائيلية وانتقدوا ما أسموه بفراغ وفساد وعفن الحياة الإسرائيلية غير الدينية ووعدوا بملء هذه الفجوة بالمعنى . وفي الواقع لا توجد معلومات دقيقة عن أعداد الإسرائيليين المولودين ثانية بيد أن العدد قد ازدهر كثيراً في مرحلة التسعينات وذلك بالاستناد الى ما تناقلته وسائل الاعلام .

لقد جلب نجاح حزب شاس عليه حقد ولعنة خصومه من الأحزاب الدينية الأخرى وهو ما دفع بهذه الأحزاب الدينية جميعها أن تغوص في أعماق صراع مرير لأجل الهيمنة السياسية . وبدا ان هذه الأحزاب يكره بعضهم الآخر أكثر من كرههم لخصومهم غير الدينيين . وقد وصلت هزلة هذه الخصومة الدينية ذروتها في الحملة الانتخابية عام ١٩٨٨ . فقد ظهر حاخامات حزب شاس في أحد لقاءاتهم التلفزيونية يرتدون رداءات طويلة مطرزة بالذهب وعمامات لإعتاق الذنوب وطرده العين الشريرة وإبطال القسم والتحريم الكنسي واللعنات . وقد تبين ان حزب الاتحاد قد أقنع الناضحين بقطع العهد على أنفسهم بالولاء لقضيتهم وتوعد ان من يخرق عهده ستحل به اللعنة وسينال جزاؤه هو وعائلته .

إن الظهور التلفازي لحاخامات حزب شاس قد أبهر العامة الإسرائيلية غير الدينية التي رأت في هذا الأمر فصلاً آخر مبالغ فيه لاوبرا الحزب السياسية الناعمة بيد

أن هذا الحدث قد ألقى الضوء على الجانب المظلم والبدائي للسياسات الدينية داخل إسرائيل : الإستثمار الساخر لتخلفية جمهور الناهيين وكذلك تعلمهم الصوفي .

لقد تفوق الزعيم السياسي الأول لحزب شاس (راي بيرتز) في صياغاته للعبارات المسعورة ضد الحياة الدنيوية لإسرائيل . فهو قد أعلن بعد الحادث الذي أودى بحياة عشرين طفلاً أثناء اصطدام حافلة المدرسة مع قطار ان هذا عقوبة الرب لنقص في روحانية الإسرائيليين ، وفي مناسبة أخرى هاجم التعليم الإسرائيلي خاصة داخل الجامعات التي تدرس نظريات (تشارلز داروين) وأيد رفع المناهج التي تبحث في نظرية النشوء وكذلك العلوم غير الخلاقة لأنها تدرس ان (الإنسان قد نشأ من قرد) . كما عبر بيرتز عن رغبته في أن تعلم إسرائيل يوماً ما طلبتها ان العالم والجنس البشري قد أوجدهما الله لا غيره . بيد أن ما تسبب في صدمة حقيقة للإسرائيليين هو مهاجمته اللاذعة ضد الكيبوتز أو المزارع الجماعية اليهودية . إذ حاول في ايار من عام ١٩٩١ منع المزارع الجماعية اليهودية من إيواء المهاجرين من اليهود الاثيوبيين بادعائه ان هذه الكيبوتز لا تفتقر الى الحضارة اليهودية فحسب بل انها عامل مشجع ليتجرد المرء من ديانته وضرب في الأمر مثالا كيف ان شقيقته التي ترعرعت في هذه الكيبوتز قد توقفت بعكسه عن ديانتها وغدت راقصة ورسامة ، وقد علق صارخاً في احدى لقاءاته التلفازية المنقولة حياً : «إنكم مذنبون في تخطيط اختي» .

ولن يتوان اليوم الساسة المتدينون من استخدام عضلاتهم بجانب لغتهم في مسعاهم الأبدي لإحداث التشريعية الدينية التي تهدف الى التقليل من شأن الحياة العصرية والتقدم والحقوق المدنية الأساسية ، وهم يتطلعون نحو تقييد أشمل وأوسع على عمليات الإجهاض والتنقيب الآثارى وعلى حق الأطباء في زرع الأعضاء الحية وتشويه جثث الموتى . لقد نجحوا في منع طائرات شركة الخطوط الوطنية الإسرائيلية (العال) من الطيران أيام السبت بينما فشلت لهم محاولة أخرى هدفت الى وضع نهاية

لإنتاج وبيع لحم الخنزير طوال العام والخبز خلال اسبوع عيد الفصح . وهنا تقول (شولاميت الوفي) زعيمة (حريات وسلام المواطنين): «سيدخل الدين في مطابخكم وسيوزع المتدينون في كل مكان عاجلاً في شوارعكم وفي سواحل شواطئكم وفي مدارسكم وعلى أسرة نومكم» .

وإذا كان (التأثير الإنتهاكي للدين) قد حذر شولاميت الوفي التي هي أكثر سياسي إسرائيلي صراحة فإن المؤرخ (ايمانويل سيفاز) يرى الأمر من زاوية مختلفة أخرى . فهو يقول ان الحماس الديني لحزب شاس وقومية كتلة الايمان ليسا إلا مساهمة إسرائيلية الى التعصبية والتطرفية الدينيتين والموجودتين أيضاً في المجتمعات الأخرى ، ويضيف موضحاً: «تشارك المسيحية والاسلام واليهودية في توقعها نحو نظام ثيوقراطي ومعارضة مستميتة ضد أي تعبير لما يسمى بالمادية والفسادية الغربية» .

ومع هذا لم يقتصر الفساد على حدود غير الدينين من الإسرائيليين . لقد حققت الشرطة والادعاء العام في كثير من الدعاوى التي تضمنت إساءة استخدام أو نقلاً غير قانوني لأموال العامة قام بها الوزراء أو أعضاء في الكنيست ينتمون الى حزب شاس الديني . وتبين أيضاً ان العديد من قادة شاس الذين قدموا من خلفيات فقيرة قد بلغوا سلم الشراء العالي سريعاً فسكنوا شققاً فخمة واستقلوا سيارات فارهة و... الخ . ويوضح (اورا نامير) الوزير في حكومة رابين الجديدة ان (سلوكية الساسة المتدينين ونشاطاتهم إنما تعلم العامة كيف يكرهوا دينهم) .

إزدادت حدة الإزدراء الديني للجماعة الأرثوذكسية نتيجة للموقف المزدوج الذي تبنته الأرثوذكسية في موقفها الساخر من الحياة العصرية . فهي من الجانب الأول قد مقتت كثيراً العصرانية ورأت فيها عدوها بينما أحبت من الجانب الآخر الإستمتاع بتقدمها التكنولوجي . وعليه ابتكرت الأرثوذكسية الكثير من الطرق المقنعة حول عدد من التقاليد التي زعموا تمسكهم الشديد بها . هذه التقاليد تمنع على سبيل المثال

الدخول في العديد من النشاطات او الفعاليات في يوم السبت المقدس لأن التوراة قد حرمت العمل وإضرار النار في هذا اليوم . وهذه المحرمات القديمة قد توسعت خلال القرن العشرين لتشمل التطبيقات الكهربائية . وكبدل لهذا الأمر ابتدعت الأرثوذكسية حيلاً لتساعد في المراوغة حول تحريم إضرار النار يوم السبت فصنعوا فانوساً سبتياً خاصاً يضاء قبل إطلالة فجر يوم السبت ويبقى مضاء طيلة الليل والنهار . ويوجد أيضاً جهاز هاتف خاص يسمح لهذا المتمسك بتقاليده ان يستقبل ويرسل المكالمات الهاتفية . وقد سمح كبير حاخامات إسرائيل في شتاء عام ١٩٩٢ للأرثوذكسية باستخدام الهاتف في حالات الطوارئ بشرط ان لا يكون هناك اتصال جسدي مباشر بين المتحدث وجهاز الهاتف عند تحريك القرص وهنا نفع استخدام قلم الرصاص كأداة نافعة لهذا الغرض .

ملكيت اليهودية في الماضي حاخامات ملهمين من ذوي المعرفة الواسعة كان أشهرهم جميعاً الحاخام (موشي بن مايمون) الذي عاش في اسبانيا في القرن الحادي عشر . لقد ترجم التوراة والتقاليد المتراكمة بطريقة كانت تتوافق وعهده . الا ان اليهودية الأرثوذكسية قد عجزت والقرون العديدة ان تنجب حاخاماً من طرازه قادراً أن يأخذ على عاتقه مهمة تحديث هذه التقاليد . وعلى العكس من هذا تماماً شغل حاخامات اليوم أنفسهم في قرارات ساذجة ليس لها من الأهمية اي مكان وربما صح القول عليها انها قرارات سخيفة لا تنفع جدوى لأي شيء .

لهذه الأسباب جميعها شهدت أوائل مرحلة التسعينات توتراً متزايداً بين الأغلبية غير الدينية والأقلية الدينية . لقد راقب الدنيويون الإسرائيليون في الماضي النشاطات الدينية بشيء من اللامبالاة . واذن تأسست هنا وهناك بعض المنظمات مثل (الكنعانية) لمواجهة هذا (القسر الديني) بيد أنها لم تترك أثراً ذي صدى . أما الآن فقد تغير هذا الموقف ، لقد تزايدت أعداد الإسرائيليين الدنيويين يوماً بعد آخر للدفاع عن وجهات

نظرهم وطرق معيشتهم للحياة . فقد طالبت عوائل الموتى ان يظهر التاريخ غير اليهودي على قبور موتاهم بجانب تاريخ التقويم اليهودي . وتم افتتاح تجمعات ومعابد دينية إصلاحية ومحافطة برغم المعارضة الأرثوذكسية القوية لها ووجد مطلب لإحدى هذه الجماعات الإصلاحية بان يكون لها مقبرتها الخاصة بها دعماً جماهيرياً كبيراً، وطالبت أيضاً أحزاب الجناح اليساري وبعض قطاعات حزب العمال الفصل بين الدين والدولة التي ستجعل من السير إجراء مراسيم الزواج والطلاق والدفن المدني .

هذه الحالة المخيمة الجديدة قد أعطت زخماً إضافياً للدينويين للانتقال من الإستجابة السلبية الى أخرى ذات طبيعة إيجابية . وأضحت القدس الساحة الكبيرة لرحى هذه الحرب الدائرة . فقد حطمت الشراذم الأرثوذكسية لوحات العرض التي تحمل أزياء عصرية نصف عارية ورشقوا بالجارة السيارات المارة في أيام السبت . ومن جانبهم هاجم الشباب غير الديني المحتج ما وصفوه بـ (الحصار الذي تفرضه القوى الغازية لمتطرفي القدس على جماعة القدس غير الدينين) . واستخدم هؤلاء الشباب وسائل غير معروفة للعامة في نضالهم هذا ولجأوا في أحيان أخرى الى عنف الشوارع ، وشنوا أيضاً في محاولاتهم رفع هذا (الحصار) غارات على المناطق الأرثوذكسية وغطوا الجدران بشعارات مناهضة للدين . كما تضمنت وسائلهم الترفهية غير الأرثوذكسية إفتتاح دور السينما والمسارح والمطاعم في ليالي الجمع وكذلك تسيير حافلات للنقل العام في أيام السبت . وقد وصلت نشاطات الجماعات غير الدينية ذروة وحشيتها في ربيع عام ١٩٩١ عندما وضعوا رأس خنزير على عتبة إحدى كنائس العبادة حيث تجلّى ان من اقترف عملاً كهذا إنما هو فوق القمة ولم يعلن اي طرف مسؤوليته عن ذلك .

وفي الحقيقة رددت الأرثوذكسية على الدوام قولها ان سلوكية الجماعات الإسرائيلية غير الدينية تعيد اليها دوماً السلوكية المناهضة للسامية ، ولا يبدو ان

الأرثوذكسية ستجد لها مكاناً أكثر من دولة إسرائيل يكن لها البغض والخوف منها .
(إنني حيثما رأيت هذه الشعائر الأرثوذكسية تفهمت معنى مناهضة السامية) تلك هي
العبارة الشائعة بين الإسرائيليين غير الدينيين . لقد تعود هؤلاء ان يطلقوا على
الأرثوذكسية تسمية (اليهود السود) او مجرد صفة (السود) على أساس ملابسهم
السوداء التي يرتدوها دوماً . كما يلقبهم اليساريون بـ (القوة السوداء) . لقد وجد
هؤلاء في الأرثوذكسية حيواناً متطفلاً يستنزف عصابات المجتمع غير الديني الحيوية .

إن الأحزاب الدينية في واقع الأمر كانت دوماً أقل قوة وأكثر عرضة للايذاء مما قد
يتصوره البعض . فهي لم تنجح منذ الإنتخابات الاولى عام ١٩٤٩ في زيادة عدد
مقاعد داخل الكنيسة الإسرائيلي وعلى أي شكل مهم كان بالرغم من زيادة تعداد
السكان اليهودي داخل إسرائيل سبع مرات ما كان عليه في ذلك التاريخ ، وظلت
أعداد مقاعدهم تتراوح دوماً بين الخمسة عشر الى ثمانية عشر مقعداً من اصل مئة
وعشرين مقعداً .

ويمقدورنا أيضاً أن نجري مقارنة بين أعداد أولئك الذين عادوا أدرجهم الى
جذورهم الدينية وأولئك الذين خلعوا قبعاتهم وغيروا ملابسهم التقليدية وتبنوا
طريقة عيش عصرية . إن محاولة قلب واقع الحال باستحداث تشريع ديني جديد قد
باءت دوماً بالفشل إن لم تأخذ لها حيزاً يذكر .

لقد تشكى المتدينون بمرارة ان واقع الحال قد تأكل ولكن في غير صالحهم . فهم
يرون بأن أعينهم أعداد دور السينما والمطاعم وحانات شرب الخمر العاملة يوم السبت
آخذة بالازدياد لتفسد عليهم يومهم المقدس حتى في مدينة القدس مدينتهم المقدسة .
وأكثر الظواهر ايذاءً للطائفة الدينية هي تلك الظاهرة الحديثة المعروفة بـ (عرض
دراجة يوم خير) حيث تتوقف في هذا اليوم المقدس من التقويم اليهودي الحركة

المرورية في جميع الشوارع التي تزدهم بدلاً من السيارات بالسابلة من العوائل الدينية وغير الدينية على حد سواء في طريقها نحو التجمعات . كان الجو السائد مقدساً بيد أن الحال تغير وانخفضت أعداد حضور مثل هذه التجمعات الدينية وامتلات الشوارع بدلاً من السيارات بالدراجات الهوائية وهي ظاهرة ابتدأها الأطفال الذين لم يسعفهم حالمهم مقاومة إغراءات الطرق وهي فارغة . ثم غدت جميع العائلة تتركب دراجاتها في رحلاتها هذه . واتجه من كان يوماً لا يفكر أن يفقد من يديه فرصة حضور تلك المناسبة الدينية الى الشواطئ الساحلية ليستمتع بالسباحة . ان يوم خير يوشك أن يكون يوم إنبعاث وطني .

وقبالة هذه الخلفية يمكن رؤية نشاطات الإحتجاج الدينية بضوء مختلف . أي انها نشاطات رد فعل بائس لأناس يشعرون انهم يفقدون أرضيتهم في ساحة المعركة الحضارية أكثر من أن تكون مجرد نشاطات عدوانية وتوسعية .

إن الجو السائد على العلاقات الدينية الدنيوية هو واحد من الإنقسامات المتزايدة والعزلة المتبادلة النامية فكلاً يتجه يوماً بعد آخر ليفقدوا أكثر عسكرية وليركب المخاطر في مواجهته للآخر وكلاهما يفرق يوماً بعد آخر في ذاتيته ويعمل لطائفته فقط . فأطفال كل طائفة تدخل مدارس مفصولة عن مدارس الطائفة الأخرى واقتصر الزواج على أفراد الطائفة الواحدة . ولم تظهر محاولة جادة واحدة لتبادل أفكار نافع بينهما وليستثمر احتمالات أفضل للتعايش المشترك السلمي والتراضي المتبادل . وبينما يتجه إسرائيليو الطبقة الوسطى من غير الدينين صوب التعصب المستمر لحياة أكثر مادية في ضواحيهم التل أبيبية ترى الدينين من أحزاب شاس أو إتحاد إسرائيل أو كتلة الايان يتراجعون الى أحيائهم الخاصة بهم والى مستوطناتهم ونسيانهم . تلك هي الظاهرة التي وصفها (ايمانويل شيفا) بـ (حضارة المقاطعات)

الفصل الثامن

ثقافة الدفاع

نحت الفنان الأمريكي (جورج سيجال) في مطلع السبعينات تمثالاً كبيراً من الجبس لأب يمسك بسكينه وابنه راكم تحت قدميه . لقد استلهم الفنان الفكرة من التوراة على نحو أكيد : إنه أبراهام* يضحى بابنه اسحق** : إنه اختبار الرب لايهان أبراهام بأن أمره أن يأخذ بابنه الى تل في القدس ويقدمه قرباناً . لما يزل هذا التمثال محفوظاً في الطابق التحتي في متحف تل أبيب منذ قرابة عشرين عاماً بعيداً عن أنظار العامة بعد أن رأى فيه أمناء المتحف ورؤساؤهم السياسيون أنه انتقاد لحقيقة إسرائيل ؛ فهي الدولة التي تضحى بأبنائها لأجل الحرب ؛ فالفنان سيجال قد أجرى مقارنة بين (الأب) الذي قدم ابنه قرباناً ليرضي ربه وبين الأب الإسرائيلي الذي يرغب أن يرى ابنه ميتاً كي تعود إليه دولة إسرائيل .

كان ثمن البقاء الإسرائيلي جد باهض : إنه أجساد وأرواح جُلّها من الشباب ، وقد أشارت إحصائية رسمية صدرت عن وزارة الدفاع في أيار عام ١٩٩٢ أن إسرائيل خسرت ١٧,٥٠٠ إسرائيلي وما يزيد على ٥٦ ألف جريح خلال حروب البلاد السبعة وبقية المواجهات العسكرية .

إن إسرائيل اليوم واحدة من أكثر البلدان المعبأة عسكرياً في العالم ، وما انفك أمن البلاد يشغل الحيز الأخطر في الضمير القومي . لقد تحققت لإسرائيل هذه التعبئة العسكرية عبر برنامج ثقافي دقيق يبدأ من رياض الأطفال وتجلبت غاية الدولة المطلقة

* ورد اسمه في التوراة أبراهام وهو اسمه الأصلي ثم أوحى اليه ربه أن يغيره الى ابراهيم .

** جاء في الإسلام أنه قدم اسماعيل وليس اسحق قرباناً .

برسم اتفاق جماعي يقنع عامة المواطنين بعدالة الطريق الذي يتهجون ولتقطع عنهم قدر المستطاع دابر الشك . وهي تعلم أن طريقها الذي سيزرع الايمان لدى الأبناء حيال قدرهم سيصبح يسيرا طالما أن الدافع الحاث لهذا الغرض موجود وایمانهم بقضيتهم قائما ، وان الشعب الذي يتسلله الشك في أحقية أهداف حكومته ستتحل خيوط وحدته وسيغدو أكثر عرضة للتهديد المستمر سيما وأن أعداءه يحيطونه من كل حذب وصوب .

لقد اطلع الأسرائيليون على ترجمة ذات بعد واحد لتاريخهم تبدأ من احتلال اليهود لدولة إسرائيل ايريتز مع التركيز على حرب الاستقلال عام ١٩٤٨ وما بعدهما . انه تاريخ مرسوم بالأبيض والأسود يشابه بذلك سيرة التاريخ الأمريكي التي تجنب براءة فائقة الحقيقة المخجلة المتعلقة بذبح أبناء أمريكا الأصليين . وتملك أسطورة إسرائيل أبناء طيبين وأبناء شريرين ، يفوز الأبناء الطيبون بالاعتماد على السينما الغربية وعلى بعض صيغ الأفلام المبتذلة بالعدالة الطبيعية وهنا ينسج الأسرائيلي لتاريخه قصصاً عن صراط الأمة المستقيم الذي لا يخذل احداً وكان دوماً المكان المرغوب وتتحدث لك نفس الأسطورة كيف تطلع الأسرائيلي دون كلل ليفتح نوافذ فرصة السلام للآخرين ، بيد أن العرب -الأبناء الشريرين - أغلقوا هذه النوافذ وذهبوا للحرب .

لقد اصطحبت ولدي البالغ من العمر ثماني سنوات في أحد مساءات ايار عام ١٩٩٢ الى الاحتفالية المقامة في مدرسته بمناسبة يوم الهدنة (التذكار) وهناك أعدت شريط الماضي وكيف يؤثر زرع مثل هذه الأفكار على طالب المدرسة الأسرائيلي فالنظام لا يحاول أن يصقل الشخصية الفردية والتفكير المستقل بل انه يحفز التفكير الجماعي والتنسيق المشترك والعمل كأنهم خط إنتاج في معمل ما ، حيث عليهم إنتاج بضاعة ذات قياس واحد والتي هي أطفالنا . وقلما خلت مدرسة إسرائيلية ابتدائية كانت أم

ثانوية من طالب لم يفقد من أهله أحداً فحتى الركن المخصص ليوم الإحتفال كان عبارة عن صخرة بسيطة نقش عليها أسماء اللذين سقطوا في حروب إسرائيل .

يتجمع الإسرائيليون في كل قرية ومدينة في يوم الهدنة (التذكار) وكذلك حول الكثير من القبور الإسرائيلية ليحتفلوا بهذه الذكرى وذلك قبل يوم من احتفالهم بيوم الاستقلال وهذه رسالة واضحة المعالم الى الشعب : لقد سقط هؤلاء الجنود فجعلوا استقلال إسرائيل ممكناً ، أو كما جاء في كلمات الشاعر (ناتان التزمان) : «انهم طبق الفضة الذي تقدمت فيه إليكم دولة إسرائيل» . تبدأ مراسم هذا اليوم بأصوات صفارات الإنذار وهي نفسها التي استخدمت أيام الحروب وبضمنها حرب الخليج الأخيرة عندما كانت تحذر أن صاروخ سكود عراقي في طريقه إلينا . وبعد أن تتوقف صفارات الإنذار يقف الإسرائيليون دقيقتي صمت ثم تنكس الأعلام وتضاء الشعلة على يد والد فقد أحداً من أبنائه وبعد نصف ساعه تختتم مراسم الإحتفال بغناء النشيد الوطني .

تكمّن أسطورة إسرائيل الكبرى في البطولة في (الماسادا) التي هي صخرة مؤثرة يبلغ ارتفاعها ألفاً وأربعمائة قدم ، وما زالت موجودة في نهاية الجزيرة اليهودية مقابل البحر الميت . لقد تحول المكان قبل أكثر من ألف وتسعمائة سنة الى حصن لمجموعة صغيرة من اليهود المتطرفين والمتحمسين ومنها قاتلوا بعناد حشود الإمبراطورية الرومانية . وتقول الترجمة الأكثر شيوعاً لهذه الواقعة أن اليهود بعد أن أدركوا أنهم لن يطيلوا صموداً بوجه الحصار الروماني قرروا أن ينتحروا جميعاً بدلاً من مذلة الأسر ، بينما يقول مؤرخون آخرون انها ليست بالانتحار الجماعي وانما مذبحة اقترفها الرومان بحق اليهود راح فيها تسعمائة وستون يهودياً بضمنهم أولادهم ونساؤهم وشيوخهم . لقد حاولت اليهودية عمداً إزالة مأساة الماسادا من ذاكرة اليهودي لأنها لا تقبل بمبدأ الانتحار والذي يموت بهذه الطريقة يدفن خارج فناء القبر .

ولم يتبن الكتاب والمؤرخون والسياسيون اليهود ساغة الماسادا إلا بعد أن تمت
المباشرة بمشروع الاستيطان اليهودي حتى وصلت صناعة هذه الأسطورة ذروتها عام
١٩٢٧ عندما كتب الشاعر اليهودي (لاكوف لامدان): «لن تحدث الماسادا ثانية
أبداً». لقد أضحى هذا البيت الشعري دليلاً لأجيال المستقبل من الصهاينة وأصبحت
الماسادا رمزا للبطولة المتجددة لشعب اليهود في نضالهم لأجل الاستقلال، ويتلقن
أطفال المدارس اليوم أن يكونوا إعجاباً للماسادا وحتمت وزارة السياحة على السياح
زيارتها ووظف حزب الليكود بعد أن تسلم السلطة عام ١٩٧٧ شعبية الماسادا على
نحو أكثر عمقاً. لقد خدمت قصتها أيديولوجية وسياسة حزب الليكود على شكل
خاص فهو يقول طالما أن العالم ضد شعب اليهود فلا مجال إذن للمساومة على نضال
إسرائيل لأجل الاستقلال. لقد إشتروا على الإسرائيليين في أحيان معينة أن يفضلوا
الحرية وإن كان فيها هلاكهم على العبودية وإن كان فيها بقاءهم.

لقد زرقت إسرائيل الوطنية في حليب الأم لأطفالها وهذا أمر ليس بالغريب
فمدن إسرائيل (تبنت) وحدات الجيش وتحتفل عنها (بعيد ميلادها)، وهي احتفالية
ترجى منها تعزيز الرابطة بين الخطوط الأممية والخلفية ولتنفرد بهذه السمة عن باقي
دول العالم المتقدمة. إن هدفهم المشاع هو الأطفال المحليون. فإسرائيل تشجع
صغارها لزيارة معارض الأسلحة والجيش بدلاً من حدائق التسلية كما يفعل اترابهم في
باقي أماكن العالم.

تبنت تل أبيب لنفسها فيلقاً مدرعاً وهي تحتفل كل سنة بذكرى (يوم الفيلق
المدرع) الذي تتجه فيه الدبابات وناقلات الجنود صوب ساحة تل أبيب المركزية لتزرع
في السكان حجم قوتها، وإلى هناك يذهب عشرات الآلاف من الأطفال يصحبهم
آباؤهم ليتفافزوا فوق لعب الدمار ويتحدثوا إلى طاقمها. يرى الإسرائيليون أغلبهم
هذه العلاقة أمراً طبيعياً فالصغار قد ولدوا ليعبدوا العسكرية، فليس بغريب إذن أن

نرى هؤلاء الأطفال أنفسهم بعد خمس أو عشر سنوات وقد سلبت لبهم العسكرية والتحقوا بالقوة الجوية أو الدروع أو قوة المظليين أو أية وحدة أخرى سترك لهم أثرا في ساحة المدينة المركزية . وتم توجيه التعليم الإسرائيلي طيلة فترة العقود الثلاثة الأولى لتلقين وتشجيع الشباب للتطوع في وحدات الجيش الخاصة والضاربة ، فهذه القوات الخاصة ستصقل كثيرا من قدراتهم وفيها يتسلم الجنود أوسمة وميداليات وأجنحة وأزياء مختلفة . ونحن إذ نغذي اطفال المدارس بهذه القصص البطولية فإننا نكون قد علمناهم عبادة هذه الوحدات الخاصة من الجيش .

فإذا كان حلم طالب الثانوية الأمريكي لله أن يلتحق بجامعة (آفي ليچ) فإن نظيره الإسرائيلي لا يطمح بغير أن ينتسب الى إحدى هذه الوحدات الممتازة في القوات المسلحة . ويطلق في إسرائيل على من لم يخدم في وحدة ضاربة اسم (جوبنك) ، كما كان الشعار المحفز للقوة الجوية الإسرائيلية في فترة الخمسينات هو (الأفضل من يطير) . وإني ما زلت أذكر يوم كنت طالب مدرسة كم شددت عزمي لأضم نفسي في أحد هذه الوحدات الممتازة ، فهي بالنسبة لي رمز لهجرة جديدة وهي تعني قبولي النهائي في الصف الأعلى للإسرائيليين الوطنيين والصالحين . كانت فترة تدريبي الأولى جد قاسية ، فهي تجعل من القاصر رجلاً بينما أخذت مكافأتنا شكل الإجازة الدورية التي ننزل فيها بين المدنيين وننفخ بصدورنا كالطاووس متباهين بأجنحتنا (دبايس زينة) التي تعني أننا مقاتلون .

تلك هي الوحدات العسكرية التي يعثر فيها المرء على جذور الإسرائيلية . وفيها يتكيف الجنود الصغار على تحمل عناء الحياة وأن يكتبوا الوجدان وفيها كنا نتلقى الأوامر العسكرية بايقاع متقطع . كنا نقضي ليال دون أن يغمض لنا جفن وكانت عقوبة من يسقط منه سلاحه أن يبقى واقفاً لساعات طوال حاملاً سلاحه الثقيل فوق رأسه حتى تترخي عضلة ذراعه وتسقط يده . بينما يوسم من يستخف بتدريبه

بـ(الميت) ويقضي ليلته يحفر حفرة هي (قبره). إنه لعسير أن ترسم خطأ بين هذا (التدريب العسكري) وبين (السادية المطلقة). استندت فلسفة القوات المسلحة الإسرائيلية على الايمان أن الإنهاك سيصنع من الجنود رجالاً حقيقيين، وعليه تراها تجبر مجنديها أن يأكلوا الرمال أو يزحفوا عراة فوق أرض وعرة أو يسيروا حفاة على أدغال شوكية. لقد دفع الصبيان ثمناً غالياً لقاء مبادرتهم هذه لبلوغ رجولتهم، فالبعض الذي ضاق ذرعاً بهذا الحمل النفسي قد انتحى، بينما دب الرعب في دواخل من قاوم هذا التدريب. والخدمة العسكرية إلزامية على نساء إسرائيل ممن يبلغن سن الثامنة عشرة، بيد أن المرأة تخدم وعلى خلاف الرجل لستين فقط في وحدات غير فعالة برغم أن هذا الأمر قد تغير في السنوات الخمسة الأخيرة مع ازدياد وعي المرأة حتى باتت تشغل مواقعاً إرتبطت سابقاً بالرجل مثل موجّه دبابة.

تعادل الخدمة العسكرية في إسرائيل (إجازة) الحياة. فمن لا يخدم في القوات المسلحة لا يحق له التقديم لكثير من الوظائف المدنية بينما يجد من أنهى خدمته العسكرية سبباً إن كانت في إحدى الوحدات الممتازة فرصة أيسر من غيره ليحصل على عمل مرموق. ويعمل الجنود المسرحون من هذه الوحدات كاحتياطي بشري لصناعة الأمن الإسرائيلية الواسعة النطاق ولأجهزتها السرية خاصة الموساد. أي أن الإسرائيلي الذي أنهى خدمته العسكرية في الوحدة المناسبة سيجد أمامه الطريق معبداً للنجاح.

لقد جلبت تعويضات جرائم النازية ضد اليهود والبالغة ملياري دولار أمريكي ثروة اقتصادية وقوة عسكرية خلقتا معهما ازدهاراً مع نهاية مرحلة الخمسينات ومطلع الستينات لم تشهد له إسرائيل نظيراً من قبل. فقد اعتبروا دولة إسرائيل وريثاً شرعياً لشعب اليهود سواء أكانوا أفراداً أضحوا أو ناجين من المذبحة، وذهبت حصة الأسد من هذه الأموال لجيوب الحكومة. لقد وضعت هذه نهايةً للمرحلة التي كان فيها

الغذاء يوزع بالحصص مقابل طوابع غذائية وأصبح اللحم جزءاً أمن وجبة الغذاء الإسرائيلية . إن إسرائيل لما نزل الى درجة ما مجتمعاً للمثاليين برغم أن امارات الجشع والمادية واضحة للعيان وما برح معظم الشباب الإسرائيلي مطيعاً وخنوعاً ومستعداً لتقبل السلطة عليه دون النقاش حولها .

كان موشي ديان وهو من مواليد عام ١٩١٥ أيقونة إسرائيل الأعظم خلال مرحلة الستينات ، وأضحى بعد حرب ١٩٦٧ الوثن لكل إسرائيلي فهو قد جسد بتناقضه مع اشكول وغولدماير وجيليهما روحية وأسطورية الصباري اليهودي . لقد بصم ديان على نفسه أيام صباه إمارات الفلاح الجندي ، فهو قد ولد في مزرعة لأبوين من الرواد المهاجرين ، ويقول عنه بعض الناس أن جلده قد أحرقه لفح لهيب الشمس . التحق ديان بالقوات اليهودية السرية في (هاغانا) وفقد إحدى عينيه عام ١٩٤١ في سوريا في قتال مع الإنجليز ضد وحدة فرنسية موالية للنازية ، ثم أصبحت الرقعة التجميلية السوداء التي ارتداها بعدئذ علامته التجارية المميزة .

تدرج ديان في مناصبه العسكرية وشغل عام ١٩٥٦ منصب رئيس أركان الجيش ، وكان هو مهندس حملة سيناء . بعدها ترك الجيش وتبوأ منصب وزير الزراعة في حكومة بن غوريون حتى تبعه عام ١٩٦٣ صوب البرية السياسية ، وأخيراً شغل منصب وزير الدفاع في حكومة أشكول . لقد اضطلعت أوراق اعتماد ديان داخل المجتمع الإسرائيلي بعد نصر حرب ١٩٦٧ والذي نسبوه اليه كلياً وبالحطأ بحصة أسطورية ، فهو قد أمسى للإسرائيليين نصف اله . أما ديان فكان يعرف من أين تؤكل الكتف ، فشرع يهزأ بالقانون علناً لأنه كان أصلاً يفتقر الى الصبر وضبط النفس فإذا ما صادف مانعاً أقامته الشرطة في طريق مروره صدقة أوقف سيارته ونزل ليرفع المانع . إنه قد أساء سلطته كوزير للدفاع واستخدم الجنود ومعدات الجيش وبضمنها طائرات الهيلوكبتر لمجرد أن يشبع رغباته ويمجاري هوايته في علم الآثار القديمة . كان استاذاً في

جمع قطع الفخار والأعمال اليدوية القديمة حتى أنه كتب في وصيته لزوجته الثانية أن تباع مقتنياته (التي هي في واقع الأمر ملك للدولة) البالغة قيمتها أكثر من مليون دولار وتهدى للمتحف الإسرائيلي في القدس .

لم يكن لديان أصدقاء مقربين وقد رأته لمرات عديدة جالساً وحده في مطعم الكنيسة . لقد كن له الناس الاحترام بيد أنه كان متبجحاً وكليياً وكان برغم شجاعته العسكرية جانباً في ميدان السياسة فهو قد رفض أن يتحمل مسؤولية حتى أعماله وسمح لشخصه ان يكون متناقضاً، ولو كان قد أبدى بعضاً من القياده والشجاعة السياسية لانهى به الحال رئيساً للوزراء بيد أنه أثر أن يكون أشكول ومائير رقم (٢) .

خضعت وسائل الإعلام الألكترونية خلال مرحلة الستينات ومطلع السبعينات لسيطرة رئيس الوزراء الكاملة ، بينما تتمتع إسرائيل اليوم بجميع حسنات وسيئات قنوات التلفاز الأمريكية والاوربية المتعدده ابتداءً من ال (سي إن إن) الى (جيرالدو ريفيرا) . لم تكن إسرائيل تملك قبل خمس وعشرين سنة جهاز تلفاز لأن الحكومة كانت تخشى أن يفسد هذا الجهاز ويسمم عقول مطيعيها غير مدركين -كما هم الآن- أن التلفاز يمثل أداة دعائية كامنة . فإسرائيل واحدة من حفنة الدول القليلة التي لا يستطيع مواطنيها مشاهدة هذا الصندوق ، فهي قد أثقلته بضريبة باهظة . أما المذيع الذي خضع هو الآخر للرقابة المستمرة من الحكومة المركزية الإشتراكية ، فقلما أذاع شيئاً من أغاني البوب الغربية . فإذا ما رغب الإسرائيلي بالإستماع إلى آخر أخبار الموسيقى أدار المذيع على المحطات العربية . وهنا شعر كبار حزب العمال أن الأفضل للإسرائيلي ان يستمع الى إذاعة إسرائيل والى الأغاني المستوحاة من الروح الروسية . لقد أرادت القيادة أن يشارك الإسرائيلي الشاب بالرقصات الشعبية وجاهدت كي تمنع فتح صالات الرقص (الديسكو) . هذا الموقف المتعنت حداً بالإسرائيليين عام ١٩٦٤ الى التصويت حول رحلة فريق (البيتلز) الى الأراضي المقدسة بعد أن وقع

متعهد قطاع خاص عقداً أنه سيجلب الفريق الى أكبر ملعب كرة قدم في إسرائيل وقيم الحفلة فيه . لقد انتاب الحكومه قلق خشية أن يشجع الفريق الشباب الإسرائيلي ليطيلوا شعورهم ويرتدوا (الجينز) ويستمتعوا الى الموسيقى الصاخبة . وأخيراً تم التصويت على إجراء حفلة البيتلز .

لقد صدق حدس حزب العمال ومخاوفه ، فالإعجاب الذي نالته إسرائيل وجيشها بعد حرب الأيام الستة في الغرب قد جلب إليها عشرات الآلاف من سياح موسيقى السوينغ جاءوا وفي جمعيتهم المخدرات والمشروبات وكل ما يتعارض والحضارة .

لم تكن إسرائيل تملك خلال العقود الثلاثة الاولى من وجودها إلا القليل القليل من النوادي والحانات التي تقدم الجعة وبقية المشروبات الكحولية فهي كما يراها الإسرائيليون أماكن مشبوهة وفاسدة لا يطرق بابها إلا المجرمون والعاهرات . والإسرائيلي بالكاد يتعاطى الخمر اذا ما استثنينا بعض رشقات الويسكي المقدس المحلى والتقليدي بعد صلوات ليلة الجمعة أو في العطل المقدسه . ويمثل تعاطي المخدرات التأثير الثاني للحضارة الأجنبية على المجتمع الإسرائيلي وتشير إحصائيات نشرتها سلطة مكافحة المخدرات الإسرائيلية أن ثلاثة من كل مائة إسرائيلي مدمنين على المخدرات وبلغ مجموعهم قرابة ٢٥٠ ألف شخص معظمهم تحت سن العشرين من العمر . وما برحت نسبة الإدمان على الهيرووين والكوكايين آخذة بالازدياد وهي لم تعد مشكلة تقتصر على الأحياء الفقيرة والقدرة بل إن مناطق للطبقة الإجتماعية الوسطى أصبحت أوكاراً لتعاطي المخدرات كما أوضحت ذلك دراسة أجرتها جامعة تل أبيب .

ومع هذا فإن التأثير الأجنبي والتحرر من سحر حضارة الدففاع القديمة والإستعداد لهجر العزلة قد أحدثت جميعها في السنوات الأخيرة استعداداً متنامياً لدى

الإسرائيلي لكسر طوق أساطير البطولة الكثيرة أمثال موثي ديان ويوسف ترومبلدور* وفاجعة الماسادا. إن الإسرائيلي اليوم تواق الى (تاريخ جديد) يعرض أمامه شريطاً شاملاً ومعقداً لحقيقة الماضي. وها هي كتب اليوم وصحافته تصف ديان بالفاسق الصفيق الوجه الذي لا يأبه بشيء للرأي العام، فهو كي يوقع بعشيقاته في موقف لا يحسدن عليه يفشي لهن بأسرار الدولة التي هي محرم على العامة الاطلاع عليها، وكم من مرة فقد في فراشهن بعضاً من هذه الوثائق. لقد وصفته الصحافة بالرجل الجشع الذي يطلب مالاً لقاء كل مقابلة معه وهو الذي قدباع - وبينما كان يحضر في صراعه مع السرطان - آخر ملاحظاته الى أكبر صحف إسرائيل اليومية فكان رد فعل نجله على ذلك أن قال ساخراً: «إن أبي قد باع مصائر الدولة للصحافة»

وامتدت اليوم لعنة الناقمين على هذه التماثيل لتهزأ بآخر كلمات تشدق بها ترومبلدور. فقد اقترح هؤلاء في مسعى منهم لإبطال سحر ترومبلدور أنه ربما لعن العالم وهو على فراش الموت أكثر من أن يكون قد قبل بقدره، ليس هذا فحسب بل إن هذا المناقض لمعنى البطولة والذي كان فقيراً جداً في لغته العبرانية قد أطلق لعنته تلك مفعمة بأريج لغته الروسية الام.

من جانب آخر استيقظت عقول الجناح اليساري ومنذ اللحظة التي تابسر فيها حزب الليكود بلا كلل ليوطف لنفسه أسطورة الماسادا على جوانب جد مخزية لهذا الرمز. فهم قد أدركوا الآن وبعد سنوات طوال من الصمت المطبق وقبولهم أن

* يوسف ترومبلدور: يهودي من مواليد روسيا، خدم في الجيش الروسي وفقد إحدى ذراعيه في الحرب ضد اليابان عام ١٩٠٥ ثم أصبح صهيونيا بعد شفائه. هاجر الى فلسطين والتقى بـ(جابوتنسكي) الذي ساعده في تنظيم الوحدة اليهودية في الجيش البريطاني، وتولى بعد الحرب العالمية الأولى قيادة مجموعة من الرواد المهاجرين لزراعة الأرض في مستوطنة صغيرة. قتل عام ١٩١٩ بعد أن نشب خلاف بينهم وبين العرب المحليين الذين شكوا به وجماعته بمساعدة القوات الفرنسية والبريطانية.

يستثمر العمال هذه الأسطورة لأغراضه الخاصة أن هذه الأسطورة ستشجع الشوفينية (الغلو في الوطنية) الوطنية والتماثل مع الزيلوت المتعصب . (والزيلوت هو واحد من طائفة دينية قوية كانوا أشد حماساً لمقاومة الاحتلال الروماني لفلسطين).

كما بدأت بالنمو أيضاً إمارات السخط والتحدي للسلطة في قبور إسرائيل ونصبها التذكارية . إذ تحوي إسرائيل على نحو من عشرة آلاف نصب تذكاري لحروبها وهو رقم يعني أن لكل سبعة عشر جندياً سقط في الحرب نصباً تذكاريّاً واحداً . وذهب المؤرخ (جورج موشي) يقول : «إن الرقم يعادل نصباً لكل عشرة آلاف أوروبي وخمسة عشر ألف أمريكي» . أي أن إسرائيل تنفرد وحدها بلا منازع في ساحة الوثنية هذه . وهذا الأمر قد يجد له تبريراً أن إسرائيل بلد صغير المساحة وضيق النطاق الى درجة أن يعرف فيه الفرد الكل وعليه فإن كل شخص فيها عليل بمصاب اليه سواء أكان من أهليه أو أقاربه أو جيرانه أو أصدقائه . إن ثقافة إسرائيل في السرمدية تتطلع صوب الفرد ولا تشاء أن تحجب عنه هويته وتلك ميزة لا تلقاها في أي مكان آخر لأنها تتمعن في الجماعية بدلاً من الفردية . فها هي واشنطن دي . سي شيدت لقتلى حرب فيتنام نصباً واحداً يحمل أسماءهم جميعاً ولن تجد على أضرحة قبور أوروبا العسكرية غير الاسم الأول لقتلاها من الجنود وتلك هي قبور عسكري بريطاني في فلسطين والذين قتلوا في الحرب العالمية الأولى ضد الأتراك لم يتبق منها الا الاسم الأول لهوية الجندي (جي سميث) أو (بي جونز) .

وتتألف شواهد الجنود الإسرائيليين سطحياً من نفس الطراز وهو أسلوب كان من بنات أفكار وزارة الدفاع الإسرائيلية . بيد أن عيني موشي الثاقبتين أطلتاً نظراً في القبور واكتشفتا أن لكل قبر سمته الخاصة فبينما تقرأ هذه البلاطة أن الجندي (سقط في المعركة) نحتت الأخرى عبارة (أثناء تأديته الواجب) وذهبت الثالثة تقول (خلال الخدمة) . لقد ساعدت مساحة إسرائيل الصغيرة العوائل اليهودية لتواصل زياراتها

لقبور أحبابها وهي مخولة بديمومة القبر ووضع ما تشاء من الزهور بل إن بعض العوائل طرزت قبورها لتبدو كأنها عمل فني . هذا الأمر يتناقض تماماً مع العادات الأجنبية فهو ممنوع تماماً في بريطانيا على سبيل المثال والتي حددت حتى أنواع الزهور المسموح وضعها على القبور .

وقد وجد موشي أيضاً أن بعض المقابر لا تحوي الاسم الأول فحسب بل حتى اسم الدلال . بيد أن معركة الأعوام التسعة قد تقاتلت فيها عائلات وكل منها تطمح لتفوز بامتياز فوق الأخرى . لقد أصرت حكومة إسرائيل يقودها مناحيم بيغن وأريئيل شارون على تسمية الغزو الإسرائيلي للبنان عام ١٩٨٢ باسم (السلام لاجل طبرية) . هنا شعرت عائلتا (بيجل) و (زبكر) اللتان قتل أولادهما في هذه الحرب أن هذه الكلمات تنم عن سخرية وخديعة . فالغزو الإسرائيلي للبنان كان النقيض الشاخص لكل حروب إسرائيل . إنها حرب زحفت إليها إسرائيل بقدميها ولم يكن فيها للعرب من مسبب . إن عبارة الحكومة هذه توحي وكأن الحرب كانت عملية عسكرية للدفاع عن النفس بينما وجدها الإسرائيليون مجرد عمل طائش لا تترجى من ورائه البقاء بل اغراضاً سياسية وعليه وقف أغلبهم ضد هذه الحرب التي أخذت من الإسرائيليين سبعمائة جندي . لقد طالبت عائلتا سيجل وزبكر برفع كلمة (سلام) عن قبور أولادهم وأن تحمل محلها عبارة (قتل أثناء تأدية الواجب في لبنان) . بيد أن الحكومة رفضت المقترح فقصدت العائلتان باب المحكمة الإسرائيلية العليا التي أقرت في حزيران عام ١٩٩١ الدعوة التمييزية التي قدمتها العائلتان .

يرى موشي أن مقابر الحرب تعبر عن الرغبة نحو السلام . فازدياد أعداد الآباء الزائرين لهذه القبور إنما يمثل الشكوكية العامة عن سبب التضحية بأولادهم . ويتطلع الآباء الشباب بقلق صوب المستقبل الذي سيتم فيه استدعاء صغارهم خشية أن يخدم الأحفاد في مصالح لا تمثل وجهات نظرهم . وهذا هو السبب الذي حدا بالآباء

الأخذة أعدادهم بالتزايد يوماً بعد آخر لتغيير المناهج الدراسية لصغارهم : أي محاولة تخفيف حدة تلقين الدولة لصغارهم .

وتنتاب إسرائيل في مرحلة التسعينات كثير من الشكوك قد تهدد بتفجير جذور أعمق خباياها . لقد شرع الكثير من الإسرائيليين بنفض غبار كتب التاريخ ليعيدوا النظر في الأسئلة التي لم يتلقوا لها في الماضي الا شبح الجواب : هل إن إسرائيل قد دخلت مرغمة لخوض هذه الحروب ؟ ألا توجد حروب أخرى بادرت إليها إسرائيل بمحض إرادتها ؟ هل إن هدفنا النهائي كان دوماً السلام ؟ .

وإذا كانت الصهيونية الاولى قد أدركت أن (حالة السواء) شيء سيحقق بظهور طبقة إسرائيلية أهلية من اللصوص والعاهرات فإن حالة السواء لإسرائيل اليوم انما هي حياة ثقافية مزدهرة شرقية دولية لا تقل شأنأ عن ثقافة عواصم الغرب ذات الهيبة مثل نيويورك وباريس ولندن وروما . فإسرائيلي اليوم قادر أن يتنازع لنفسه شقة ساحرة لا تقل قيمتها عن مليون دولار في أرقى المناطق السكانية او أن يشتري مبنأ ثقافياً .

وتعج تل أبيب اليوم بالكثير من نوادي موسيقى الجاز والكافتريات وشركات فرق الباليه والمسارح وفرق الرقص . وأنجبت حضارتها الفاتنة عشر متاحف وشدت إليها كثيراً من فرق البوب والروك ذات الصيت حتى لنرى مشاهير المغنين أمثال (تينا تيرنر) و(بوب وايلان) يدرجون إسرائيل ضمن البلدان التي تشملها جولاتهم الغنائية العالمية . وتعد تل أبيب استناداً الى احصائيات هيئة الامم المتحدة واحدة من أكثر المدن استهلاكاً في العالم .

وتعاني اليوم مدناً أخرى غير القدس وحيفا من عجز خطير في الميزانية بسبب محاولاتها تقليد المدينة الكبيرة والغنية تل أبيب . وشهدت إسرائيل في صيف عام ١٩٩٢ إقامة عشرة مهرجانات للرقص الشعبي وموسيقى الجاز والروك والموسيقى

اليهودية والكلاسيكية، وفيها تجاوز عدد الحضور المائة ألف مشاهد. لقد أحال الإسرائيليون في تعقبهم المستميت لكل حفلة رقص صيف الشرق الاوسط الطويل الى مهرجان أطول غير آبهين ظاهرياً بمشاكل العنف السياسي الحادة والارهاب والتوتر العسكري الذي غالباً ما واجهوه. وربما وجد المراقب الغربي في هذا المس بالثقافة أمراً مروعاً أو سيئاً: فهل تلتقي الحرب مع هذه المطاردة الثقافية؟. بيد أن الإسرائيليين لا يجدون أي تعارض في هذا التعايش الخاص بين الحرب والثقافة، لقد تعود الإسرائيليون على خوض الحرب وأن يستمتعوا بالموسيقى والمسرح وضروب التسلية الأخرى.

وفي موقع آخر الى الجنوب من جادة (شول هاملخ) يقع جدار محاط بالموانع الخرسانية والأسلاك المكهربة وتلك هي الحدود الخارجية لل (كريا) يحرسها على نحو مستمر الجنود من النساء والرجال المدججين برشاشات (عوزي) الإسرائيلية الصنع وبنادق الهجوم إم-١٦ الأمريكية الصنع. إنها الضاحية المعزولة تماماً والتي يقع فيها منزل وزير الدفاع، وهي تضم أعلى بناية في البلاد بأسرها: إنها بناية القيادة العامة للقوات المسلحة الإسرائيلية. أما برج العمارة فمحشو بالهوائيات والأقمار الصناعية ومعدات الاتصال الأخرى.

تمثل هذه البناية قلب الجهاز الأمني الإسرائيلي وأنت هنا بحاجة الى إذن بالمرور ليتسنى لك دخول البناية بعكس الحال مع بقية بنايات جادة شول هاملخ. هذا التناقض يزداد حدة مع اختلاف الطراز المعماري بين رتابة وقذارة كريا التي لا يخطوها الناظر لأي شيء سوى البنايات الحكومية وبين ما يجاورها من بنايات حديثة شائعة بقولاذها وزجاجها.

ولا يعلم إلا حفنة من الإسرائيليين بالذي يدور بين خبايا هذه البنايات من عمل. ولم تكن في إسرائيل حتى أواخر الثمانينات إلا بناية واحدة في هذه الجادة التي

تؤلف مقرأ رئيساً للموساد الإسرائيلي وهي فرع المخابرات الإسرائيلية المكلفة بأعمال التجسس الخارجي . وفي مطلع التسعينات انتقل مركز قيادة الموساد الى موقع في شمال تل أبيب بينما بقيت الكثير من الدوائر ذات الأعمال السرية وأعمال السمسرة وصفقات الأسلحة . إن بيع السلاح وتصدير المعلوماتية الأمنية باتتا من أكثر المساحات ازدهارا في الاقتصاد الإسرائيلي .

يرى العديد من الإسرائيليين والعقليات اليهودية أن هذه هي الانتعاشة الحزينة في قدر إسرائيل . فإسرائيل قد استثمرت مصادرها وتقنياتها في تعزيز ثقافة الحرب بدلاً من توظيفها لأغراض التقدم والتعليم . وإن هذا الواقع المر للحرب والموت والحرمان التي ألهمت الفنان جورج سيغال أن ينحت تمثاله ما برحت تمثل العلامة القومية للأمة التي أرادت يوماً أن تجسد الموروث اليهودي برغم ما تغير عنها من مواقف اليوم .

الفصل التاسع

نشوء التطرفية السياسية

وزع حزب الليكود الإسرائيلي الحاكم في مسعاه لرفع الروح المعنوية لمؤيديه أثناء الحملة الانتخابية عام ١٩٩٢ منشورات تحمل صورة رئيس الوزراء السابق (مناحيم بيغن)، ونظم زيارات دينية الى مقبرة القدس حيث دفنوه هناك. وقد خصصوا ريع الحملة بشكل أساسي الى المجتمع اليهودي السيفاردي أكثر مؤيدي حزب الليكود تحت حكم بيغن في محاولة للتأثير على نتائج الانتخابات. لكن غرابة هذا الاسلوب تكمن في أن الحزب قد شدد على ذكرى زعيم راحل بدلاً من أن تكون لزعيم حي أو رئيس وزراء ما زال يدير حملة إنتخابية.

ولم يكن مجرد تزامن أن وضع اسحق شامير حزب الليكود في موقف لا يحسد عليه، فقد سلم الحزب أن شامير غير مبال وراشح بالإزدراء وذو شخصية غير جذابة وهو بليد ومتحجر القلب في ذات الوقت، ووجد فيه الحزب حجر عثرة أكثر من مصدر قوة. الا أن الرجل قد نجح برغم اللا احترام الذي لقيه داخل إسرائيل والعالم في إدارة حكومة إسرائيل لعشر سنوات وهو رئيس الحكومة الإسرائيلية الأول اذا ما استثنينا ديفيد بن غوريون الذي حكم البلاد هذه الفترة الطويلة التي تجاوزت فترة حكم مناحيم بيغن نفسه وحتى (غولدا مائير) الفاتنة.

تميزت الفترة الممتدة من عام ١٩٨٣ حتى عام ١٩٩٢ بالتحفظية وهاجس بقاء الحال على ذاته، وطفى موقف شامير السياسي الساكن والمحترس على مزاج البلاد.

لقد عرفوا شامير بخوفه من التغيير وحبه لواقع الحال حتى وصفته صحيفة (يديعوت
أحرونوت) أكثر صحف إسرائيل اليومية مبيعاً (ان شامير معروف بسبائه وبلادته
المقرطة، فهو ليس محباً لواقع الحال فحسب بل هو واقع الحال نفسه).

لقد غاصت البلاد في عهد شامير وليكود في وحل الإستقطاب السياسي في
علاقتها مع حليفتها الأقوى الولايات المتحدة الأمريكية، بل إن هاجس شامير
بمفهوم (إسرائيل الأعظم) ودفاعه الحرون عن المستوطنات داخل الأراضي المحتلة قد
هدد التحالف الإسرائيلي-الأمريكي أكثر من أي عهد مضى في تاريخ البلاد بأسره.

إن قيادة شامير اللامبالية التي أفضت بالبلاد الى فترة ركود لم تشهد لها نظيراً منذ
الإستقلال انها هي النقيض الحي لماضيه المغامر والفعال. لقد اعترف شامير في حديثي
معه أنه قد عاش لحظات المجد قبل خمسين عاماً فقط حين كان زعيماً لمنظمة سرية
صغيرة ومميتة في فلسطين ومن ثم عميلاً للموساد.

هاجر شامير -الصهيوني المتقد حماساً في بولندا- الى فلسطين عام ١٩٣٥ والتحق
بعد سنة فقط بجناح (جابتونسكي آرغون) العسكري السري حيث شارك بنفسه في
عدة هجومات تسببت بقتل عشرات العرب. ثم انطوى تحت لواء مجموعة (أبراهام
شتيرن) الصغيرة المنشقة عن (تعديلية جابتونسكي). أطلقت هذه المجموعة التي
تزعمها شتيرن (الشاعر الموهوب) اسم (ليحي lehi) أو (مقاتلي حرية إسرائيل) بينما
أسماهم الإنجليز باسم (عصابة شتيرن). لقد إتهم شامير وبقية أعضاء عصابة شتيرن
جابتونسكي ومنظمته أنهم كانوا جد متساهلين واسترضائيين مع الإنجليز، وهو
نفس الإتهام الذي أدان به جابتونسكي بن غوريون وصهيونيته السائدة عام ١٩٣٧.
وقد اعتقدت عصابة شتيرن أن آرغون قد أوقفت خطأ في مستهل الحرب العالمية الثانية
عملياتها العسكرية ضد الحكام الإنجليز في فلسطين وضد المستوطنين العرب.

لقد وجد شتيرن وصحبه في الإنجليز خطراً للشعب اليهودي أكبر من خطر النازية الألمانية وحلموا بتشكيل تحالف مع موسوليني وهتلر ، والتقى مبعوثهم مع ديبلوماسيين المان وإيطاليين في اجتماعات متعددة كان عدوهم المشترك فيها جميعاً بريطانيا . نجم هذا الحلم عن إيمان شتيرن أن هتلر لم يكن ينوي سحق اليهود بل أراد مجرد التخلص منهم . إن هذا الفعل الغريب في تاريخ إسرائيل ما قبل التأسيس ، إنما يكشف الغباء المطلق واللاأخلاقية التي تحلى بها شتيرن ومؤيدوه بمبادرتهم الحديث الى أخطر عدو للشعب اليهودي .

حدثت عمليات القتل المتعمد التي تعرضت لها مجموعة شتيرن عام ١٩٤٢ على أيدي الشرطة السرية البريطانية بالمجموعة الى إعادة تنظيم نفسها تحت قيادة ثالوثية كان اسحق شامير هو العضو البارز بينهم والذي القت السلطات البريطانية القبض عليه عام ١٩٤٢ ، بيد انه تمكن من الهرب مع زميل له يدعى (الياهو جيلادي) أول ضحايا عصابة شتيرن الجديدة بقيادة شامير . فقد أدركت فيه العصابة مغامراً خطراً فهو (جيلادي) قد اقترح اغتيال القيادة الصهيونية وضمونها بن غوريون . وقد عثرت بنفسه عام ١٩٩١ على وثيقة قديمة أقر فيها شامير انه الذي أصدر الأوامر بقتل جيلادي ، وتبقى الدلالة الوحيدة التي قد توخز ضمير شامير عن قتله جيلادي هو الاسم الغريب والطفيلي الذي أسمى به ابنته (جيلادا) .

تحلت عصابة شتيرن في عهد شامير بالسرية التامة وكان حجمها صغيراً لم يتجاوز حفنة من الأعضاء النشيطين وبضع مئات من المتعاطفين معهم . بيد أن وحشيتهم الجارفة قد أرعبت الإنجليز ، فقد سرقوا المصارف وقتلوا (الخونة) من اليهود واغتالوا وزيراً بريطانياً وكبار مسؤولين ديبلوماسيين بريطانيين وقتلوا مئات العرب دون تمييز بزرع القنابل في السيارات والأشراك المغفلة في الاسواق العربية والأماكن العامة لهم .

ومجدداً ألقت السلطات البريطانية بعد متابعة مشددة القبض على شامير وأبعدته

الى معسكر اعتقال في افريقيا ومنه هرب ثانية . ثم عاد أدراجه بعد إعلان الإستقلال عام ١٩٤٨ الى الدولة الحديثة الولادة . وقد صنعت منه تجربته السرية وضبط الذات وماجسه في العمل السري وايمانه بقضيته المرشح الأنسب للجهاز السري ، وهكذا التحق عام ١٩٥٥ بالموساد . وتولى على مدى عشر سنوات قيادة فريق صغير وضارب في نفس الوقت . فقد نفذت الوحدة هجومات على كل عدو كامن لإسرائيل بضمنهم العرب ومجرمي الحرب النازية والعلماء الألمان الذين يشتبه بهم في مساعدة بناء الصواريخ المصرية . وفي عام ١٩٦٥ قدم استقالته وأصدقائه القدامى مكرهين بعد التعديل الذي أجرته الموساد على كبار مسؤوليها . فجرب حظّه في التجارة بيد انه فشل فيها ، وبقي هكذا حتى عام ١٩٧٠ حين التحق بحزب بيغن اليميني وهنا نجح شامير في عمله السياسي وعلى خلاف كل التوقعات التي قالت أن شوط السياسة قد فاتّه . انه لم يحلم يوماً أن يتولى رئاسة الوزراء بيد انه وفي غضون ثلاثين عاما إنتخب للكنيست الإسرائيلي ثم أصبح رئيسها فوزيراً للخارجية وأخيراً رئيس وزراء إسرائيل السابع في عام ١٩٨٣ .

جاءت فرصة شامير في رئاسة حكومة إسرائيل في أحد صباحات شهر آب من عام ١٩٨٣ حين توجه مناحيم بيغن الى اجتماعه الوزاري الأسبوعي ، وهناك أدهش الجميع بقوله (انني لا استطيع الإستمرار أكثر من هذا) وتقاعد من رئاسة الوزراء ومن الحزب والحياة السياسية والعامة جميعها . وأصبح ناسكاً واعتكف في شقته في القدس وأطال لحية متوحشة ورفض رؤية أيأ من معارفه الا بعضاً من أقربائه المقربين ، وبقي هكذا حتى مات في آذار عام ١٩٩٢ ليدفن معه سر هذا التغير الغامض الذي لم يعرف به أحد اذا ما استثنينا احتمالية أن يكون ولده (بنيامين زيف بيغن) على علم به . وكل ما يقال غير هذا انها هو مجرد توقع وتخمين ، فربما كان موت زوجته أو وخز الضمير من الحرب التي شنها على لبنان سبب هذا الاعتكاف .

شكلت الحرب اللبنانية نهاية لفترة سلام لم تكن متوقعة أوجدها بيغن بتوقيعه معاهدة سلام مع مصر في آذار عام ١٩٧٧ . فقد رجع بيغن الى عاداته القديمة كباغ عسكري عندما أصدر أوامره في حزيران عام ١٩٨٢ الى القوات العسكرية الإسرائيلية بدخول جنوب لبنان ، وتلك كانت المرة الثانية في تاريخ إسرائيل القصير التي تشعل فيها إسرائيل فتيل الحرب دون اي تحرشات ضدها ، فقد سبق لها أن شكلت ثالوثاً إمبريالياً مع بريطانيا وفرنسا وهاجمت مصر عام ١٩٥٦ .

بيد أن إسرائيل الثمانينات لم تكن في اي موقع أو حال كإسرائيل الخمسينات . فهي لم تعد مجتمعاً موحداً اذ تسللت في أعماقها الانقسامات السياسية التي أفضت الى خلاف عميق حول معقولية الحرب . اما الهدف المعلن فكان (السلام مقابل المصلي) اي ايقاف هجمات المجاميع الفلسطينية الإرهابية على مدن وقرى الإسرائيليين على طول حدود إسرائيل الشمالية . وكان هدف بيغن الرئيس هو سحق منظمة التحرير الفلسطينية ، بيد أن المهمة فشلت ودفعت إسرائيل الثمن غالياً .

وقد ألقى بيغن في اليوم الأول للحرب خطاباً أمام الكنيست وعد فيه أن الحرب لن تدوم أكثر من ثمانية وأربعين ساعة . بيد أن الأيام والأسابيع والأشهر مرت وما زال جنود إسرائيل يتشابكون في قتال كان رحاه يدور ليس مع الفلسطينيين فحسب بل مع السوريين والمتعصين الشيعة . لقد قتل أكثر من سبعمائة جندي إسرائيلي وآلاف الفلسطينيين والمقاتلين اللبنانيين وكذلك المواطنين . وبرغم أن الاتجاه السائد في إسرائيل قد أوقع باللوم على وزير الدفاع (أريئيل شارون) الا أن الحقيقة هي أن بيغن كان يعي تماماً أن ليس بمقدور أحد أن يتنبأ بطول ونتائج الحرب هذه أو أية حرب أخرى .

إختار حزب الليكود عام ١٩٨٣ اسحق شامير خليفة لبيغن في رئاسة الوزراء . وقد تميزت فترة حكمه ببروز جيل الشباب من الليكود ، كان بعضهم سلالة لعوائل

سياسية جاؤوا ليشغلوا مناصب هامة في الحزب والحكومة . ويمكن تقسيم هذا الجيل الى مجموعتين : المجموعة الاولى وهم أولاد الآباء من الأشكينايز الذين كانوا قادة الحزب ، وقد عمدت الصحافة هذه المجموعة بأسماء كان بعضها مثيراً للسخرية والبعض الآخر عاطفياً مثل (الأمراء) وأبرزهم (بنيامين بيغن) و(بنيامين نتنياهو) و(ايهود اولمرت) . وتألفت المجموعة الثانية من السيفارديم وكان معظمهم أطفال موجات الهجرة الجماعية التي وصلت عام ١٩٥٠ . وكانوا ذوي خلفية مختلفة تماماً عن المجموعة الاولى ، فقد عاشوا في مدن أكواخ ونحيلات ولقوا الذل والحرمان اللذين تحولوا الى مذهب الفعالية السياسية .

وأمتت أسلوبية حزب الليكود تحت زعامة شامير هجيناً بين العرض المضطرد للجل الغربي للقوة وفوضوية الشرق الأوسط ، فكان يصل أعضاء الحزب الى مقر اجتماعهم بسيارات (ليموزين) بسائق خاص وهي مزودة بالهواتف السامية تعبيراً عن الحالة الجديدة التي هم فيها . وهكذا أظهر حزب الليكود ولكن بعد خمسة عشر عاماً نفس التبجحية والفسادية ورضا الذات التي ميزت حزب العمال في فترة السبعينات .

دب بين الإسرائيليين مطلع التسعينات شعور أن التاريخ يعيد نفسه ، فقد إتهم حزب الليكود بتناسي الشعب بعد أن جند اليهود السفارديم لمهمة بناء الحزب . وخيم جو من التوتر العرقي والجنسي بلغ أشده في انتخابات الليكود الداخلية التي جرت مستهل عام ١٩٩٢ اذ اتهم مؤيدوا نائب رئيس الوزراء (ديفيد ليفي) وهو اليهودي القادم من بلاد المغرب شامير وأتباعه ومعظمهم من أصل أشكينايزي بمعاملتهم ومجتمعاتهم كشعب أدنى مستوى منهم ، فلا عجب اذن أن يخسر الليكود انتخابات عام ١٩٩٢ لصالح راين وحزبه . ويضع معظمهم اللوم في هذه الخسارة برغم ما تبدو عليه كـرغبة طبيعية نحو تغير سياسي وتاريخي على عتبة دار شامير وفشله في معالجة اياً من قضايا إسرائيل اليوم الجوهرية .

ولا عجب في القول أن أهم قرار اتخذته شامير في مجرى حياته السياسية بأكملها هو أنه لم يقرر . فقد أثقل عليه بعض من كبار ضباطه ووزرائه طلباً أن يصدر أمراً بالهجوم على العراق أثناء حرب الخليج رداً على ضرب العراق تل أبيب بصواريخ سكود ، بيد أنه رفض أن يتخذ قراراً خشية أن يعارض تدخل إسرائيل ميل الدول العربية المؤيدة للغرب والمشاركة في القتال ضد العراق ، وربما أحل التدخل الإسرائيلي العسكري التحالف الدولي ضد العراق والذي جاهد الرئيس بوش لخلقه وبالتالي تهديد العلاقة الإسرائيلية الأمريكية التي كانت بوادر ضعفها آخذة بالنمو قبل هذا الوقت . بيد أن سخرية هذه السياسة برغم قرار ضبط النفس لإرضاء الرئيس بوش لم تكن بالأمس أفضل حالاً من اليوم . لقد رفض شامير ولما كان يشغل منصب وزير الخارجية في إدارة بيغن توقيع اتفاقية سلام مع مصر ، ثم لم يألُ جهداً لما أصبح رئيساً للوزراء لمطاردة أي مسعى أمريكي ليأتي بالإسرائيليين وأعدائهم العرب سوية إلى طاولة المفاوضات . وحقيقة شامير ذلك الرجل الشكوكي والمتحجر القلب هي أنه لم يسع البتة صوب حسن النية حيال العرب . أنه لا يمنحهم ثقة ، فهو لم يزل يؤمن بأفكاره السابقة في مجموعة آرغون وعصابة شتيرن : «أن العرب لا يكثرثون لأمر غير إضعاف إسرائيل وتوجيه ضربة قاضية لها» .

لقد أغشى شامير بصره حيال متطرفي الجناح اليميني يقودهم أرئيل شارون عندما واصلوا بناء المستوطنات الجديدة في الأراضي المحتلة وعلى مدى أيام الزيارة التي أجراها وزير الخارجية الأمريكي (جيمس بيكر) لإسرائيل عام ١٩٩١ . وعليه رفض الرئيس بوش في أيلول عام ١٩٩١ كعقوبة وانتقام من هذه السلوكية الموافقة على منح إسرائيل قرضاً بمبلغ عشرة مليارات دولار كانت إسرائيل قد طلبته لتمويل عملية استيعاب اليهود السوفيت المهاجرين . وقال الرئيس بوش في خطاب له لشرح أبعاد هذا القرار : «إن إسرائيل ليست في موقع العمياء أو الصماء ، فكل مواطن إسرائيلي مدين لوزارة المالية الأمريكية بحوالي ألف دولار» . إلا أن شامير لن يجد فرة

إذا ما خيروه بين الهجرة أو المستوطنات أن يقطع أياً من يديه ، فقرر المضي قدماً في بناء المستوطنات ولم يحصل على مال يذكر .

كان متسدى الحوار داخل إسرائيل جد ضيق برغم الوجود الكلي للنقاش السياسي ، ويفتقر معظم سياسة إسرائيل الى الثقافة والخلفية الادبية للحديث بلغة مقبولة ، وأطبقت الكنيسة على كل روح للمزحة أو الطرفة والتي قد تزين مواضيع عملة كانت تطرح أمامها وطفى طابع الملل والجدية المفرطة في حديث أعضائها الذي غالباً ما كان يفور حتى يبلغ الصراخ .

لقد إتهم شامير عام ١٩٩٠ (عيزر وايزمن) أكثر وزرائه نضوجاً (وقد شغل منصب وزير الدفاع في حكومة بيغن) بالخيانة لأنه نظم سرّاً عقد إجتماعات مع الفلسطينيين . ولم يتوانى بيغن أثناء حكمه في استخدام الغوغائية في خصامه مع حزب العمال ، وغوغائيته لم تتوقف عند حدود العنف الكلامي بل انه غطى جدران البنايات الخاصة بالعمال وكذلك نوادي الجناح اليساري بالشعارات المعادية ، وقام بعدة محاولات لإضرار النيران في منازل سياسيي الجناح اليساري . ورشق مؤيدو الليكود إستناداً لتعليقات زعيمهم بيغن حرفياً الزعماء اليساريين بالطمارة وهاجموا إجتماعاتهم السياسية .

وفي خضم هذا الجو المتوتر والتشاؤمي ، ناشدت الصحافة أن يبدي الإسرائيليون إهتماماً لسؤال يتعلق باي شكل ستتقارب فيه هذه الحرب ، وهو سؤال لا يعني هل باستطاعة إسرائيل أن تتحمل موقفاً يشهر فيه أخ سلاحه بوجه أخيه ، وانما ما هو الدافع الذي سيفضي الى مثل هذه الحرب : هل هو الضغط الأمريكي لإخلاء المستوطنات في الأراضي المحتلة الذي سيجعل من الإسرائيلي عدواً لأخيه الإسرائيلي؟ هل سبق السيف العذل وبلغ التوتر الإجتماعي والإقتصادي الزبى؟ اي دور سيضطلع فيه الجيش حيال الحرب الاهلية؟ هل ستخضع الحرب جوانب أخرى كحرب

يوغوسلافيا؟ وهل ستحافظ على حياديتها أم ستتسظى الى عدة طوائف؟ إن الإستغراق العميق في أسئلة كهذه هو برهان على وجود عدة عوامل نفسية كامنة . اذ يؤمن بعض الإسرائيليين أن مناقشة هذه الأسئلة ستقلب الوضع رأساً على عقب ، بينما استوقف الآخرون إيمانهم أن صراعات إسرائيل الداخلية سواء أكانت بين الدينيين والديويين أو بين اليساريين واليمينيين أو بين السفارديم والأشكيناو أو الأغنياء والفقراء أو أنها كانت تتعلق بالقضية الفلسطينية ستجد حلها الوحيد في مثل هذه الحرب .

وأيقن كثير من الإسرائيليين خلال حقبة الثمانينات أن ما من أحد يقف وراء اي عنف سياسي اذا ما اندلع في حرب أهلية غير الحاخام (ماتير كاهانا) ، الذي بزغ نجمه أواخر الستينات في الولايات المتحدة الأمريكية عندما أسس (عصبة الدفاع اليهودي) وحمل شعار (لن يحدث ثانية) الذي يعني فيه أن اليهود لن يكونوا ضحايا بعد اليوم . أخذت هذه العصبة على عاتقها مهمة توفير الحماية للجماعات اليهودية في نيويورك والتي كانت عرضة لكثير من التهديدات من الجماعات العرقية المجاورة لهم . الا انها غدت ومع مرور الزمن مجموعة من اليهود السفاحين وقطاع الطرق لا يردعهم رادع لاستخدام السلاح والعنف ضد كل من يظنون به عدواً لليهود من الأمريكي الأسود الى الدبلوماسي السوفييتي .

هاجر كاهانا الى إسرائيل مطلع السبعينات بعد أن أضحي ارباكاً لمكتب التحقيقات الفدرالي وإزعاجاً للاتجاه السائد لتأسيس اليهودية هناك . وفي إسرائيل وجه نشاطه الإرهابي نحو تأسيس حركة جديدة داخل إسرائيل عرفت باسم (كاخ) التي تعني (هكذا) أو (هذا هو الطريق) . حاولت الحركة أن تجد لنفسها مكانة كجزء من الحق الإسرائيلي الموروث ، فبنت روابط مع اليمينيين خلال ذروة نضالها لإطلاق سراح اليهود السوفييت . لقد شاع في مطلع الستينات أن رجال الأعمال الإسرائيليين

اليمينيين قد ساعدوا بتهريب سلاح عصابة كاهانا للدفاع اليهودي .

لم يولد كاهانا ليضع نفسه في إطار العمل السياسي المنظم ، انه ذئب وحيد . لقد ترعرع على الخوف وجنون العظمة والمقت ، وما جاءت منظمته داخل إسرائيل الا لتؤكد الكره العنصري ضد العرب وان تلجأ الى المقاومة الارهابية ضد المعارضة السياسية . انها حركة غير ديموقراطية المسعى وفاشية الأصل . لقد أعادت مناداته بنقاوة الجيش اليهودي وإنهاكه الدائم بمنع التزاوج العربي - اليهودي (لقد رفض حتى الصداقة البريئة بين الرجل العربي والمرأة اليهودية) الى الأذهان النظريات العنصرية النازية . ثم تم وضع أعضاء المنظمة تحت الرقابة الأمنية الدائمة بعد أن تجاوزوا في العنف حدودهم وزجوا ببعض عناصرها في السجن ومن ضمنهم كاهانا نفسه .

ومع هذا نجح كاهانا عام ١٩٨٤ في الوصول الى الكنيست بعد أن حصل على موطنيء قدم له بين كسارات سكان السفارديم . بيد انه ما برح حتى في أوج شعبيته غريباً على السياسة الإسرائيلية فلكنة حديثه الأمريكية وأسلوبه السياسي الأجنبي وعالمه المشوش قد أضفت عليه وعلى مجموعته صورة السفاحين . لقد رفض بعد انتخابه أن يؤدي القسم للدولة وادعى انه سيعلمن ولاءه للرب . بعدها أعلنت الكنيست أن حزبه غير قانوني وأصدرت تشريعاً يمنع تحريض الكره والعنصرية والعنف ، واضعة بذلك نهاية لحياة كاهانا البرلمانية . لكن مشروع هذا القرار لم يكن من بنات أفكار اليساريين (الذين دعموا تشريعه) ، بل هو الليكود تعاونه بعض الأحزاب الصغيرة الأخرى التي تقف على الجانب اليميني البعيد بعد أن أدركت أن موقع كاهانا سيهدد موقفهم ويجردهم من مقاعدهم البرلمانية الثمينة في الكنيست .

إغتيال كاهانا في تشرين الثاني عام ١٩٩٠ في فندق مانهاتن أثناء محاضرة كان يلقيها على مجموعة من مؤيديه الأمريكان ، وحامت الشكوك حول رجل مصري متطرف

كان يقطن الولايات المتحدة في تدبير عملية الإغتيال ، ثم أطلق سراحه لعدم كفاية الأدلة . أن الإنجاز الأخير الذي تركه كاهانا هو كشفه للجانب المظلم من الشخصية الإسرائيلية العنصرية ضد العرب .

تمثلت هذه العنصرية في المفهوم السياسي (الترحيل) التي تعني إعادة توطين العرب (بمحض ارادتهم) خارج إسرائيل . لقد دعى الاتجاه السائد للصهيونية الى توفير الدعم المالي والمعنوي لتشجيع العرب ترك ديارهم والسكن في المناطق المجاورة . إن اياً من الخطط العملية الإسرائيلية لن تنجح بالقدر الذي نجحت فيه خطة مفهوم نقل العرب أو مفهوم أن يفسح الفلسطينيون الطريق لليهود . بيد أن مفهوم النقل أصبح فيما بعد موضوعاً هامشياً في حوارات الصهيونية وأحاديثها المحظورة .

لم يكن كاهانا بالمؤيد الوحيد لهذا المفهوم ، ولو كان الأمر كذلك لأخذ معه مفهومه الى قبره . فقد بدأت أحزاب يمينية صغيرة وكذلك عناصر من الليكود بتطبيق هذا المفهوم حتى بات جلياً انه قد انتشر كالنار في الهشيم . فهو لم يعد مجرد طموح لبعض الأحزاب المنشقة الصغيرة بل حتى للصهيونية السائدة في إسرائيل .

لقد تأسس بعد قرار الكنيست عام ١٩٨٨ إلغاء مجموعة كاهانا حزب جديد كان شغله الشاغل هو التمسك بمفهوم النقل وأطلق على نفسه حركة (موليديت) أو أرض الآباء يتزعمه الجنرال السابق (ريحافيم زئيفي) المعروف سابقاً باتجاهاته لحزب العمال . وحصل الحزب على ثلاثة مقاعد له داخل الكنيست عام ١٩٩٢ وشارك مع حكومة شامير الائتلافية بان شغل منصب وزير . وبهذا يكون شامير قد شرع قانوناً مفهوم الترحيل .

إن من يستخدم كلمة (ترحيل) في إسرائيل اليوم لا يشير اليها في معناها الأصلي : حركة تطوعية للفلسطينيين تعمل تحت إشراف دولي . بل هي تعني في

إسرائيل اليوم طرد العرب من إسرائيل والفلسطينيين من الضفة الغربية وقطاع غزة .
إن من يؤمن بهذا النوع من التطرفية يكون قد جلب على إسرائيل سوداويته العمياء .

الفصل العاشر

عربنا

قال (عبد السلام مناصرة) وقد أوما بيده صوب تلة صغيرة : «تلك هي قريتي» .
لم تكن تعج بمثل هذه البنايات والشوارع ولم أعرف فيها بوادر للحياه غير المزارع
الخضراء بعد آخر موسم أمطار . كانت حقول القمح تغطي التلال من الأفق الى الأفق
فأمسك مناصرة بقبعته الصوفية البيضاء وحقن نحو التلة وأطال النظر وغاص في
أغوار تفكير عميق واستجمع صورا أعادت إليه حال القرية قبل نحو من خمسين عاماً
حيث تاريخ ولادته .

تقع التلة في وادي (جزريل) على مساحة ليست بعيدة عن ضاحية (ارما جيدون)
الجبليّة ، وتلك هي التسمية اليونانية لـ (ماجيدو) . لقد شهد تقاطع الطرق هذا بسبب
موقعه الجغرافي الاستراتيجي العديد من المعارك بضمنها غزو المصريين والبابليين لما
كان يعرف مسبقاً بـ (مملكة إسرائيل) ، وتشير اليه المسيحية بالمكان الذي ستدور فيه
رحى المعركة الحاسمة في (يوم الدينونة) . لقد استولى الجنود الإسرائيليون أثناء حرب
الاستقلال عام ١٩٤٨ على هذه القرية ، وهرب منها سكانها وبضمنهم عائلة مناصرة
الذي كان آنذاك طفلاً في سنته السابعة ، ثم أزال الإسرائيليون ملامح القرية عن بكرة
أبيها بجرافاتهم .

ويعترف مناصرة «كنا في قرية عسكرية ، وبينما كنا نرد على نيران القوات اليهودية
اعترانا خوف متزايد أن اليهود لن يتركوا الأمر يذهب سدى وسينتقموا منا ، فقررنا

إخلاء الأطفال والنساء أولاً ثم تراجع المقاتلون الرجال بعد أسبوع وهجروا القرية .
كنا الوحيدة بين جيراننا من القرى الذين قاتلنا على هذا النحو بينما ظلت بقية القرى
سائلة دون أذى . لقد شددنا الرحال وحملنا الرضع والصغار وبعض الأفرشة على
ظهور الحمير وسار الرجال على أقدامهم طوال الطريق البالغ أكثر من عشرة أميال الى
(الناصرة) .

لم يكن قدر مناصرة مختلفاً بعض الشيء عن ذاك الذي واجهه نحواً من ستمائة
ألف فلسطيني سواء أولئك الذين فروا أو طردتهم القوات الإسرائيلية من أكثر من
(٤٥٠) قرية في خضم لهيب الحرب . أما الاختلاف الكبير فهو أن عائلته الكبيرة
الحجم لم تهرب الى الجانب الآخر من الحدود بل بقيت داخل المناطق الإسرائيلية
وتحركات الى أقرب مدينة مجاورة - الناصرة - التي نشأت منها عائلة المسيح .

عاش مناصرة طفولة جريئة جعلت منه رجلاً قاسياً فهو يقول : «لقد صاغت
تلك الرحلة حياتي ، انني أحيا شعوراً مرأياً في اللاإنتهاء وأشعر كأني رجل طريد قد فقد
ذراعه وبيته وجذوره . كانت عائلتي ميسورة الحال ثم غدت بين عشية وضحاها
معدومة المال» . وقد شكلت زيارته الأولى أثناء فترة صباه الى الموقع الذي كان يوماً ما
قريته الحدث الأكثر مرارة في حياته فهو يقول : «لقد هدمت بيوتنا من أساساتها
ويحرث أرضنا الخصبة اليوم سكان من مناطق الكوتيو المجاورة . لقد عرفت حتى
الأرض التي كان عليها بيت أهلي شاخاً . إن مسيرتي على الأرض التي كانت يوماً ما
قريتي قد أزدتني المأ على ألمي فجعلتها مذ حينها عادة بل زيارة حج أدفعها» . أن
ذكريات مناصرة هي جزء من شعور بالحنين يعيشه العرب الإسرائيليون للأرض التي
تركوها خلفهم . وهذا السبب الذي يجعلنا نلمس حالة التوق ومشاعر الألم التي تتسم
بها مذكرات العرب الإسرائيليين والكتاب الفلسطينيين للعالم الذي اختفى .

حافظ النسيج المدني للحياة الفلسطينية الى حد ما على خيوطه في حرب ١٩٤٨ ،

فقد ازدهرت تجارة وحضارة المجتمع الفلسطيني في المدن الكبيرة مثل حيفا ويافا واتسعت الحياة السياسية النشطة بكثير من الاحزاب . كانت تلك المدن أقل تطوراً من مدينة اليهود في تل أبيب التي بنوها تحت الحكم البريطاني بيد انها كانت أكثر تطوراً من معظم المدن الأخرى في العالم العربي . لقد فقد الفلسطينيون في (كارثة) ١٩٤٨ صفوتهم الحاكمة وعقولهم وقادتهم وبناءهم السياسي وحتى قاعدتهم الاقتصادية .

يرجع تاريخ الصور القديمة في ذاكرة الفلسطينيين الى حرب ١٩٤٨ وماقبلها . فتلك الصور المصغرة كانت نظرة وتبدو أنها تنفس عن أريج بلادها ، وسهل عليك أن تميز السهول والوديان والتلال والأنهار المنحنية والقلاع والحصون القديمتين وتلك الصور تبين أيضاً الطرازات المختلفة للبناء العربي . وتلك القرى كانت واقعة على قمم التلال وكأنها جزء لا يتجزأ من الطبوغرافية . أما حال اليوم فغيره للأمس لذات المساحة من الارض . لقد حول البناء الإسرائيليون المتحمسون مجرى هذا النهر وذاك الى قنوات تصريف للمياه وأعادوا تنظيم قمم التلال بجرافاتهم وحولوها الى تجمعات مدنية خليطة بيوت كثيبة موحدة الطراز .

ومع هذا يبقى القول أن عائلة مناصرة قد تكون أفضل حالاً من غالبية الفلسطينيين الذين انتهى بهم الحال في مخيمات لاجئين في البلدان المجاورة . وكذا قد يحكم عليها مراقب ما موضوعي ، بيد أنها للفلسطينيين مأساة يمكن تشخيصها بثلاث مراحل هي : الخيبة فالإذعان فالعودة الى الجذور . لقد مر مناصرة بهذه المراحل الثلاثة وهذا ما يحملنا على القول أن تجربته الذاتية هي انعكاس لتجربته السياسية التي يتقاسمها مع كثير من أبناء شعبه .

إلتحق مناصرة في فترة شبابه بالحزب الشيوعي الإسرائيلي الذي كان المدافع الأقوى عن العرب الإسرائيليين ، وكان الحزب الإسرائيلي الوحيد الذي أرشد بالتعايش المشترك السلمي بين العرب واليهود وقبل كلاهما أعضاء في المجتمع بعد أن

رفضت جميع الاحزاب اليهودية - الصهيونية أن تقبل بين صفوفها أعضاء من غير اليهود. وربما كان الحزب الشيوعي الإسرائيلي الحزب الوحيد الذي نجح في السنوات الاولى بعد مأساة ١٩٤٨ في اقل تقدير أن يعبر عن الطموح القومي الاصلي للإسرائيليين العرب. ولهذا نرى أن كثيراً ممن ساندوا الحزب الشيوعي لم يكونوا في الحقيقة شيوعيين.

لما يزل الكثير من الفلسطينيين اللاجئين بعد الأشهر الاولى من حرب الإستقلال يؤمن أنه عائد الى وطنه عاجلاً، وأن الواقع الذي هو فيه الآن مكرهاً زائلاً، وهنا يتذكر مناصرة بعض احتجاجات أبناء عائلته الذين إستأصلهم هذا الواقع الجديد من جذورهم والتي رفض فيها البعض حتى أن يغسل أو يغير ملابسه طالما هو باق خارج بيته. وذهبت أقلية من مؤيدي الشيوعية تعلق النفس بآمال سرية أن معجزة ستزل وستحل فيها دولة العرب بدل دولة اليهود القائمة الآن. لقد أيد معظم العرب الحزب الشيوعي وأعطوه أصواتهم تعبيراً عن عمل احتجاج أكثر من أن يكون ايماناً بأيديولوجيته.

عاش العرب الإسرائيليون في السنوات الأولى بعد الحرب تحت الادارة العسكرية برغم حقيقة كونهم قانوناً مواطنين على قدم المساواة مع اليهود وأن لغتهم العربية لغة رسمية في البلاد مع اللغة العبرية. لقد فرقتهم الدولة عن اليهود فكانت ضد كل ما فعلوه أنى ذهبوا وهذا هو واقع الحال. لقد أحدثت من خطواتهم كثيراً، وهذا التمييز ما برح اليوم قائماً جلياً حتى بعد مرور ست وعشرين عاماً على رفع الإدارة العسكرية. لقد جردوا العرب من كامل الخدمات المدنية وأعفواهم من الخدمة الوطنية (العسكرية) الإجبارية في قرار إتفق عليه الطرفان: فالدولة اليهودية لا ترغب في أن تجند العرب الذين يبقى ولاءهم لدولتها محط شك دائم، كما لا يرغب العرب الإلتحاق بقوات ستجبرهم يوماً ما في مواجهة القياس الأقرن في خدمة دولة كانت في

حرب مع إخوانهم وأخواتهم .

لقد شجعت السلطات الإسرائيلية مجموعة صغيرة من الأقلية العربية الإسرائيلية للتطوع في الخدمة العسكرية بعد أن رأت في هذا الأمر اختباراً أخيراً لعباد الشمس في مدى انتسابهم وولائهم لدولة اليهود . وكان معظم هؤلاء من القبائل البدوية التي أبقتها طبيعتها البدوية بعيدة عن المزارعين وسكان المدن من أصل عربي ، يضاف إليهم البدروز (وهم مسلمون يتطلب ولاؤهم تعاليم دينية تبقى سرية عن الناس الإعتيادين) . كانت الحكمة وراء هذه السياسة الإسرائيلية هي الحكمة الرومانية القديمة (فرق تسد) .

وبلغت نسبة البطالة بين العرب الإسرائيليين على الدوام نسبة أعلى من اليهود الإسرائيليين ، حتى وصلت عام ١٩٩٢ الى الضعف تقريباً . ولا يوجد في إسرائيل جامعة عربية واحدة برغم وجود ست جامعات يهودية وقرابة عشر كليات للتعليم العالي أو أكثر . ويلقى الخريجون العرب من المؤسسات الإسرائيلية التعليمية ظرفاً أقسى للحصول على فرصة عمل من ذاك الذي يلقاه زميلهم اليهودي . ولا يحق لهم الوصول الى مؤسسات التعليم العالي أو المؤسسات العلمية والبحثية لأغراض التعين ، وهذا الأمر محرم تماماً ضمن مجال عمل المؤسسات الصناعية-العسكرية . لقد بقي حوالي ٤٦٪ من الخريجين العرب في العقد الماضي بلا عمل مقارنة بـ ١٥٪ من الخريجين اليهود . وخلاصة الأمر أن الخريجين العرب ربما يجدوا لهم موقعاً في سلك التعليم .

وعلاوة على ذلك يبلغ متوسط عمر العربي الإسرائيلي واحداً وسبعين عاماً وهي نسبة أقل بثلاث سنوات عن متوسط عمر اليهودي الإسرائيلي . ويقطن العرب في بيوت فقيرة في قرى أو مدن تتدنّى فيها الخدمات البلدية كثيراً تحت مستوى الخدمات المقدمة لليهود ، فالحكومة مهتمة أكثر بتقديم المصادر والدعم المالي لتطوير الصناعة في

المناطق اليهودية مفضلة أن تدع القطاع العربي باق زراعياً، وتلك صورة مشؤومة تعيد إلينا حال اليهود في قذارات مدن أمريكا الدأخلية. فالإهمال في قرى ومدن العرب متفش: المجاري مغلقة والطرق غير معبدة وأرصفت المشاة قليلة والخدمات العامة معدومة والعيادات والمدارس لا تكفي للحاجة المرجوة منها كما ارتفعت نسبة الجريمة، وتعاطي المخدرات أخذ بالازدياد.

كما يتجلى أماننا ذلك التناقض الصارخ بين حساسية الحكومة المفرطة تجاه الأرثوذكسية اليهودية وبين تجاهلها للوجدان العربي، فتراها أنشأت الطرق وأقامت المنازل على أراض كانت مساجد ومقابر وأماكن مقدسة للمسلمين، ويكفي القول أن الحكومة شيدت فندق (هلتون تل أبيب) عام ١٩٦٠ على موقع مقبرة إسلامية. وعليه حاول الحزب الشيوعي الإسرائيلي جاهداً محاربة سياسة التمييز هذه وناشد التنفيذ العملي لسياسة المساواة والتي عبر عنها إعلان الاستقلال حبراً على ورق.

لقد رأت الحكومة الإسرائيلية في الحزب الشيوعي نظيراً للقومية العربية وهذا ما يفسر لم لاقى الحزب الشيوعي المرتبط بروابط قوية مع الاتحاد السوفيتي مشقة في تحقيق أهدافه، فلم تجد مناداته منذ عام ١٩٤٩ بوضع نهاية للحكم العسكري صدىً لدى الحكومة. وقد توقفت إداره العسكرية في حقيقة الامر بقرار من حزب العمال عام ١٩٦٦ بعد أن ظهر أن الاقلية العربية لم تعد تشكل خطراً جدياً على إسرائيل.

فقد أدرك معظم العرب الإسرائيليين بعد السنوات الأولى من الغضب والإحباط أن عليهم القبول بالوجود الإسرائيلي، فليس بمقدورهم واخوتهم العرب الفلسطينيين الواقعين على الجانب الآخر الحصول على فرصة واقعية بإقامة دولتهم على حساب دولة إسرائيل: فإسرائيل قوية ولها جيش حديث أثبت نفسه في حروبه مع الدول العربية المجاورة، والزراعة فيها قد ازدهرت والصناعة شقت الطريق نحو البرقي وعصرية اليهودي الإسرائيلي بدأت تتسلل الى أعماق المجتمع العربي في إسرائيل

الذي حاول كثير من أهليه سيما الشباب أن يحاكيه ويصبح جزءاً من نمط الحياة الإسرائيلية الغربية ، وعبد السلام مناصرة واحد من أولئك الذين خلعوا ملابسهم القديمة وارتدوا أزياء غربية حديثة وهو يتكلم العبرانية بطلاقة ويجيد حتى عاميتها . لقد عمل مناصرة بناءً لحساب مقال يهودي : «انني اؤمن بالتعايش السلمي بين اليهود والعرب ، وإنني أعمل لهذا الشيء بصفتي سياسياً نشطاً» .

لم يكن هذا التفاعل المشترك محط اختيار الفرد بل هو وليد الظروف . لقد وجد أغلب العرب فرص عمل لدى المستثمرين اليهود وهو أمر قاد الى تزايد الترابط بين المجتمعين . بيد أن هذا الترابط لم يجلب معه اي تغير نظامي أو اجتماعي أو انه أزال الإنحياز ضد العرب وغير من ملامح صورتهم لدى اليهود . بل انه ترابط أجبر كلا المجتمعين على التكيف مع حقيقة أن كليهما يعيش بجانب الآخر ويتفاعلان اليوم بعد الآخر .

ويظهر اليوم كثير من العرب الإسرائيليين رغبة نحو التفوق . إنني أتذكر (رفعت طارق) الشاب القادم من يافا يوم لعب مرة في صفوف المنتخب القومي في السبعينات . لقد أثارت مشاركته في الفريق دهشة عشرين ألف متفرج لم يصدق معظمهم أن يرى مشهداً يلعب فيه عربياً واحداً بجانب عشرة لاعبين يهود فأظهروا علامات الإنحياز ونادوا عليه بأسماء إزدراء وعنصرية . وهنا يقول رفعت : «لم يكن أمراً سهلاً بيد انني تناسيت الجمهور وصيحاتهم بعد برهة من الزمن ومضيت ألعب المباراة بعد الأخرى حتى تقبلني الجمهور بل إنه بدأ يعبر عن إعجابه بي» . واليوم يرى رفعت بعين راضية الكثير من اللاعبين العرب قد حذوا حذوه بعد أن غدا هو المدرب الناجح والشعبي لأحد النوادي الإسرائيلية المرموقة بكرة القدم . بيد أن بعض الاوقات الصعبة ما برحت تمر بين الحين والآخر على هذه المباراة أو تلك وتتحول فيها ساحة اللعب الى حدث للإذلال أو اللعنة . ومع هذا يقبل اليوم غالبية اليهود اللاعبين

العرب بين صفوفهم وهو (قبول) أشبه بحال البيض الذين يمتقنون الرجل الأسود ولكن يقرون بموهبته الرياضية ولا يمانعوا في أن يضعوه بين صفوف فريقهم . واستغل ساسة اليهود ظهور المثليين والرياضيين العرب كدليل أن التعاون العربي-اليهودي ممكن برغم كل شيء . وقد بدا أن العديد من العرب الإسرائيليين شعروا بالحاجة إلى (تقليد السيد) . لقد عبرت الاحتجاجات العربية في السنوات العشرين الأولى بعد التأسيس عن نفسها بالتجمعات السياسية السلمية وبالمسيرات والمظاهرات ، ثم أخذ نمط الإحتجاج العربي يتغير على نحو متطرف ولم يعد يخشى شيئاً ليحيل مظاهراته ضد الممارسات العنصرية للسلطات اليهودية إلى أعمال عنف تتمثل بغلق الطرقات وإحراق الإطارات والتصادم مع رجال الشرطة . هذه التجربة منحت العرب الإسرائيليين من الشباب والراديكاليين الثقة للمطالبة بتغيير البناء السياسي البالي وطمس التقاليد العتيقة داخل مجتمعاتهم .

لقد أحدثت العصرية تغيراً في البنية الاجتماعية الاقتصادية للمجتمع العربي إذ هجر معظمهم الزراعة واتجه صوب العمل مقابل الأجرة في الصناعة والتجارة والخدمات داخل قطاع اليهود ، وهي حالة ولدت معها الرغبة نحو خلع الصفة المدنية على المجتمعات العربية ، لقد ارتفع المستوى المعيشي وبدأت في الظهور علامات الوفرة والاستهلاكية .

كانت عائلة (حمولة) القوية واحدة من أعمدة حياة المجتمع العربي الذي تلعب القرابة في سياسته دوراً هاماً . فقد ضمت قائمة المنتخبين والحركات السياسية لانتخابات البلدية عام ١٩٨٩ أسماء يرجع نسبهم إلى عائلة الحمولة التي لعبت ك شبكة سياسية واقتصادية واجتماعية ومازال لها وجودها في القرى والمدن العربية . بيد أن ملامح نفوذها أخذت بالإنحدار برغم بقاء وجودها حتى اليوم . فدور الأب الرئيس في العائلة قد تآكل وشرع أبناء العائلة باتخاذ قراراتهم المبنية على حسابات عملية أكثر

من أن تستند على روابط عائلية .

أما موقع المرأة في المجتمع العربي الاسرائيلي فما برح متخلفاً . وبرغم حقيقة أن دور المرأة في بعض المجتمع اليهودي الأرثوذكسي لا يقل عنها تخلفاً في نواح عديدة ، فإن المرأة العربية أكثر عرضة للإيذاء نتيجة ما تسمى بظاهرة (الانتقام العائلي) أو قتل المرأة التي ترتكب خطيئة دفاعاً عن (شرف العائلة) ، كأن تفقد عذريتها قبل الزواج أو أن يكون لها علاقات غرامية وهي متزوجة . الا أن الزمن قد غير كثيراً من هذا القيد وخرجت المرأة العربية من نطاق مهنة ربة بيت الى مجال العمل في التجارة ودخلت الجامعات وشاركت في السياسة كما انبثقت عام ١٩٩٢ أول منظمة لنساء عرب إسرائيل نادى باتخاذ إجراءات صارمة ضد جرائم (شرف العائلة) .

لقد نادى علماء النفس العرب والإسرائيليون معاً بضرورة تغريب العرب وبالخطى صوب التقنية الحديثة والقيم الديمقراطية (عملية إسرائيلية العرب) ، وهذه ليست بأي حال من الأحوال مباركة خالصة للمجتمع العربي لانه ستأتي في أعقابها أزمة حقيقية بالهوية الذاتية وهي التي ستعكس بطريقة أو بأخرى مشاكل الهوية الذاتية للإسرائيلي اليهودي نفسه .

إن على المجتمع العربي أن يعيش مع عواقب التناقض بين طبيعة إسرائيل لليهودي الإسرائيلي وبين قيمها الديمقراطية ، وهو تناقض يبدو أولاً بذني تأثير على الأغلبية اليهودية بيد أنه في واقع الأمر ذو أثر كبير على الأقلية العربية . إذ أن على العرب الإسرائيليين أن يتقبلوا حقيقة انهم برغم كونهم مواطنين داخل دولة إسرائيل لن يلقوا معاملة مساوية لمعاملة أقرانهم اليهود ، فاليهودي في دولة اليهود يتم بامتيازات معينة أولها قانون العودة الذي يمنح اليهودي فائدة أساسية يفتقر إليها اليهودي ، وهو ما زرع حالة من عدم الرضا بين صناع القرار الإسرائيلي الذين نجح بعد كثير من التحايلات في إصدار قوانين إضافية لصالحهم منها قانون تخصيص

الأطفال ورهن العقار . ولكي تبقى هذه القوانين شرعية في إطارها ولكي يتجنبوا الدفع للمواطن العربي مخصصات بدل أطفال لجأ المشرعون والسياسيون الإسرائيليون الى ابتكار نغمة (مخصصات الخدمة العسكرية السابقة) وهي تعني أن الطفل يستحق هذه المخصصات إذا كان رئيس العائلة قد خدم مسبقاً في الجيش الإسرائيلي . وحيث أن غالبية العرب العظمى لا يحق لهم أو انهم لا يرغبون بالخدمة في الجيش الإسرائيلي فقد أمسوا جميعاً غير مستحقين لهذه المخصصات . كما شرعوا حيلة شعوزة مشابهة قصدت تجريد العربي من مخصصات رهن العقار ، ولم تشمل هذه المخصصات العجز وغير المؤهلين طلياً وكذلك الأرثوذكس الذين احتجوا علناً ضد هذه اللاعذالة .

يتألم اليوم عرب إسرائيل بسبب الصدام بين الحضارة العربية واليهود ويسبب التشكك حول إنقسام ولائهم وجول حقيقة هويتهم : هل هم إسرائيليون؟ أم أنهم عرب؟ وهل يمكن أن يكونون عرباً وإسرائيليين معاً؟ أم أنهم ليسوا بأولئك أو هؤلاء؟ . وحقيقة الأمر أن العرب الإسرائيليين يعيشون في الليمبوس . فالغرب يسموهم باسم (عرب ١٩٤٨) . أو أكثر إزدراءً من هذا باسم العرب المتأسرلين بينما يفضل اليهود الإسرائيليون تسميتهم باسم (الأقلية) . أو (قطاع العرب) أو ببساطة (عربنا) . ويصنف الساسه الإسرائيليون العرب الإسرائيليين ب(المعتدلين) و(المتطرفين) وهو تقسيم يهدف الى مكافأة (العرب الطيبين) وتمييزهم عن (العرب السيئين) وكلا المجموعتين لا تجني فائدة في الواقع العملي .

ولم تأل السلطات الإسرائيلية جهداً في مطاردة الرعاة البدو من العرب إذا ما عبرت قطعانهم الى أرض غير أرضهم وعقوبتهم لهذا الأمر السجن ومصادرة قطعانهم . واذا ما صادرت السلطات الإسرائيلية أرض هؤلاء الرعاة ايضاً فهذا يعني أنها أجبرتهم على ترك مقاطعتهم والتخلي عن الحياة البدوية ولتدفع بهم الى المدينة . لقد سقط حتى العربي (المعتدل) ضحية لعدم الشعور اليهودي هذا .

لقد توجب حتى على العرب الذين لم يدخروا وسعاً ليتعايشوا متوافقين مع الإسرائيليين اليهود وتناسوا المشاكل الناجمة عن هويتهم الذاتية والذين لم يزرعوا بذرة شك حول تعاطفهم السياسي أن يدركوا أن قدرتهم على التألف مع المجتمع الإسرائيلي اليهودي جد محدودة. إن العزل العرقي والخوف والتحاييل قد حال بين العرب واليهود أن يعيشا سوية في مجتمع واحد حتى وإن أوفى العربي بدينه للمجتمع الذي هو فيه بالعملة التي يراها الإسرائيليون عملة صعبة إلا وهي الخدمة في القوات المسلحة والقتال بجانب اليهودي ضد أخيه العربي. ولا يخفي مالك الأرض اليهودي إمتعاضه وهو يؤجر ملكه للعربي. إن الأحياء التي يعيش فيها العرب والإسرائيليون سوية جد قليلة وتتواجد في مدن مثل يافا وحيفا حيث بقي فيها السكان العرب منذ عام ١٩٤٨. وإذا ما استثنينا مشروعاً تجريبياً واحداً لوجدنا أنه من المستحيل أن تعثر على مجتمع ريفي يقطن فيه العرب واليهود معاً ويزرعان الأرض سوية.

وتقدم لنا قضية (ماجد قادر) دليلاً حزيناً آخر. لقد عرفت بنفسني ماجد باسمه الثاني وهو (موشي باركوني) فقد كنت مجنناً ذليلاً وكان هو ضابط الوحدة المبجل. وكانت مهام وحدتنا العسكرية الإستطلاع وجمع المعلومات الإستخبارية والقيام بدوريات على طول الحدود الإسرائيلية مع الأردن ومصر. ويروي من عمل مع ماجد قصصاً مثيرة لا حصر لها عن كفاءته العسكرية.

ولد ماجد في أواخر العشرينات في مجتمع بدوي، وعقد هو وأقرباؤه خلال فترة الثلاثينات تحالفاً مع اليهود المجاورين لهم ودعموهم خلال حرب ١٩٤٨. ثم تطوع ماجد وأبناء قبيلته بعد إعلان استقلال دولة إسرائيل للخدمة في صفوف الجيش الإسرائيلي الجديد الذي أمضى فيه دهماً طويلاً من الزمن. لقد ترقى حتى رتبة عقيد وكان ضابط وحدتنا التي كانت من ألمع وحدات الجيش وجرح أثناء قتاله ضد الارهابيين الفلسطينيين والمتسللين العرب والمهريين وفقد ذراعه وقدمه. وتقلد على

إثرها أعلى وسام تقدير لخدمته ومنحوه اسماً إسرائيلياً هو (موشي باركوني) بيد أنه لم يغير اسمه العربي ولم ينكر دينه . لقد كان فخوراً بنسبه العربي وبالإسلام دينه وبوطنيته الإسرائيلية .

إن مسيرة حياة ماجد وقد وصلنا هذا الحد لتزرع بالفرد انطباعاتاً أن باستطاعة العربي في المجتمع الإسرائيلي أن يخدم الأمة ويعيش فيها بحقوق متساوية وحقوق اليهودي . ولكن وآسفاً فباقي حياة ماجد ستغدر بمثل هذا المفهوم . فبعد أن أنهى ماجد خدمته العسكرية وتقاعد تولى عملاً مدنياً وعاش في مدينة إسرائيلية في الجنوب وبين اليهود . واستمر أصدقاءه القدامى والذين تبوأ بعضهم منصب وزير في الجيش يكونون له الإحترام بيد أن ماجد-موشي يقول : « ليس الإحترام الذي كنت ألقاه منهم سابقاً » . وقد أراد ولده (ماجد الصغير) أن يخدم في وحدة بحرية بيد أنهم ردوا طلبه لأنه من أصل عربي . فالقانون الإسرائيلي لا يجيز إنتساب البدو أو الدروز أو بقية العرب الذين يتطوعون للخدمة العسكرية للعمل كطيارين أو طاقم غواصات أو مقاتلين في الوحدات الخاصة لأنه يرى في العرب خطراً كامناً ، واكتفى بإنضمامهم الى الوحدات العرقية الخاصة بهم . وهكذا لم تجد نفعاً توسطات أصدقاء والد ماجد الصغير بقبوله في سلك البحرية ، فالإضطهاد البيروقراطي كان أقوى منهم جميعاً . لقد أحدث هذا الأمر جرحاً بليغاً في أعماق الأب والإبن ، وغادر ماجد الصغير البلاد الى الولايات المتحدة ما أن أنهى خدمته العسكرية النظامية ، ومات ماجد الأب في شباط عام ١٩٩١ بعد صراع طويل مع المرض أخذاً معه خيبة ظنه عن الواقع الإسرائيلي .

وليس بغريب إذاً أن يتسبب هذا الارتباك الفكري والإحباط السياسي واتساع الهوية الاجتماعية-الاقتصادية والبحث الدائم عن الهوية الذاتية في إعادة انبعاث الحركة الإسلامية داخل المجتمع العربي-الإسرائيلي . لقد نشأت هذه الحركة تلبية لحاجة

العرب الإسرائيليين الى (العودة الى جذورهم) والإنجذاب الى الإسلام هي المرحلة الثالثة التي وجد مناصرة نفسه فيها .

يقول مناصره : «لقد كنت شيوعياً لأكثر من ثلاثين سنة من سنين حياتي ، آمنت فيها بالتعايش السلمي مع اليهود وكنت أنشد من إسرائيليّتي وشيوعيّتي أن يغدوا أداتين صوب رقي قومي وتقدمهم . اما الآن فقد غدرني أمني ذاك ووجدت في الإسلام طريق هداية جديد . لقد أدركت اليوم أن طرائق سياساتي الدنيوية قد أفضت بي الى ثقافة شيطانية . لقد هجرت الدين الذي ولدت فيه ، وأنكرت ربي فشعرت كأني لطيم . لقد كانت الشيوعية ديني وعائلتي وما إن غادرتها هي والسياسة حتى أدركت أن ضالتي تقع في ايمان آخر» . ويضيف قائلاً : «لقد تجشمت عناءاً حتى أجد اي دين يناسبني . وانكبت أقرأ الإنجيل ، ثم فكرت أن أغدو يهودياً في ديانتي . شرعت بعدها أبحث في نور المسيحية - العهد الجديد - حتى أدركت نهاية المطاف أن ديني القديم هو الأفضل بينها ليس لأنني قد ولدت فيه بل لأنني اخترت هدايتي ، واصبحت رجل دين لأنني أنشد العدالة والحقيقة» .

تأسست الحركة الإسلامية في إسرائيل قبل حوالي عشرين سنة على يد مجموعة من الشباب الذين هبوا للعودة الى جذورهم الدينية . كان معظمهم من سكان المدن المثقفين وعلى معرفة بطبيعة مجتمعهم العربي ودولة إسرائيل ويتكلمون العبرية بطلاقة ويتصرفون كأنهم يهود ، اما الاختلاف الوحيد فهو في مظهرهم الخارجي : قفطان طويلة وقبعات على رؤوسهم ولحايا قصيرة وهي التي تميز عودتهم الى الإسلام .

ويعتبر الشيخ (عبدالله نمر درويش) الرجل البارز بين قادة الحركة الإسلامية الشباب وهو يؤكد أن الحركة الإسلامية تدعو جميع المسلمين بالعودة الى إسلامهم وترك الحضارة الغربية ، بيد أنها لا تعبر عن اي رغبة لتحقيق هذا الهدف بالقوة أو العنف كما فعلت في ايران . كما يشدد على وقوفه بجانب الديمقراطية وحق دولة

اليهود في الوجود. وهو يرى أن ظاهرة العودة الى جذور الإسلام لا يجب أن تحدّد نفسها على النطاق المحلي أو القطري بل على المستوى العالمي (وقد انتشرت في الاقطار المجاورة مثل الأردن ومصر وتعدت الى اقطار بعيدة أخرى مثل السودان والجزائر).

لقد وجد الشيخ درويش ورفاقه- ويا للسخرية- أرضية مشتركة مع أتراكهم من اليهود الأرثوذكس حتى بات من الصعب أن تميز بين المتطرفين اليهود والمسلمين، فكلاهما من ذوي اللحايا ويرتدون قبعات رأس متشابهة تماماً ويجمعهم في أقل تقدير هدف مشترك: الشيوقراطية (الحكومة الدينية). وهنا يخشى الإسرائيليون من نمو الحركة الدينية برغم رسائل التطمين الكثيرة التي أعلنها الشيخ درويش. فاليهود سواء أكانوا مخطئين في ظنهم أم على صواب قد حددوا هذه الحركة بأسلوب التطرفية الايرانية تدفعهم لذلك بصيرتهم أن كره إسرائيل واليهود أمر موروث في الحركة الإسلامية. وقد تعزز شعور البصيرة هذا في شباط ١٩٩٢ عندما قتل أعضاء في حركة إسلامية متطرفة ثلاثة جنود إسرائيليين، وتلك كانت أسوأ جريمة سياسية إقترفها الإسرائيليون العرب بحق الإسرائيليين اليهود.

ودب هذا الخوف من نمو الحركة الإسلامية الى المسلمين الدنيويين والى العرب المسلمين. لقد هزمت الحركة الإسلامية في انتخابات عام ١٩٨٩ الحزب الشيوعي في العديد من المدن والقرى الكبيرة وغيّرت الحركة الإسلامية وجه (الشارع العربي) في العديد من الأماكن، ويرفرف اليوم العلم الأخضر الرائع (لون راية محمد) فوق الجوامع الحديثة البناء التي تغص أيام الجمع بمئات وأحياناً أخرى بألوف المصلين. وأخذت المحلات تباع الكتب المقدسة والمقالات الدينية. وافتتحت الحركة المدارس ورياض الأطفال التي ينفصل فيها الذكور عن الإناث (كحال اليهود الأرثوذكس)، وأخذ طابع التعليم فيها المذهبية وفيها يرتل القرآن وهو كتاب المسلمين المقدس. وكلما حصلت الحركة على موطىء قدم جديد لها تشددت حيال القلة من النساء

العربيات اللواتي يرتدين الزي الغربي مطالبة إياهن بالعودة الى الزي التقليدي (المعتدل).

إن تمسك الحركة الإسلامية في إسرائيل هو دلالة على عمق الوجدان الديني التقليدي داخل المجتمع العربي بشكل عام وداخل المجتمع الإسلامي في إسرائيل بشكل خاص . وهي شهادة أيضاً على قوة الإسلام كشارة حضارية وتاريخية لهوية المسلم الذاتية . ومع هذا سيكون من الخطأ الحكم على هذه الظاهرة من خلال حسناتها التاريخية والدينية والحضارية . فالحركة الإسلامية تمثل قوة إجتماعية متماسكة ذات جذور عميقة داخل حياة المجتمع . فهي تنظم مراكز المجتمع ومناهج التدريب والتدريب الطبي لحالات الطوارئ وتهتم بمحاربة الجريمة والدعارة وتعاطي المخدرات . كما تهدف الى تحسين البنية التحتية مثل استبدال أنابيب تصريف المياه القديمة بشبكة جديدة وفي بناء الطرق . وبكلمة أخرى حاول الإسرائيليون العرب من خلال تطرفيتهم إعادة هويتهم القومية في نفس الوقت الذي يحاولون فيه استرضاء هذه الهوية مع الشخصية اليهودية في دولة إسرائيل .

وإذا كانت الحركة الإسلامية حركة إحتجاج جماهيرية فإن حقيقة انها تأسست بضع سنوات بعد حرب الأيام الستة تبقى حقيقة لا يمكن تجاهلها . لقد ساهمت هذه الحرب وما تلاها في نمو بعض الإتجاهات داخل المجتمع الإسرائيلي اليهودي : الإدراك السفاردي لذاته والراдикаلية السياسية والتطرفية . فكما ساعد فتح الحدود القديمة بين الضفة الغربية وإسرائيل اليهود في الوصول الى أماكن تشكل تاريخياً وتوراتياً جزءاً من ذاكرتهم القومية ، فإنها ساعدت أيضاً الإسرائيليين العرب للإتحاد ثانية مع إخوانهم الفلسطينيين على الجانب الآخر من حدود ما قبل ١٩٦٧ وفي زيارة أماكنهم المقدسة ، ويات بمقدورهم الآن الصلاة أيام الجمع في الجوامع الواقعة في جبل الكنيسة في القدس الشرقية . ويطلق علماء الإجتماع على هذه العملية اسم

(فلسطينية العرب الإسرائيلين) لتناقض بذلك التسمية القديمة (التأسرية) . لقد أحيا هذا الترابط مع الفلسطينيين الضمير القومي الديني لدى العرب الإسرائيلين ويمكن تلخيص هذا الإحياء الضميري : نحن عرب نعيش في إسرائيل ، قوميتنا هي الفلسطينية وديننا هو الإسلام .

لقد تشابكت مشاكل الهوية الذاتية والتناقض الباطني لدى الإسرائيليين العرب في فترة السبعينات أكثر من أي وقت مضى ، فهو يسير على حبل دقيق بين (الإسرائيلية) و (الفلسطينية) و (الإسلامية) . إن على أي باحث أو عالم اجتماع إذا ما أراد نقل التيارات السائدة اليوم في مجتمع ما أن يضيف عليها وجهة نظره السياسية ، وسيؤكد عالم الاجتماع اليهودي أو ذاك العربي المؤمن بإمكانية التعايش السلمي المشترك على الترابط بين العربي و (إسرائيليتة) يقوده لهذا الأمر افتراضه أن العربي الإسرائيلي الذي ترعرع على نمط الحياة الإسرائيلية سيفضل عصرية الحياة الغربية على دولة فلسطينية منفصلة . وهنا وبالإستناد على هذا الرأي سيشكل العربي الإسرائيلي جسر سلام بين إسرائيل والعالم العربي . وسيحاول علماء الاجتماع اليهود والعرب من ذوي النزعة القومية برغم ذلك إثبات أن الإسرائيليين العرب سيختار العيش بين اخوته العرب الفلسطينيين . ولكن شيئاً واحداً يبقى جلياً مهما اتخذت القضية شكلاً وهو أن مستقبل العرب الإسرائيلين وحل هذه المشاكل المتشعبة يرتبطان ارتباطاً وثيقاً بالسؤال الصعب المتعلق بحال الفلسطينيين وما سيغدو عليه وهم باقون تحت الاحتلال الإسرائيلي في الضفة الغربية وقطاع غزة .

الفصل الحادي عشر

العرب الآخرون

في أحد مساءات آذار من عام ١٩٩٢ والليل قد أوشك أن يطبق سدوله مضى زوجان شباب يتمشيان على طول أحد شوارع ضاحية من ضواحي تل أبيب الرئيسية والراقية. كان مساء مهرجان البوريم اليهودي (عيد من أعياد اليهود) حيث ترتدي فيه العوائل الملابس الجذابة وتذهب للحفلات لقضاء وقت طيب. هذه الملابس تعكس برامج تلفزيونية شعبية أو تمثل رجال السياسة المعاصرين أو بعض التقاليد الفلكلورية فلا عجب إذاً أن يرى القاصد تلك الحفلات ذلك المساء سلحفاة النينجا أو جورج بوش أو صدام حسين أو رعاة البقر الأمريكيان أو بائعات الزهور الهولنديات. إقترب إلى الزوجين من الجانب الآخر للشارع رجلان كان أحدهما مرتدياً قناع قرد بينما غطى الثاني رأسه بالشماغ العربي ومرتدياً عباءة عربية. وما أن اقتربا وجهاً لوجه مع الزوجين حتى أخرج الزوج اليهودي سلاحه ورمى الرجل بالشماغ العربي حتى خر جريحاً. وقد قال المهاجم اليهودي: «لقد ظننت أنني رميت إرهابياً»، ثم تبين بعد التحقيق أنه جندي إسرائيلي في إجازة من وحدته العسكرية علماً أن تعليقات الجيش الإسرائيلي تحتم على جنوده حمل السلاح سواء أكانوا في وحدتهم العسكرية أو في إجازته منها.

لقد احتوت هذه الحادثة التي وقعت في قلب إسرائيل بالإضافة إلى جوانبها المأساوية وبأنها رمزية لواقعنا اليوم على جميع العناصر التي تجسد العلاقة الخاصة بين الإسرائيليين والفلسطينيين وبين اليهود والعرب في الأراضي المحتلة والمتمثلة بالخوف

والشك والبغض والقولبية والعنف المتطاير. هذه العواطف جميعها قد تراكمت ونمت في خضم ربع قرن من الاحتلال الإسرائيلي لما أيقن الإسرائيليون أن بمقدورهم العيش هكذا والمضي في العيش هكذا حتى تلاشت أوهامهم في الثامن من كانون الأول عام ١٩٨٧.

لم تكن إسرائيل تقصد بعد إحتلالها في حزيران عام ١٩٦٧ لقطاع غزة والضفة الغربية وهي موطناً لأكثر من مليون فلسطيني ألبقاء فيها أبد الأبد بل إن غالبية الإسرائيليين كانوا على يقين مطلق أن إسرائيل ستعيد هذه الأراضي لأصحابها العرب إما بسبب الضغط الدولي أو كجزء من اتفاقية سلام. ولما طال الوجود الإسرائيلي سنة فستين دب شعور الخجل والإحراج إلى أجساد الإسرائيليين وأرادوا غسل ماء الوجه فقالوا منكرين أن يكون (احتلالاً) عسكرياً، وابتدعوا لهذه الحجة مصطلحاً جديداً هو (الإحتلال التنويري) بدلاً من الحكم العسكري وابتكروا لدعم هذه التسمية أوهاماً ساذجةً للكيفية التي ستسير فيها خطى الحياة في الأراضي المحتلة حيث ستغدو فيها الإدارة العسكرية إدارةً للرعاية ومراعاة المشاعر والإحتلال سيكون بذى جوانب إنسانية. أما غرض الإحتلال فهو إدارة حياة (العرب الآخرين) أنفسهم وكأن لا وجود للإحتلال فهي ليست علاقة بين المقتصب والمغتصب بل هي أنموذج للمساواة الحقيقية بين اليهود والعرب.

لقد كان اليهودي يوماً ما هو المقتصب وهو الضحية. أفيقعل أن يغدو اليوم قمعياً بعد الويل الذي لاقاه سبياً في الحرب العالمية الثانية وخلال فترة الإنتداب البريطاني لفلسطين بين الأعوام ١٩١٧-١٩٤٧. لقد رفض معظم الإسرائيليين التصديق أنهم اليوم سبياً لآلام الغير.

لقد نجحت إسرائيل وعلى مدى عشرين عاماً (١٩٦٧-١٩٨٧) في فرض سيطرتها على الأراضي المحتلة من خلال إتباعها وسائل أقرب إلى منهجية القوى

الإستعمارية في القرنين التاسع عشر والعشرين . فقد أناطت مهمة إبقاء الفلسطينيين ساكنين إلى مديرية الأمن العام الإسرائيلي (GSS) والمعروفة بالعبرية بإسم (شاباك Shabak) ، وأصبح رجل الأمن العام المعروف بإسم (شاباكنتك) ملكاً لهذه الأراضي ، إذ خصصت السلطات الإسرائيلية لكل عميل من هؤلاء العملاء أو لنقل (الأسياء) مساحة من الأرض أمست فيما بعد (مقاطعة) له على أن يتولى مسؤولية معرفة كل ما يدور في هذه المساحة التي تضم عادة قرية أو أكثر من قرى قطاع غزة والضفة الغربية . وهكذا لم يعد بمقدور الفلسطيني الدخول أو الخروج من المقاطعة التي ينتسب إليها دون معرفة وموافقة سيده الشاباكنتك والذي اختار مخبرين له من بين تابعيه ليحيطوه علماً بالذي يدور حوله . إنه يختار هؤلاء المخبرين بالضغط عليهم فإذا ما أراد فلسطيني ما أن يحصل على إجازة بناء فعليه أن ينتظر (سيده) ليبت في الأمر ، وإذا ما رغب تاجر فلسطيني أن يصدر البرتقال من غزة أو زيت الزيتون من نابلس فعليه أن يحصل على موافقة مديرية الأمن العام . وهكذا يعيش الفلسطينيون يوماً في دوامة الروتين وتدقيقية السيد الشاباكنتك والجهاز الإستخباري الذي يدعمه .

قلو كان هدف الاحتلال هو المحافظة على النظام والهدوء لتحقيق هذان الأمران بسرعة البرق . لقد حاول الفلسطينيون خلال الأشهر الأولى التي أعقبت حرب ١٩٦٧ ؛ وبعد أن أفاقوا من غيبوبة الهزيمة والاحتلال ؛ الإنتقام من الإسرائيليين ، وقد انطوت خططهم التي أقرتها منظمة التحرير الفلسطينية على جعل الأراضي المحتلة أراض يستحيل على الإسرائيليين حكمها وما كان يجول في عقولهم هو (نضال التحرير الشعبي) وعلى غرار أفكار (ماوتسيتنغ-الصين) و (فيدل كاسترو-كوبا) . بيد أن المنظمة فشلت في أن تستقي من قول ماوتسيتونغ بأن على مقاتلي المدغرة أن يحظوا بدعم شعبهم وأن يشعروا (كالسمكة في الماء) . ولم يعد بمقدور مقاتليها (السباحة) دون أن يرقبهم أحد وهم بين أهليهم الذين دفعوا بهم إلى جهاز الأمن العام . لقد فضل السكان المحليون تدفعهم بعض المغريات الإسرائيلية العيش بسلام وهدوء بدلاً

من المخاطرة والتعاون مع منظماتهم السرية .

لقد استمرت المقاومة الفلسطينية ضد الاحتلال الإسرائيلي طوال السنين الخوالي دون أن تلحق أذىً حقيقياً في مجرى الحياة اليومية الروتينية لإسرائيل . ليس هذا فحسب بل إن المقاومة الفلسطينية الطيّعة قد سهلت على الإسرائيليين قطف ثمار احتلالهم . إذ اعتبروا السكان الفلسطينيين في الأراضي المحتلة أيدي عاملة رخيصة واتخذوا منهم موقف التفوق عليهم والإزدراء منهم . وهكذا ترى مع كل إطلالة فجر جديد عشرات الآلاف من الفلسطينيين من الأراضي المحتلة يغادرون منازلهم كأنهم النمل الصناعي على أقدامهم أو في حافلات أو على عربات متجهين صوب العمل في إسرائيل .

وهكذا ترى جوانب الطرقات في إسرائيل تعج بالعمال الفلسطينيين من الشباب والشيخوخ كل منهم يحمل حقيبة فيها وجبة طعام فقيرة (قطعة خبز ، حبات زيتون وبعض الجبنة) آملاً أن يتشله أحد المقاولون اليهود والذي إذا ما توقفت سيارته تدافع إليها عشرات من هؤلاء الفلسطينيين يزاحم أحدهم الآخر متوسلين ومقبلين أيدي المقاول اليهودي لعله يجد لهم عملاً عنده . وتجذ في أسواق العبيد هذه أطفالاً لا يتجاوز عمرهم العاشرة قد أرسلتهم عوائلهم بدلاً من المدرسة إلى العمل ليساهم في دخلها وعليه فإنك تراهم في كل مكان : يغسلون الصحون في المطاعم أو في حدائق أغنياء ضواحي تل أبيب أو واقفين أمام خط الإنتاج لمصنع (شيبا) للبيرة . . .

لقد تعود الإسرائيليون وجود الفلسطينيين في منازلهم وحدائقهم ومكاتبهم وياتوا يعدونهم جزءاً من أثاثهم فمُنظف أرضية شقتنا وكذلك باقي الشقق كان طفلاً فلسطينياً من إحدى قرى الضفة الغربية ، وسيظهر أمامك كل يوم صباحاً بدلوه ومكتسته وخرقةً بالية فيمر عليه سكان العمارة دون أن يعتقدوا أن مخلوقاً أمامهم واقف لا يعرفون عنه غير اسمه الأول - قاسم - وإذا ما عطف عليه أحدهم أكسبه

بعضاً من ثيابه القديمة بدلاً من أن يرميها خارجاً.

لقد تحقق النجاح الإسرائيلي بتهدة الأراضي المحتلة مقابل ثمن معين . فقد كان من الأهمية بمكان إستخلاص المعلومات بسرعة وبدقة بعد كل عملية تفجير سيارة مفخخة أو الهجوم على فندق أو مطار ، وتعلم الشاباتك الطريق الصعب الذي يعنيه الاحتلال . فعملهم كان عملاً قذراً لخدمة هدف نبيل ألا وهو الدفاع عن بلادهم وشعبهم . بيد أن وسائل حفظ الأمن تتبع معياراً مزدوجاً في العدالة ، فالعدالة الديمقراطية متاحة أمام المواطنين الإسرائيلين بينما نهجوا معياراً آخر يختلف تماماً عن سابقه في المنطقة المهلكة الواقعة بين المسموح به والممنوع ضد المشتبه بهم من الفلسطينيين في المناطق المحتلة . وإذا ما اعتقلوا فلسطينياً أرسلوا به في الحال إلى أحد مراكز الحجز المعزولة أو في أجنحة خاصة في سجون إسرائيل المدنيه ولا تعلم الشرطة أو سلطات السجن الوطني ما الذي سيحدث له خلف الجدران .

لقد قضيت بعضاً من خدمتي العسكرية في مطلع السبعينات في قطاع غزة وتوليت فيها مهمة مراقبة الأزقة الضيقة في مخيمات اللاجئين . كانت نظرات النساء إلينا تتم عن حقد علينا وخوف منا ، وتصرف أغلبنا كالأعاجم حين حطمتنا الأثاث وهشمتنا الفخار وتركنا البيت وكأن إحصاراً قد زاره . ولم يدرك منا الا القليل لحقيقة أننا نحن الشباب أبناء الثامنة عشرة انما نمثل الاحتلال في أعين الفلسطينيين . وكنا نصطحب في الليل ضابط الشاباك لفحص السجناء الفلسطينيين يرافقنا عدد من المخابرات الفلسطينيين مرتدين أقنعة تغطي وجوههم . لقد انطوى دور المخابرات على الغدر بأصدقائهم وتسليمهم لأيدي الإدارة العسكرية . فبعد أن نتعرف من خلاله على عنوان المشتبه به نذهب لمحاصرة شقته أو بيته ، وبينما يقف بعضاً منا خارجاً يدخل الباكون لتحطيم ما هو موجود داخل البيت والقبض على المشتبه به ونوثق يديه وأحياناً قدميه ونجره خارجاً مع عويل وبكاء عائلته ونقذف به داخل السيارة . ثم

نتجه به صوب جناح الشاباك في أقرب سجن فيتلقفه المعنيون عند المدخل ونبقى نحن الجنود خارجاً بيد أننا نسمع أثناء زيارتنا الليلية ذلك الصراخ والعويل وهي دلالة أن السجين قد ضربوه وعذبوه . وعلمت بعدها أنها لممارسة جماعية لرجل الشاباك أن يغطوا رأس السجين الفلسطيني بكيس أسود منقع بالبول ثم يعرضوه ورأسه لما يزل مغطى للهب أشعة الشمس الحارقة كما يحرموه من النوم بعد أن يتقعه بالماء البارد .

لقد بدى لفترة من الزمن ناهزت العشرين عاماً كأن البلاد تعيش في غشية عاش فيها الناس متناسين وجود شيء اسمه إحتلال ، وقد ساعد نكران الذات والعزلة الإسرائيليين على تجاهل أسواق العبيد الواقعية والموجودة في مدنهم ، ورغبوا عن معرفة شيء عن التعذيب الذي يلحقه الشاباك بالنيابة عنهم وباسم الامن العام . كانوا يغضون البصر اذا ما اقتربوا من متراس الطريق العسكري الذي يستطيعون هم العبور منه بينما يتوجب على السيارات العربية التوقف عنده ، حيث تم تزويد السيارات من الضفة الغربية أو قطاع غزة بلوحات تسجيل مميزة لتسهيل مثل هذه المهام .

ولم يكن بمقدور الفلسطينيين خلال هذه السنوات العشرين أن يتناسوا الأمر أو يكظموه . لقد عملوا لسنوات لحساب الإسرائيليين بأجور رخيصة وبدون فوائد . كان معظمهم من الشباب أو من حملة الشهادات الجامعية . إن نقص فرص العمل لمثل هذه النخبة تعني أن آلافاً من العقول النيرة ستجد حائلها بين أمرين أحدهما أمر من الآخر وهما : أن يبقى عاطلاً عن العمل أو أن يحمل صناديق الخس في سوق حيفا أو أن يمسخ مطاعم تل أبيب بعد انقضاء ساعات الدوام . ثم يغطون في نوم عميق بعد انتهاء ساعات عملهم على طرائح قديمة في أرضية المطبخ أو بجانب مكائن المصنع الذي عملوا فيه .

لقد تعرف الفلسطينيون خلال العقدین الأخيرين على كثير من خبايا المجتمع

الإسرائيلي وبذلوا جهوداً خيمة لتعلم اللغة العبرانية لأجل البقاء، فهي شرط أساسي لحصوله على عمل. بينما لم يشكل هذا الأمر أهمية للإسرائيلي في أن يتعلم العربية. وشرع الشباب الفلسطيني يقلد نظيره الإسرائيلي في كلامه وطرائق حديثه وحتى في ملبسه. بيد أن فارقاً أساسياً لما يزل قائماً وهو أن الإسرائيلي هو السيد والفلسطيني هو العبد، وهذا أمر ملأ الفلسطيني حقداً وحسداً في نظرته للمجتمع اليهودي.

وقد بلغ هذا الشعور ذروته في كانون الأول عام ١٩٨٧ عندما انتشرت إشاعة إنتشار النار في الهشيم تقول (لقد قتلنا اليهود بوحشية). كان مصدر هذه الإشاعة هو مخيم جبالياً للاجئين شمال غزة حتى مدينة رفح على حدود غزة مع مصر. لقد أشاع الفلسطينيون في غزة أن الحادثة الأخيرة التي راح ضحيتها أربعة من العرب بعد أن دهستهم شاحنة هو (عمل إنتقامي قام به اليهود). لقد وقعت الواقعة عندما فقد سائق شاحنة إسرائيلي السيطرة على شاحنته على الطريق الرئيسي الذي يربط غزة بإسرائيل واتجه بشاحنته على حشد من الفلسطينيين كانوا في طريقهم إلى منازلهم. شاهد هذه الحادثة مئات من الفلسطينيين الذين تولدت لديهم قناعة مطلقة أن الحادث جريمة قتل. وهكذا تحولت حادثة طريق مأساوية إلى حدث تاريخي.

لاندلعت المظاهرات في أعقاب الحادثة وعمت أرجاء قطاع غزة، وتلك كانت بذور ما عرف بعدئذ بالانتفاضة الفلسطينية التي ما انفكت مندلعة حتى اليوم. تعني كلمة الانتفاضة أدبياً (التغيير الجذري)، وقد استخدمها الفلسطينيون الراغبون بإحداث تغيير جذري على الحكم العسكري الإسرائيلي والاحتلال. لقد طالب المحتجون بنظام حكم جديد يتولى السكان العرب إدارته على أمل الحصول مستقبلاً على دولة فلسطينية. والانتفاضة ثورة شعبية شملت بالإضافة إلى أعمال التفجيرات على مظاهرات الإحتجاج والإضرابات ورمي الحجارة، والتي نجحت جميعها في لم شمل القواطع الفلسطينية في المناطق المحتلة بيد أن أعمال الإضراب قد أصابت العمل

الفلسطيني بأذى أكبر من الذي ألحقته بالإقتصاد الإسرائيلي . لقد هيا معظم الفلسطينيين أنفسهم لدفع ثمن ذلك .

لقد انطوت الإنتفاضة أيضاً على صراعات داخل المجتمع الفلسطيني نفسه : الفقراء ضد الأغنياء والصغار ضد الكبار ، وكذلك صرخات الرفض لظروف المعيشة المزرية التي يعيشها كثير من الفلسطينيين سيما أولئك الذين يقطنون مخيمات اللاجئين في قطاع غزة . بيد أنها أعطت للفلسطينيين فوق كل شيء الشعور بالفخر . لقد إستحضرت وعززت شعورهم القومي وحسنت وجه صورتهم الدولية . وتلك هي الإنتفاضة التي جاهد الشبابك ليمنع وقوعها . لقد نظموا شبكة من المخبزين من عمال مصانع إلى أصحاب عقول ليحيطوهم علماً بأي محاولة جدية من هذا القبيل مقابل أجر شهري يتراوح بين خمسين إلى مائتي دولار شهرياً .

وقررت السلطات العسكرية الإسرائيلية مطلع الثمانينات وبسبب تزايد قوة الشعور القومي بين الفلسطينيين تشجيع الفلسطينيين على تشكيل عصبة الأرض الفلسطينية في ظن منها أن هذه المجاميع ستعمل بديلاً عن منظمة التحرير الفلسطينية ، وهكذا تم تشكيل (عصبة الأرض) داخل الضفة الغربية بدعم من السلطات الإسرائيلية نفسها التي سمحت لأعضاء العصبة بحمل السلاح والتمتع ببعض الإمتيازات لعلها تحصل منهم على قيادة فلسطينية جديدة مساندة لإسرائيل . بيد أن العصبة فشلت واعتبر الفلسطينيون أعضاء هذه العصبة خونة لأنهم باعوا أنفسهم للإسرائيليين المحتل .

أما المنظمة الثانية التي دعمتها السلطات الإسرائيلية على نحو غير مباشر فهي حركة حماس المتطرفة . وإذا كانت السلطات الإسرائيلية قد أسندت بحذر شديد الحركة الإسلامية ، فإنها قد حددت كثيراً من انتساب من له علاقة بمنظمة التحرير الفلسطينية بحركة حماس . وهكذا توزع أعضاء حماس في العربية السعودية والكويت

وبقية إمارات الخليج الثرية لجني الأموال بعد أن سمحت لهم السلطات الإسرائيلية بإدخال هذه الأموال إلى قطاع غزة والضفة الغربية لبناء الجوامع الجديدة والمدارس والكليات والمراكز الإسلامية والعيادات .

لقد وجد الشباب الفلسطيني في هذه الثروة للمسلمين ممزوجة مع دعواتهم بالعودة إلى جذور دينهم إستغاثة قوية لهم ، فشرعوا آلافاً مؤلفة يؤدون صلاة الجمعة ويلتحقون بمدارس دراسة القرآن واستفادت العوائل كثيراً من العيادات الصحية وأرسلت صغارها إلى المراكز الإسلامية حتى تحولت الجوامع والمدارس أوكاراً للإثارة الدينية . ها هنا أدرك الشاب أنك المؤمن بسياسة (فرق تسد) أن وقت خلق حركة حماس قد حان لأنها ستشكل تهديداً لميمنة وطني منظمة التحرير الفلسطينية داخل الأراضي المحتلة . وهكذا تطورت حماس بدعم من إسرائيل إلى قوة سياسية حصدت قاعدة شعبية كبيرة وتطور معها حجم العنف العدائي بينها وبين منظمة التحرير والذي قاد أحياناً إلى موت مئات من الفلسطينيين . فقد جند الجانبان كلاهما رجاله لقتل (المتأمرين) و(تجار المخدرات) و(العاهرات) .

من جانب آخر خلق هذا التماسك الإسلامي تخوفاً شديداً بين الفلسطينيين من المسيح ، فقررت عشرات الآلاف من العوائل المسيحية في الضفة الغربية الهجرة إلى الولايات المتحدة أو كندا أو أوروبا خلال فترة الثمانينات حتى فقدت مدينة بيت لحم المرتبطة كثيراً بتاريخ المسيحية غالبية سكانها من المسيح واستحوالت إلى حصن إسلامي . وهنا حذر القادة المسيح البارزون من مغبة أن تستمر موجات الهجرة على هذا النحو لأن بيت لحم ستتحول إلى (مدينة ديزني المسيحية) أو أن تكتفي بزيارة السواح لها .

لقد أضعفت تفتيت المجتمع الفلسطيني المسيحي العناصر ذات النزعة المعتدلة والغربية داخل المجتمع الفلسطيني ، وهم المجموعة التي ربما وجد معهم

الإسرائيليون أرضية مشتركة. كما أن إسرائيل من جانب آخر لم تحظ بمجرد فرصة ضئيلة لبلوغ تفاهم مع حماس. بيد أن المتعصبين أضعفوا حقاً العنصر القومي داخل المجتمع الفلسطيني كما رغب بهذا الأمر الشابانك والسلطات الإسرائيلية برغم بقاء حقدهم لإسرائيل والشعب اليهودي عميقاً ولا يقبل المساومة عليه. وكان أحد مبادئ هذا الإضعاف هو العداء بين منظمة التحرير الفلسطينية وحركة حماس. فبينما تهدف منظمة التحرير أساساً إلى تحقيق اتفاقية سلام مع إسرائيل نجد أن حركة حماس ترفض الاعتراف بحق اليهود في إقامة دولتهم، فهي تنظر للصراع مع إسرائيل وعلى خلاف القوميين أنه نضال ديني وحضاري وليس مجرد جدال سياسي على أرض معينة، وبأن هذا النضال يمثل جزءاً من صراع قديم بين الإسلام والحضارة الغربية التي يقودها اليهود والصهيونية. ولتوضيح وجهة نظرهم هذه قالوا أن إسرائيل والصهيونية واليهودية هم الصليبيون الجدد وهم أشبه بصليبي القرون الوسطى الذين جابوا الشرق الأوسط بين القرنين الحادي عشر والثالث عشر. فاليهود قدموا من أوروبا أيضاً، وكانوا أقلية أخضعت الأرض لسيطرتها بالحرب وصادروا الأرض من أهلها المحليين، بيد أنهم ما نجحوا قط في الاختلاط والتفاعل مع بيئتهم. لقد بقوا غرباء وما انتسبوا لمكان. وهم يتكلمون لغة أجنبية ويرتدون لباساً مختلفاً ولهم غير عاداتنا ودينهم غير ديننا. ولم يتقبل العرب المسلمون اليهود كما رفضوا الصليبيين من قبل.

وهكذا توصل المغتصبون إلى نتيجة مفادها أن قدر اليهود لن يختلف بشيء عن قدر من سبقهم وسيعودوا أدراجهم حيث جاءوا من شتات أوروبا كما عاد من قبلهم الصليبيون. إن وجهة النظر البسيطة هذه قد تجاهلت الخلفية التاريخية: لقد تجاهلت أن الشعب اليهودي مرتبط بهذه الأرض وإن الصهيونية ليست حركة تحرير قومية أقل شأناً من نظيرتها الفلسطينية. لقد غسلت هذه الحملة الدينية عقول الشباب والمتعصبين من الفلسطينيين فذهبوا لشراء سكاكين المطيخ ليقطعوا بها اليهودي البريء

المار في شوارع تل أبيب مرددين صيحات (الله أكبر).

لقد ساعد الإسرائيليون دون دراية وكما تناقلت ذلك أسطورة (غولم) اليهودية في تعزيز قوة المتعصبين . تقول الأسطورة أن حاخاماً عظيماً في (تشيكوسلوفاكيا) في القرن السادس عشر صنع لنفسه مخلوقاً من الطين ثم نفخ فيه الحياة تدريجياً بواسطة قوة جبارة . كان يأمل من هذا المخلوق أن يغدو خادمه المطيع ، بيد أن المخلوق السحري أبى ذلك وتمرد على سيده وفر هارباً كالمجنون في شوارع براغ .

ساعدت الإنتفاضة برغم عناصر العنف ونشوء التطرفية فيها حركة المقاومة الفلسطينية أن تحصل لها على بعض الشرعية عند الرأي العام العالمي ولدى كثير من الحكومات الغربية . هذا التعاطف انما يقف على طرفي نقيض مع الكره الشديد الذي زرعه الأساليب الوحشية المبكرة للفلسطينيين ، طالما انهم يجعلون من مواطنين أبرياء أهدافاً لنضالهم . لقد استشاط العالم غضباً عندما شرع (مقاتلو الحرية) الفلسطينيون باقتحام المنازل عنوةً منتصف الليل ليأخذوا أربعة أو خمسة من الأطفال رهائن لديهم . وأذكر انه في شتاء عام ١٩٧٤ هشم الإرهابيون محيطهم رجال الأمن الإسرائيليين بهجمة طفل رهين لديهم . أيمكن إذاً أن يسمي أحد ما هؤلاء الرجال القادرين لمثل هذه الوحشيات (مقاتلي الحرية) أو يثني على صنائعهم هذه باعتبارها جزءاً من (النضال القومي)؟! .

وحكم العالم على إسرائيل من خلال ما تكشف عنها من سياسات أمنية أفقدت إسرائيل اسمها الجميل وأضحى حال دولة اليهود في الحضيض بعد أن كان لها عند الرأي العام الغربي موقعاً حسناً ، واستحال المظلوم المنتصر في حرب ١٩٦٧ محتلاً ظالماً لأرض شعب آخر . لقد أماطت إنتفاضة الثامن من كانون الثاني عام ١٩٨٧ اللثام عن ذلك المضمون البائس لمصطلح (الإحتلال التنويري) . إذ بقي كثير من الإسرائيليين مؤمنين بهذا الوهم بينما هجره جمع آخر من الذين خدموا عسكريتهم في الأراضي

المحتلة وأدرج معهم نفسي قبل أكثر من عشرين عاماً. بيد أن الإنتفاضة أكدت أن لا (إحتلال تنويري) البتة. أما الآن فإن الإنتفاضة قد أطلقت العنان لمشاعر عند اليهود حيال الفلسطينيين شبيهة بمشاعر الإحباط والغضب التي نفست عنها الإنتفاضة ذاتها عند الفلسطينيين. وهكذا تمضي قدماً عجلة العنف الحاقق بين الجانبين.

لقد منعت السلطات الإسرائيلية الصحافة العربية في الأراضي المحتلة أن تنشر المقالات التي تنشرها الصحف الإسرائيلية برغم أن كثيراً من العرب يجيدون قراءة اللغة العبرانية وبإمكانهم الحصول على الصحف اليهودية. ومنعت طبع وبيع الكتب في الأراضي المحتلة والتي سبق وان تم طبعها وبيعها في إسرائيل. كما اعتبرت أعمال (كارل ماركس) أعمالاً تخريبية، وهي لن تشعر بوخز ضمير اذا ما أغلقت صحيفة ما دون مبرر. لقد أخضعت هذه السلطات للرقابة العسكرية كل كلمة تصدرها الصحيفة حتى الكلمات المتقاطعة وحالة الأرصاد الجوية والأخبار الرياضية. وهذه ليست قضية حرية الكلام أو حق العامة بمعرفة عنصري الديموقراطية الرئيسيين الذين سحقتهما قوات الإحتلال. أن ما نراه هنا هو الطريقة الأبوية التي تنتهجها إسرائيل في نظرتها أن السكان في الأراضي المحتلة ما زالوا قصرأ غير قادرين على معرفة ما يجب قراءته أو عدم قراءته.

هذه الإزدواجية تنعكس أيضاً في اختيار إسرائيل للمفردة اللغوية، فهي ما برحت منذ عام ١٩٦٧ توظف نوعاً من (غسيل اللغة) الذي تستخدم فيه منظفاً صوتياً يضيف طابع الغموض والتفاهة على ما تم وصفه في سياق ما والذي تضاعف استخدامه بعد الإنتفاضة. فهي تستخدم لصالحها مثلاً تعبير (تطهير) مواقع العدو بدلاً من كلمة (مهاجمة). كما تشير تقارير الشرطة لحوادث المرور للضحية اليهودي باسمه بينما تشير إلى الضحية العربي باسم (عرب)، وتطلق على عمليات طرد الفلسطينيين من مقراتهم السكنية اسم (إخلاء). وإذا ما أصيب فلسطينياً أو قتل أثناء

المظاهرات علق المتحدث العسكري الإسرائيلي أن الجنود الإسرائيليين (أطلقوا عيارات نارية في الهواء) .

لقد تحول الجيش الإسرائيلي إلى قوة شرطة وجهاز الشباب منهم بالهراوات والعقل الحديدية والخوذ، وأجبرتهم على مطاردة الأطفال الفلسطينيين الذين يتاهزونهم عمراً أو أصغر منهم وخولتهم أحياناً أن يطلقوا النار عليهم . وهكذا راح ضحية ذلك قرابة ثمانمائة فلسطيني خلال السنوات الخمس الأولى من الإنتفاضة على يد قوات الأمن الإسرائيلية، واعتقلت دون محاكمة ما يربو على تسعة عشر ألف فلسطيني وهو رقم يعني أن واحداً من أصل خمس عشرة فلسطينياً قد ذاق طعم السجن الإسرائيلي . ولجأت قوات الأمن إلى تهديم بيت الفلسطيني الذي يرتكب عملاً تسبب في جرح أو قتل يهودياً ودون محاكمته حتى لو كانت عائلة المذنب ما زالت تحت سقف الدار . وقد حدث أمر كهذا أيام الإنتفاضة حين لم تكثف قوات الأمن بقتل فلسطينياً يشبه بارتكابه جريمة قتل بل أبادت معه عائلته . لقد أحالت قوات الاحتلال منذ عام ١٩٦٧ حوالي (٥٠٠) منزل إلى مجرد أنقاض وباعت قرابة (٣٠٠) منزل تاركة سكانها من الشيوخ والنساء والأطفال بلا مأوى لا شيء سوى أن أحد أعضاء هذه العائلة أو تلك وقف بوجه هذا النظام الإسرائيلي المستبد .

أضافت الإنتفاضة بعداً جديداً إلى الصراع العربي- الإسرائيلي القديم بأن جعلت منه كفاحاً عاماً وطائفيّاً أكثر من أن يكون نضالاً سياسياً . لقد أزعج استخدام الفلسطينيين للحجارة والسكين الإسرائيليين كثيراً والذين تعودوا اللعب وفق أنظمة مختلفة فضلوا فيها مقاتلة الفلسطينيين بالأسلحة (النظيفة) ، والأكثر أهمية من ذلك أن هذه الأسلحة قد أخافت الإسرائيليين كثيراً .

أحال الاحتلال وما رافقه من خوف المجتمع الإسرائيلي إلى مجتمع دفاعي غلبه مبدأ حفظ الذات . لقد نجحت إحدى الفلسطينيات في إرباك المجتمع الإسرائيلي

بأسره عندما زرعت قنبلة في سينما القدس . ثم ابتكرت قوات الأمن وسيلة بدت في وقتها ذكية وهي تعيين حرساً عند مدخل كل مسرح سينما لفحص الحقائق ، واستمر هذا الحال حتى اليوم ليس عند مداخل مسارح السينما فحسب بل في كل البنايات العامة في إسرائيل مثل المدارس ورياض الأطفال .

هذا الخوف المتزايد من الفلسطينيين قد حرك مشاعر الكره والانتقام لدى الإسرائيليين ، وهو أمر قاد بحد ذاته إلى الإفصاح عن التعصبية والعنصرية . اذاقترح بعض من سكان مستوطنة (أريئيل) وهي من أكبر المستوطنات اليهودية في الضفة الغربية وكان بضمنهم (رئيس بلدية المدينة) إجبار العمال الفلسطينيين على وضع بطاقة بلاستيكية لغرض السيطرة على دخولهم . لقد تناسى أصحاب المقترح وهم من أنصار الليكود المضامين المربعة لهذا المقترح وأعادوا إلى الأذهان ما فعلته النازية الألمانية قبل ستين عاماً عندما أجبرت يهود أوروبا على وضع نجوم صفراء على ملابسهم . إن خيبة الظن والإحباط من عدم إيجاد حل سياسي معقول للنزاع العربي-الإسرائيلي قد جعلتنا الإسرائيليين يتخبطون على غير هدى وباتوا عرضة لكثير من الحلول القمعية وأكثرها شيوعاً هو حل التطرفية السياسية .

من جانب آخر ما فتأ اليساريون والأحرار منذ سنوات عديدة خلت ينادون بعزل المجتمعين عن بعضهما البعض بيد أن أصواتهم لم تلق يوماً أذنأ صاغية برغم أن الأغلبية من الإسرائيليين عادوا مؤخراً إلى الخط الأخضر (وهنا أتكلم مجازاً) أو حدود إسرائيل القديمة لما قبل حرب الأيام الستة . ثم إن الإسرائيليين يتجنبون بدافع الخوف زيارة الأراضي المحتلة كما لا يرغبون رؤية الفلسطينيين في شوارعهم فترة أطول من هذه . انهم يقتربون اليوم بعد الآخر إلى نتيجة أن لا بديل لهذا الأمر غير إيجاد عزل سياسي بين الجانبين لعله يكون أقل الشرور أذى .

الفصل الثاني عشر

نهاية الحلم

لم يعد شموئيل هارش يعيش في وهم آخر: لقد فشلت فكرة الكيبوتز (المزارع الجماعية اليهودية). هكذا يقول هادش وهو جالس على مجموعة من الصخور البركانية في مقبرة (كانتريت) ومزرعته الى يمينه. كانت أمواج بحيرة طبرية وأمامه قبور مؤسسي الكيبوتز. يقول هادش وقد أشار بيده الى الأسماء المحفورة على صخورهم: «لقد حاول هؤلاء ان يغيروا الطبيعة البشرية وان يخلقوا الانسان الجديد ولأسفي فان الكيبوتز لم تتوفق في هذه المهمة لأن طبيعة الانسان أقوى من صنائعه. إن شعب هذا الكيبوتز كحال باقي المجتمعات الانسانية يرغب أن يشر أقل البذور ويجني أكثر الثمار».

واذا ما استعدنا التاريخ لهادش لرأيناه بملابسه الزرقاء وحذاء ذو الرقبة الطويلة يجسد خلاصة سكان الكيبوتز الأوائل. لقد كان والده الذي دفن في مقبرة (كالكنت) بين مؤسسي أول مزرعة جماعية يهودية عام ١٩١١.

وصلت مجموعة من شباب هالوتزيم اورواد اوربا الشرقية مع وجبة المهاجرين المعروفة باسم الهجرة الثانية وشرعوا العمل في مزارع موحشة بأجر معين. وقرروا بعد أن أصابتهم خيبة الظن جسدياً وروحياً ان يقيموا لنفسهم تجمعاً جماعياً بإدارة ذاتية. فتحركوا جنوب الطريق مسافة ميلين بموازية شاطئ البحيرة وأقاموا (ديجانيا) التي هي أول مزرعة جماعية يهودية في فلسطين.

يعتبر الكيبوتز المساهمة الإسرائيلية الأكثر أصالة في التجربة الانسانية للقرن العشرين وكنت دوماً أعثر في رحلاتي حتى الى أبعد مناطق العالم على شخص ما قد عرف بعض الشيء عن الكيبوتز ولكنه لا يعلم شيئاً عن إسرائيل أو الشرق الأوسط أو اليهود. وما برح حتى اليوم الكثير من شباب العالم معجباً بفكرة الكيبوتز. ليس هؤلاء فقط بل حتى المثقفين وعلماء الاجتماع. فهي قد تأسست باعتبارها تجربة للتعايش الانساني المشترك وان نتائجها كانت تبغي الوصول الى تطور تقع أحداثه داخل الإنسان نفسه أي أنها أداة نحو تغيير الطبيعة البشرية.

طلق سكان الكيبوتز متأثرين بالكتابات الاشتراكية وبالكاتب الروسي الشهير (تولستوي) الى خلق مجتمع طوباوي. ان ما كان يحول في ذاكرتهم فكرة واحدة تشاطروا فيها مع الفلاسفة الشيوعيين الذين الموهوم بعض الشيء: (ساهم بقدر مادعتك اليه قدرتك وتلقى قدر حاجتك). لقد جاهدت الكيبوتز لتغير الصورة القديمة ليهودي الأكوخ: أي من تاجر ومراي الى مزارع ورائد يحرث الارض.

كان نظام الحركة الشبابية اليهودية الأداة المثلى التي جندها الكيبوتز وغدت وجهة أي عضو في منظمة شبابية ذات اتجاه عمالي هو الاستيطان في الكيبوتز. وهنا كان لابد للتركيبة النهائية ان تحدث وستألف من المساهمة الفردية الوطنية للصهيونية ورواد إسرائيل مع متابعة الايديولوجية الاشتراكية لخلق مجتمع أكثر راحة وأوسع عدالة، وكان مفروضاً من الحركة الشبابية ان تكون الممر المؤدي الى حياة أفضل داخل الكيبوتز.

لقد كنت كأبي طفل إسرائيلي عضواً في إحدى هذه الحركات التي كانت تطلق على نفسها اسم هاشومير هاتزايرو (المراقبون الشباب) وهي منظمة الى يسار حزب العمال الإسرائيلي. لم يكن ليبدولي آنذاك شيء أكثر إسرائيلية من منظمتي وكل ماكنت أبغيه أن أحاكي أصدقائي في لبسهم وطريقة حديثهم ولم ادع لنفسي فرصة نزهة تفوتها

فهدفي كان أن أثبت هؤلاء أنني لم أعد طفلاً يهودياً مشرداً (ديسبورا) او مهاجراً بولندياً بل إسرائيلي حتى العظم . وقد ذهبت يحدوني نفس السبب لـ (احقق صهيونيتي) داخل الكيبوتز . لقد مكثت فيها عاماً واحداً وعدت بعدها أدراجي الى الحياة المدنية وتلك كانت هزيمة . إن وخز الضمير لم يدعني أرقد سالماً : لقد فشلت أن (احقق ذاتي) في الطريقة التي لقنوني اياها واشترطوها علي . إن الوقت القصير نسبياً الذي امضيته في الكيبوتز هو الدلالة التي شخصت فرديتي وقيمي وفطرتي السياسية الأساسية .

وقد أمسى بناء المزارع الجماعية اليهودية كربايا ريفية الوسيلة الرئيسية التي تقاسمتها كل مزارع الحركة العمالية في مساهمهم لنشر الصهيونية الاشتراكية الى جبهات عديدة . لقد عززت أمن المجتمع اليهودي في الأيام الأخيرة لما قبل تأسيس الدولة وأكثر منها بعد الاستقلال عام ١٩٤٨ . ويات هذا التأثير القوي للكيبوتز على المجتمع الإسرائيلي أكثر ملموسية في مرحلتي الخمسينات والستينات . وبرغم ان اعضاء الحركة البالغة عددهم مائة ألف عضو لم يشكلوا حيتث الا ثلاثة بالمائة من مجموع السكان اليهود فان مساهمتهم الهامة والمتنوعة لدولة إسرائيل مازالت حتى اليوم يشار اليها بطيب خاطر . فقد شكل أعضاء الكيبوتز حوالي عشرين بالمائة من مجموع طياري القوة الجوية الإسرائيلية ومقاتلي الوحدات الخاصة التي هي أهم خطوط الدفاع الإسرائيلي . كما نبعت نسبة طيبة من قادة البلاد خلال الثلاثين سنة من الهيمنة العمالية من هذه الحركة . وهذه المزارع تنتج خمسة عشر بالمائة من مجموع صادرات البلاد الصناعية وتوفر لها خمسين بالمئة من حاجتها الزراعية .

أدرك هؤلاء المساهمين في والمتمسكين بمبادئ الثورة البلشفية أن جني المستقبل لا يتم الا بالنضال ، وشاطرهم هذا الاحساس أعضاء الكيبوتز وتطلعوا اليها كأنها المسعى النبيل الأول في التاريخ الانساني الهادف الى بلوغ مثاليات الشيوعية المتمثلة

بالعدالة الاجتماعية والرفاهية والاعتماد المتبادل .

واليوم قد تغير كثيراً هذا الحال وأضحى الكيبوتز على عتبة أزمة خطيرة فهي قد فقدت بعد مرحلة الستينات شعورها بالهدف بعد ان ملكت إسرائيل جيشاً قوياً قادراً على الدفاع عن شعب إسرائيل وعليه تلاشى الموقع الحيوي للكيبوتز كمدافع عن الجهات البعيدة . كما حذا شباب المدينة حذو شباب الكيبوتز في حماسهم للتطوع في الوحدات الممتازة الإسرائيلية . وبعد فقد بهت أعضاؤها دائرتها السياسية بعد ان خسر حزب العمال السلطة لصالح الليكود وانخفض عدد أعضائها في الكنيست من عشرين يوم كانت في عصرها الذهبي الى أربعة فقط .

وساء حال الكيبوتز في حقبة الثمانينات عندما غاصت في وحل كساد اقتصادي عميق بسبب الادارة السيئة وافتقارها للدافع المحرك وخسارتها للدعم الحكومي المالي لها . وقد أقدمت الكيبوتز في خطوة منها لإنقاذ التضخم المالي الكبير لليكود على المساهمة الاستثمارية القصيرة داخل سوق تبادل العملات وهو ما رفع مديونيتها في مطلع التسعينات الى عشرة مليارات دولار .

تمخض الانهيار الاقتصادي عن انحلال ايديولوجية الكيبوتز وباتت أكثر عرضة للادى . فنكران الذات والمثالية اللتين كان مجتمع الكيبوتز يوماً ما فخوراً بهما قد تبخرتا سريعاً . فلم تعد رغبة التطوع في الوحدات الممتازة للجيش الإسرائيلي تمتلك شباب الكيبوتز وأخذ معظمهم يرفض العودة اليها اذا ما أنهى خدمته العسكرية البالغة ثلاثة سنوات متجهين صوب إغواءات المادية والحريات الفردية الكبيرة التي تقدمها لهم الحياة المدنية الإسرائيلية التي يبدو انها لم تشبع رغبات بعضهم فتركوا حتى حياة المدينة الإسرائيلية وحلقوا الى كشمير او الهند او بيرو وبعضهم كـ (الإخوة رابوبورت) طار الى لوس انجلوس .

يعيش غابرييل رابوبورت وعائلته في (بيت الفا) وهي مزرعة جماعية يهودية تأسست في العام ١٩٢٠ ، وهي واحدة من أقدم وأكثر المزارع اليهودية احتراماً في إسرائيل وأكثرها ازدهاراً. هاهنا يقدم غابرييل رابوبورت مثلاً آخر للجندي المزارع الرائد الذي جاهدت صهيونيته السائدة كثيراً حتى تخلقه هكذا. لقد جسد غابرييل بصفته عضواً في الكيبوتز وضابطاً عسكرياً كبيراً مثالية واسطورية الصباري. انه ابن الرواد الذين كانوا أول من استوطن بيت الفا، وقد حارب قبل الاستقلال مع حركة هاغاناه السرية وساعد أيضاً في حصار القدس عام ١٩٤٨. ثم ترقى الى رتبة عقيد في الجيش الإسرائيلي وبعد أن ترك الخدمة العسكرية عاد الى حقول بيت الفا حيث انشأ أطفاله على نفس مبادئ الصهيونية الاشتراكية التي ترعرع عليها. بيد أن النجاح لم يكتب لمهمته.

علم غابرييل صفاره الرماية وتعلموا منه مبكرين قيادة الجرارات الزراعية. بيد أن اياً منهم لم يستقر في الكيبوتز فاحدى بناته قد غدت يهودية مولودة من جديد وتزوجت من عضو يميني فاعل وبارز وذهب أولاده الثلاثة كما أراد لهم ذلك الى الوحدات المقاتلة الممتازة ولكنهم بعدئذ فشلوا في العودة الى الكيبوتز وهجروا البلاد الى لوس انجلوس وهناك مات أحد الاخوة الثلاثة بمرض أصابه وبقي الآخران في الولايات المتحدة حيث لحقت بهما أصغر بنات غابرييل.

هؤلاء الصغار شأنهم شأن الكثير من أترابهم قد خبروا الكيبوتز عائقاً في طريق فرديتهم وحريتهم وربما لعب اعتمادهم المالي عليها دوراً في هذا الأمر: لقد أراد هؤلاء الشباب ادخار مالاً كثيراً بين عشية وضحاها لظنهم ان المال سيأتي لهم بالسعادة التي يتمنون والتي لا تستطيع الكيبوتز منحهم إياها. وفي مطلع الثمانينات كان هناك قرابة ثلاثين شاباً يعيشون في أو قرب لوس انجلوس بعد أن كانوا يوماً ما أعضاء في الكيبوتز. لقد اتحد هؤلاء وعملوا سوية وكأنهم نقلوا الحياة الجماعية من إسرائيل الى

كاليفورنيا . لقد هزت رياح التغيير أركان كل الكيوتز الإسرائيلية مع اقتراب الاحتفال بالذكرى الخامسة والثمانين على تأسيسها ، وهي قد أجرت على نفسها بعض التغيير في محاولة منها لانقاذ نفسها من الانحطاط الفكري والكساد الاقتصادي والانحلال الاجتماعي والانخفاض الكبير في السكان فهي قد سمحت على سبيل المثال لأعضاءها الشباب بمواصلة دراستهم العليا في الجامعات والتمتع بإجازة لمدة سنة داخل المراكز المدنية الإسرائيلية او حتى في الخارج فقاعة الطعام التي كانت يوماً قلب الحياة الجماعية قد فقدت مركزيتها .

شملت هذه التغيرات أيضاً التعليم الجماعي برغم الغضب الذي استشاط به المؤمنون الحق بأيديولوجية التطهير . إذ تعود أطفال الكيوتز التربية منذ ولادتهم في بيوت معزولة مع أقرانهم الآخرين حتى يبلغوا سن الثالثة عشرة حيث يلتحقوا بالخدمة العسكرية . وليس بمقدورهم رؤية عوائلهم الا لساعتين في اليوم أو في عطلة نهاية الأسبوع برغم أن عائلاتهم لا تبعد عنهم سوى أمتار قليلة . هذه الطريقة الخاصة كما وصفها عالم النفس الراحل (برونو بتلهم) كانت (المساهمة الأكثر وضوحاً وفردية قدمها الكيوتز) .

كان جزءاً من هذا النظام التعليمي أن يأخذ الإناث والذكور حماماً مشتركاً -أي الذكور مع الإناث والصغار مع الكبار ، وهو ما أحدث ثورة فكرية في مطلع هذا القرن . لقد أيقن المؤسسون تماماً أن هذا الحمام سيخفف من التوتر الجنسي بين الرجل والمرأة وسيخلق جواً صحيحاً في العلاقات بين الجنسين . بيد أن التجربة فشلت وتوقفت في مطلع الخمسينات . ومع هذا استمر الشباب من الجنسين يتشاطرون غرف النوم . وكم كانت صدمتي حين وصلت الكيوتز وأدركت أن علي أن انام في غرفة مع اثنين من البنات ، وقد سلخت بعض الوقت حتى أتعود وجودهما الدائم معي وأعرف قواعد اللعبة . فإذا ما شاء أحدنا أن يغير ملابسه أدار الآخر وجهه الى

الحائط .

تعتبر الزراعة في الكيبوتز حتى اليوم قطاعاً مزدهراً ومتقدماً . فبعمليات غسيل تحولت التربة الغريبة من البحر الميت من تربة مالحة الى أخرى خصبة . وبسبب الطقس الحار للبلاد استمرت زراعة بعض الفواكه والخضروات مثل الخيار والطماطة حتى في فصل الشتاء لتزويد أسواق أوروبا . أما الحالة السائدة في الكيبوتز اليوم فهي الانتقال من الصناعة والزراعة الى الخدمات . فشرعت بتأجير البيوت الصغيرة وتقديم وجبات الإفطار وافتتحت مطاعم الوجبات السريعة وبعضها واقعة في وسط تل أبيب ، وافتتحت صالونات تجميل ومؤسسات معمارية وقانونية ووكالات للدعاية ، وراودت بعضها فكرة افتتاح النوادي وحانات بيع الخمر .

وفي محاولة منهم للبقاء افتتح الكيبوتز مدارس لأطفال من غير أعضائها وأقاموا لهم مقابر . فقد اشترى أحد الصناعيين الفرنسيين الأثرياء الذي عاش أخوه في أحد هذه المزارع الجماعية قطعة أرض من الأراضي المقدسة في مقبرة (كينريت) بأن تبرع بربع مليون دولار لصيانة الموقع . بيد أن المحاولة الأكبر لمغادرة الماضي قد جاءت بها (نيون موردخاي) التي تقع على بعد أربعين ميلاً شمال بحيرة طبرية حين قررت إدارتها العامة فصل النشاط الاقتصادي عن الحياة الاجتماعية والثقافية ، فالكيبوتز تقدم لأفرادها الأعضاء الملابس والغذاء والبيت المؤثث بالإضافة الى حاجياتهم الثقافية والاجتماعية ومصرف جيب قليل . وأنداك لم يكن اي إشراف على نوعية أو كمية العمل . واليوم أجبرت نيون موردخاي جميع أعضائها على العمل لفترة (٢٧٥) يوم في السنة ، وأي تقصير في هذا الجانب سيتحمل صاحبه عقوبة مالية بخفض مخصصاته الفردية .

وبدأت موردخاي على غرار بيروسترويكا ميخائيل غورباتشوف بحمل مركزية نشاطاتها الاقتصادية ، وأضحى لكل فرع سواء أكان زراعياً أم صناعياً أم خدماً نظامه

المستقل ، لا يرتبط مع أو يمول من الجماعة بل إن عليها أن تثبت قدرتها وكفاءتها الإقتصادية. وبعضها الآخر شرع بدفع أجوراً للأعضاء عن وقتهم الإضافي في العمل بعد أن رفض هؤلاء مسبقاً التطوع للعمل الإضافي مجاناً، وهو ما تسبب إفساد كثير من المحاصيل وهدر الأموال. وإذن فقد دعت الحاجة لتقديم حوافز لتتمكن الكيبوتز من تلبية الحاجة الموسمية من المحاصيل الزراعية. وتمثل الاتجاه الآخر بأن أقدمت الكيبوتز -لأجل النهوض باقتصادها- على بيع صناعتها أو الدخول في مغامرات صناعية مع مستثمرين آخرين. ولهذا الغرض جيء بمدراء وخبراء من خارج الكيبوتز مقابل رواتب ضخمة تدفع لهم.

أما الآن فقد تغيرت الأحوال وغدت الصناعة ضرورة لنفسها، فهي لم تعد وسيلة لتوفير العمل بل مشروع تجاري لا غير. وكتيجة لهذا الأمر هبت على ساحة الكيبوتز الهادئة رياحاً رأسمالية عاتية جلبت معها شركات الأسهم المالية كل ما تنطوي عليه من مجلس إدارة ومدراء واجتماعات مجلس الإدارة وأرصدة ضخمة. هذه قد ساعدت في ولادة طبقة أخرى داخل الكيبوتز احتلت أعلى السلم الاجتماعي.

هذه التغيرات قد رفعت معها المبادئ الأساسية التي نشأت عليها الكيبوتز، ويقول أحد قوات الحرس الكبار: «لقد استحدثوا فكرة الأجور، ويزود المستخدمون المأجورون الصناعة بالرجال فما هو الاختلاف بيننا نحن أصحاب هذه التجربة الفريدة وأي طريقة أخرى للحياة الإسرائيلية».

ويخشى الكثيرون أن الكيبوتز ما لم تغير من اتجاهاتها هذه فإنها ستتحول من مجتمع مثالي ورائد إلى آخر تجاري مادي مغامر، ومن المجتمع الريفي إلى آخر معقد خاص في الصناعة والخدمات ومن طليعة الصهيونية الاشتراكية إلى قاعدة رأسمالية واستهلاكية لا تقدم لأفرادها شيئاً عدى حياة الرفاهية التي تعيشها باقي المناطق الراقية في إسرائيل.

الفصل الثالث عشر

أعراض السوبارو

يتردد اسم (سوبارو) على مسامع أرجاء العالم بأنه إسم لسيارة يابانية لكنه يحمل في ثناياه داخل إسرائيل لقباً اقترن بسكان ضواحي .

إسرائيل المتوسطة الحال . فالسوبارو التي هي نتاج إحدى شركات صناعة السيارات اليابانية الرائدة كانت أول سيارة تدخل أسواق إسرائيل مطلع السبعينات من هذا القرن . لقد رفضت شركات صناعة السيارات اليابانية قبل عشرين عاماً التعامل مع إسرائيل خشية المقاطعة العربية لها بينما تجاهلت السوبارو هذا الضغط وتعاملت مع إسرائيل وأصبحت لهذا السبب أول شركة يابانية تدخل أرض الميعاد . أما اليوم فيختلف الحال وبات لإسرائيل متعاقدين مع جميع شركات صناعة السيارات اليابانية . غير ان الدعم الإسرائيلي لشركة سوبارو لا ينظوي تحت إطار التعبير عن العرفان لها فحسب بل لأن دخول السوبارو لإسرائيل شكل الحد الفاصل للإنتقال التدريجي لمجتمع إسرائيل من صرامة منتج أولي الى مستهلك غربي .

كان المجتمع الإسرائيلي في مرحلة الستينات مجتمعاً بسيطاً بسبب محدودية موارده ومصادره المالية ولم يتجاوز فيه الأثرياء في عددهم القلة القليلة والذين حدا بهم مزاج البلاد السائد الى اتخاذ موقف المعتذر دائماً خجلاً من حالة الفيض التي يعيشونها . كانت معظم المنازل تفتقد الى البراد لحفظ الأطعمة وتلك مشكلة خطيرة بحد ذاتها بسبب جو البلاد شبه الإستوائي . وكان حلماً أن تفكر العائلة الإسرائيلية المتوسطة

الحال آنذاك باقتناء مكيف هواء أو غسالة ملابس اما عدد السيارات عام ١٩٦٦ فكان خمس سيارات لكل ألف مواطن بضمنها سيارات الحكومة وسيارات الشركات .
وواسطة النقل الأساسية كانت الحافلات العمومية التي تقطع المسافة بين تل أبيب والقدس والبالغة أربعين ميلاً بحوالي ساعتين من الزمن .

ويبدو ان الحكومة قد راق لها واقع الحال هذا كثيراً فانعدام السيارات أجبر السكان على قضاء الليالي في ديارهم ليس هذا فحسب بل ان يأووا الى فراشهم مبكرين وينهضون الى اعمالهم مع بواكير الصباح الاولى لأن بيوتهم تخلوا من جهاز التلفاز . لقد أرادت الحكومة عملاً أكثر وانتاجاً أو فر فعكست بذلك روح الإشتراكية العمالية التي تخضع فيها رغبات الفرد الى حاجيات المجتمع وهكذا عد المجتمع الإسرائيلي عبارة (البضائع الاستهلاكية) مصطلحاً فاجراً في قاموس المفردة القومية واستبدلت مفهوم الاستهلاكية بالبديل الذي رآته الأمثل وهو الاعتدالية والصرامة . ولكي تضع الحكومة هذا المفهوم موضع التنفيذ فإنها حرمت الإسرائيلي من شراء المواد الاستهلاكية بأن فرضت ضرائب عليها بلغت (٣٠٠)٪ من قيمة الشراء لمواد مثل التلاجات والغسالات والمكاوي وهنا توجب على العامل الإسرائيلي أن يعمل لثلاث سنوات حتى يتمكن من دفع قيمة جهاز تلفاز أو غسالة مثلاً . وما برح هذا الموقف قائماً من خلال الترجمة العبرانية لمثل هذه البضائع بمصطلح (المواد الفارهة) .

ثم غيرت حرب الأيام الستة وماتلاها هذا المفهوم بعد أن زودت الأراضي المحتلة الإسرائيلي بفرص إقتصادية عززت مستوى معيشته وشهدت الصناعة الإنشائية ازدهاراً خاصاً فلكي ندافع وتبقى قبضتنا على الأراضي المحتلة وعلى الفلسطينيين فلا بد اذن من بناء التجمعات العسكرية والطرق والمستوطنات . وكحال نظام الإستعمار على مر التاريخ شرع الإسرائيلي الغازي باستثمار الايدي العاملة الفلسطينية بضمن بخس وجلبت له ازدهاراً وعبدت الطريق امام ظهور الأثرياء الجدد

في البلاد فالمقاول الصغير الذي لم يكن قبل الحرب أقدر هو وعائلته على غير عيشة الكفاف أضحي بين عشية وضحاها ثرياً وذا سطوة بعد أن ضاق به الوقت لكثرة طلبات الحكومة لبناء الطرق والمواقع العسكرية . وتوزعت أمواله بين فروع الاقتصاد فهو إذا ما ابتاع شقة جديدة وكبيرة يكون قد وفر مالاً آخر الى مقاول آخر وبات قادراً أن يسد مبالغ الثلاجة والغسالة (المواد الفارمة) .

مهدت حالة التحسن المستمر هذه السبيل صوب حقيقة جديدة ، كانت إسرائيل مجتمعاً غير طبقي في أغلبه وفيه عملت كل من التجديدية النسبية والمذهبية الاشتراكية وايدئولوجيتها في الإبقاء على حالة اللاتطبقية في أقصاها . بيد أن السبب الرئيس يكمن في ان إسرائيل نفسها لم تكن قادرة على توليد هذا النوع من الفجوات الاقتصادية والاجتماعية المتوفرة في بلد آخر مثل الولايات المتحدة بين غنيها وفقيرها . هذه اللانقدرة ناجمة ليس عن كون إسرائيل بلداً صغيراً يعرف فيه أحدهم الآخر فحسب بل لأنها مجتمع نفي عام بحذافيه أي انه مجتمع يتطلب من جميع مواطنيه غنيهم وفقيرهم أن يخدم فترة طويلة في الجيش ينتقل فيها من مجند الى إحتياطي والتمايز الطبقي سيولد شراً لا يمكن إهماله لانه سيمنع الدولة من ان تحفظ لمواطنيها دوماً المعنوية العالية إذ كيف بمقدور الفقير أن يشعر بانه شريك مع الغني الذي يفوقه مالاً وموقعاً في البلاد التي يتقاسمونها .

لم تال حكومات العمال وكذلك الليكود في فتراته الاولى جهداً لإبقاء المجتمع الإسرائيلي مجتمعاً تتساوى فيه الطبقات الاجتماعية لغرض إتاحة أوسع مجال للحركة الاجتماعية وخلق الشعور أن لكل فرد برغم صعوبة الظرف نفس الفرصة الكامنة في التقدم وهكذا ولد مجتمع ريبا كان من اكثر مجتمعات الطبقة الوسطى في العالم .

إن إسرائيلي الطبقة الوسطى اليوم والذي تحقق له حلم الطبقة الوسطى مازال يرى نفسه مجرداً من الكثير من الأشياء فإسرائيل لما تنزل تنظر الى البراد والمنجف

والتلفاز الملون مجرد رموز أثاث أكثر من أن تكون وسائل راحة وحياة أفضل .
وجلبت الحضارة الاستهلاكية الجديدة لإسرائيلي الطبقة الوسطى الستارة الخلفية
لهاجسه الأكبر وهو (سيارته) . وهكذا تتجمع عشرات الآلاف من العوائل مساء كل
جمعة لغسل وتلميع سياراتها ليس لانهم يدخرون مالا بهذه العملية بل لأنهم يعبدون
السيارة . وأن تقتني سيارة سوبارو يعني انك حققت الحلم النهائي والسوبارو هي
الدلالة التي تربط صاحبها بمجتمع الطبقة الوسطى .

أصبح مالك السيارة اليابانية ونتيجة لاقتنائها بالولايات المتحدة هو من تحقق له
الحلم الإسرائيلي . فإسرائيلي الطبقة الوسطى ينظر الى صاحب السيارة السوبارو بـ
(المستهلك الأمريكي) برغم ان السوبارو من صنع ياباني وليس لها علاقة مع الولايات
المتحدة بأي شكل من الاشكال . إن أمريكا للإسرائيلي ليست مجرد مفهوم جغرافي بل
هي رمز لمستوى الحياة وفيها ينال المرء جميع أحلامه .

لقد حاول الهيبى الإسرائيلي ان يبقى دوما في تماس مع آخر تطورات العالم
الأكبر . انهم يدخلون آخر صرعات السلوكية الراديكالية وكذلك الأزياء وفن الطبخ
والثقافة . فاذا ما ارتدى سكان قرية (جرين وج) رداءاً أسوداً ارتدى جميع رواد
النوادي والكازينوهات نفس الرداء . انها طريقة للتظاهر انهم ليسوا سكان تل أبيب
بل سكان نيويورك . لقد هاجر كثير من الإسرائيليين بل هربوا من إسرائيل بسبب هذا
الشعور الذي كان ينخر فيهم وليجربوا حظهم في الولايات المتحدة . ولا توجد
إحصائية دقيقة عن عدد هؤلاء المهاجرين بيد أن الرقم يتراوح بين ربع مليون الى
نصف مليون منذ عام ١٩٤٨ . ان من هجر البلاد خلال الفترة الاولى هم أولئك الذين
فشلوا أو شعروا انهم فشلوا أو ادعوا انهم شعروا انهم فشلوا في تحقيق حلم
الإسرائيلي . وانشصر دافع الهجرة قبل عشرين سنة على الصعوبات المالية داخل
إسرائيل ثم تولدت وعلى مدى السنين دوافع إسرائيلية للهجرة كان معظمها الخوف

من الحرب وتجنب اداء خدمة الاحتياط التي هي مرة كل سنة في أقل تقدير حتى بلوغ منتصف العمر .

إن ماكان نموذجياً لدى الإسرائيلي وعلى خلاف بقية المهاجرين هو شعورهم بالحنج من انهم هاجروا مواطنهم التي ولدوا فيها وهم الآن يتحينون الفرصة للاعتذار لها وباننا عائدون (قريباً) (حتى وان امتدت فترة (قريباً) حتى يوم الدينونة) . إن المجتمع الإسرائيلي هو مجتمع المغتربين الوحيد داخل الولايات المتحدة الذي يجادل بان أمريكا ليست بمكانه الدائم . ثم ظهرت في السنوات الاخيرة موجة من الاسرائيليين الذين لم يتناهم الحنجل لما فعلوا وهجروا إسرائيل ليس لأن الضجر قد سكنهم بل لانهم أدركوا في إسرائيل ليست بالمكان المناسب . وهو يسعى لأن يتذوق الجوهر الحقيقي للحياة الأمريكية بعد أن عاش وجودها الزائف في إسرائيل . هذه المجموعة الجديدة من المهاجرين ضمت صفوة المجتمع الإسرائيلي من الأساتذة ورجال الأعمال .

إن إسرائيل بلد التطرفية وفيه تتأرجح طبائع الناس على نحو كبير وعنيف بين الاحساس بالاختناق التام وبين النشوة الغامرة بالابتهاج واقامة القداس . هذه التارجحية ليست بعيدة عن الدين اليهودي نفسه فهو يرى الوجود اليهودي حركة تقبع بين الدمار والإصلاح وربما كان سببها غياب قيم المساواة القديمة والعدالة الاجتماعية . لقد توجب على إسرائيل اليوم ان تواجه بالاضافة الى مرح ورفاهية الحياة الأمريكية مشاكل أمريكا . ان إسرائيل الأمس بالكاد كانت تتحمل ان تتصور ان أبناءها قد بلغهم الفقر المدقع وان احدهم قد طوى على الغنى . إنني مازلت أتذكر عام ١٩٦٥ عندما أعلنت فتاة كانت تبلغ من العمر الثانية عشرة في برنامج إذاعي انها تتصور جوعاً حينها اهتزت أركان وجدان الأمة بأكملها وكان مخاضها ان ارتفعت حمى اجتماعات الكنيست وزادت الصحافة من ضغطها على حكومة العمال للتحقيق في

القضية . أما اليوم فما أكثر حالات المجاعة الحقيقية .

لقد ارتفع مؤخراً عدد الفقراء في إسرائيل وبلغ نهاية عام ١٩٩١ حوالي النصف مليون فقير وبلغ المرء خط الفقر في إسرائيل اذا وصل دخله الشهري الى (٢٢٠) دولار أو اذا بلغ معدل دخل العائلة باكملها (٤٠٠) دولار . فإيجار الشقة الصغيرة الشهري لا يقل عن (٣٠٠) دولار وهذا يعني ان المبلغ المتبقي لا يكفي لسد حاجات المرء الأساسية بل لا عجب ان الكثير منهم قد انحدر تحت خط الفقر حتى بلغت نسبتهم واحد الى كل سبعة إسرائيليين ومعظمهم من الأطفال . كما تشير تقديرات رسمية أخرى ان أطفال ثمانية عشر ألف عائلة يعانون اليوم من سوء التغذية . ويقول موظفون في مراكز الرعاية الاجتماعية الإسرائيلية انهم قد اصطدموا بحالات مرعبة وفيها (في سيناريو دويكنزي) يتسول الصغار بين كسارات الطعام داخل النفايات أو ان يفعلوا أعمالاً شاذة بحثاً عن شفقة الآخرين .

وضعت هذه الظروف المروعة إسرائيل في عداد الدول التي داومت على تقييم حالة فقرها بانتظام . لقد تجاوزت نسبة الفقر في إسرائيل نسبتها في كندا والمانيا وهي أقل فقط من الولايات المتحدة التي تجاوزت فيها نسبة مادون خط الفقر ٢٠٪ من السكان وعليه فان شبح الفقر لم يعد يحيم على أحلام الفرد في منامه بل انك لتراه في تل أبيب والقدس حيث يمضي ذلك الفقير البائس ليلته برفقة البرد القارس لا تغطي جسده سوى خرقة بالية ومتقوقعة في صناديق كرتونية .

كانت إسرائيل الماضي نموذجاً لدولة الرفاهية الحديثة وفيها تولت الدولة شؤون الرعاية حتى لا تجد ضالاً بلا مأوى أو عليلأ بلا دواء أو محتاجاً لمال يسد فيه رمق الحياة . غير أن خيوط هذا النسيج الاجتماعي قد انسلت مع انتقال الدولة من الاشتراكية ونظام الرعاية الاجتماعية الى السوق الحرة والفاقة . أما الحصيلة الثانية فكانت نفسها التي عبرتها باقي أقطار اوربا الغربية التي سلكت نفس الطريق ألا وهي

البطالة والفاقة والتشتت الاجتماعي . لقد قذفوا برضيع العدالة الاجتماعية في مياه استحمام الكفاية الاقتصادية .

يخضع جميع الإسرائيليين لنظام الضمان الصحي ولهم الحق متساوين في العلاج داخل المستشفيات تلك هي النظرية والتطبيق منذ عهد الاستقلال غير ان شروخاً كثيرة قد نخرت اليوم هذا البنيان حتى لينتهي فيه حال من لايسعفه جيبه ليدفع الضمان الصحي أن يبقى بلا علاج أو يدفعوا به الى الرعاية الطبية من الدرجة الثانية . وإني أتذكر والذي عام ١٩٨٨ حين توجبت حالته ان يجري عملية جراحية للقلب . فهو قد واضب على دفع الضمان الصحي طوال ثلاث عقود من الزمن أي منذ وصولنا لإسرائيل وعندما حانت ساعة الصفر واحتاج للضمان الصحي تذوق طعم الحقيقة المر . إذ تحتم عليه ان ينتظر موعداً بعد سنة لاجراء العملية بسبب قائمة المنتظرين الطويلة . ولان حالته لا تحتمل التأخير واستناداً الى نصيحة طبيبه ذهبت لاجراء العملية في مستشفى خاص كلفت حوالي (٢٠) الف دولار امريكي . وبعد مرور ستين تحتم على والذي أن تجري ذات العملية الا أنها كانت أوفر حظاً فقد اكدت بدفع ثلاثة آلاف دولار أمريكي (تحت العباءة) للجراح . وتسمى هذه المدفوعات غير الشرعية بمسميات كثيرة منها مساهمة وقاية أو أجور استشارة والحقيقة هي انك بفضلها ستقفز فوق قائمة الانتظار وتختار جراحك الذي تريد وتتحصن ببعض الإمتيازات الطبية داخل المستشفى . واثك لتجد مثل هذا الفساد الإداري في جميع ضروب الحياة الإسرائيلية . فقد نشرت تقاريراً نهاية الثمانينات تفيد بان بعض القضاة قد استلموا رواتب موظفين بالابتزاز ، وتفشت فضائح داخل القوات المسلحة عن عمليات الابتزاز المالي والتزوير واختلاس كبار الضباط لعشرات الملايين من الدولارات الأمريكية .

هذه دلائل ان مثالية الماضي قد عبدت الطريق للمادية بمثل هذه النسب التي

اقتربت الى الجشع البشع ومذهب المتعة المتطرف فالإسرائيلي يرغب دوماً ان يجني مالا وفيراً وبسرعة . لقد قدمت واشنطن لإسرائيل منذ عام ١٩٦٧ حوالي سبع وسبعين مليار دولار امريكي على شكل قروض أو مساعدات عسكرية وهو رقم يعني ان كل رجل وامرأة وطفل إسرائيلي قد تلقى ما يناهز سبعة عشر الف دولار امريكي من دافعي الضرائب الأمريكان . ورأت الولايات المتحدة في إسرائيل حليفاً يعتمد عليه وشريكاً استراتيجياً في النضال ضد الإتحاد السوفيتي . وقد تقوى هذا التحالف بفضل الدستور الديمقراطي الإسرائيلي واللوبي الصهيوني في إسرائيل وكذلك بتأثير المجتمع اليهودي . وقد ساعدت هذه العلاقة الخاصة بين إسرائيل والولايات المتحدة البلاد في ان تخلق ظرفاً فريداً يعيش فيه الشعب بتخمة ورفاهية فوق حدود القدرة المالية . ولولا هذا الدعم الأمريكي لغدت إسرائيل كباقي بلدان العالم الثالث . وهنا نعرب عن عرفاننا لأمريكا التي جعلت إسرائيل تستهلك أكثر مما تنتج .

لقد أفسد هذا الكرم الأمريكي حكومات العمال والليكود المتعاقبة منذ فترة ما بعد احتلال الأراضي في حزيران عام ١٩٦٧ فهي لم تطلب منهم شيئاً مقابل هذا الكرم . فالإدارات الأمريكية المتتالية منذ عهد الرئيس ليندون جونسون الى الرئيس رونالد ريغان لم تتخذ إجراءً دبلوماسياً ضد إسرائيل برغم انها عارضت بناء مستوطنات إسرائيلية في الضفة الغربية وقطاع غزة . وذهب الرئيس ريغان كثيراً في سخائه على إسرائيل ليجعلها تشعر بالامان وصب على الاقتصاد الإسرائيلي المال بعد المال على شكل مساعدات عسكرية فكان نوعاً من الكرم فهمه الإسرائيليون انهم لما يفعلوا بعد خطأ في عيون الأمريكان .

إلا ان قادة إسرائيل أدركوا لما ولجت قدمي الرئيس جورج بوش عتبة البيت الابيض في كانون ثاني عام ١٩٨٩ ان الحزب قد ينتهي . فالرئيس بوش ووزير خارجيته قد افتقرا الى العاطفه والالتزام الايديولوجي اللذين تحلا بهما سابقيهما حيال

إسرائيل فلم تعد إسرائيل بنفس تلك الأهمية والحصن الحصين الذي سيقف حائلاً دون عبور الشيوعيه الى المنطقه بعد أن إتهار الاتحاد السوفيتي . لقد حاول فريق بوش - بيكر إسترضاء العرب على حساب إسرائيل في مسعاه إسناد الموقف الامريكي الجديد في المنطقة واحتواء انتشار القومية العربية والتطرفية الإسلامية التي تهدد إمداد الغرب بالنفط .

وعليه قررت ادارة الرئيس بوش تجميد بناء المستوطنات اليهودية في الضفة الغربية وتلك أصبحت بعدئذ القضية الأكثر ثقلاً عاطفياً وسياسياً للإسرائيليين والفلسطينيين على حد سواء . كان يعيش ما يقارب (١٢٠) ألف يهودي في هذه المستوطنات وطلبت الحكومة الأمريكية إيقاف بناء مستوطنات جديدة وتحديد البناء في المستوطنات القائمة حالياً ثم طلبت إسرائيل (لأنها قد تحلت بسياسة ضبط النفس في حرب الخليج) قرضاً مالياً من الولايات المتحدة بقيمة عشرة مليارات دولار للمساعدة في استيعاب حوالي مليون يهودي قادمين من الإتحاد السوفيتي السابق وهذه كما تراها الحكومة الإسرائيلية قضية إنسانية لا تمت للسياسة باية صلة . بيد أن بوش ويكر رفضا الأمر وأخبرا الإسرائيليين «إذا أردتم المال توقفوا عن بناء المستوطنات التي تقف حجرة عثرة أمام السلام» وتلك هي المرة الاولى في تاريخ العلاقات الأمريكية الإسرائيلية التي تتخذ فيها الولايات المتحدة العقوبات المالية كقوة سياسية . وبعد أن تغيرت حكومة إسرائيل ولان إنتخابات الرئاسة الأمريكية قد اقتربت عدل الرئيس جورج بوش قراره السابق وأخبر رئيس وزراء إسرائيل اسحق رابين في ايار عام ١٩٩٢ ان الولايات المتحدة ستمنح إسرائيل هذا القرض .

بيد ان الإسرائيليون الذين أذهلتهم صدمة القرار الأمريكي السابق قد أدركوا ان لأموال البلاد يجب ان يضعوا بضع أولويات . فقد حاول قادة إسرائيل وعلى مدى سنوات طوال التلويح بعدة شعارات في آن واحد وفيه وعد أحد هذه الشعارات بخلق

الأمان في أقصى درجاته ووعد شعار آخر بمستوى معيشة عال ووقف الآخر بجانب الاحتلال وعلى قمع الفلسطينيين والآخر بميلاد مجتمع الديمقراطية والعلم ، وفي بناء المستوطنات وتظاهر آخر بأن إسرائيل تريد السلام .

لقد تجلى للإسرائيلي الجديد ان صلته بسيارة السوبارو قد استحالت عليه سيفاً ذا حدين فهي إذ ساعدته في ترجمته المحلية للحياة الأمريكية فانها قد أجبرته أن يعلن عن أولويات حياته . وهنا ثقت مرحلة التسعينات منطاد حلم السوبارو الإسرائيلية ، فإسرائيل لا تتوقع ان بمقدورها ان تدير شؤون حياتها كما كانت تفعل في الماضي فهي بلد فقير وصغير وإذا ما استمرت هجرة المزيد من اليهود الى إسرائيل مستقبلاً كجزء من خط حلم الصهيونية فان إسرائيل ستكون بحاجة للمعونة الخارجية سيما من الولايات المتحدة وهي لتحقيق هذا المسعى عليها ان تتوقف عن احتلال واستعمار الأراضي .

إن المعضلة الإسرائيلية بسيطة بيد أنها غاية القسوة ان تمضي قدماً مع الصهيونية كما كان شأنها في الوجود دوماً . أو أن تنهيا لتضحى بالروح الصهيونية التقليدية في الهجرة على مذبح الأرض وأن تنسى السلام .

الخاتمة

ستجد إسرائيل نفسها في هذا العقد الأخير من الألف الثاني للميلاد أمام مفترق طرق حاسم من تاريخ وجودها القصير، فهي عليها أن تحت الخطى صوب عتبة القرن الواحد والعشرين كما فعل هذا بقية العالم الذي شمر عن ساعديه ليستقبل المتغيرات الجديدة ويتكيف معها. لقد فقدت أغلب الهويات السياسية والاجتماعية القديمة داخل إسرائيل أنسابها. فنحن ننظر الى أكبر حزبي إسرائيل السياسيين في إطار (اليمن) و (اليسار) أو المحافظ والاشتراكي. بيد أن الواقع يقول انهما استحالا الى سوقين كبيرين للايديولوجية فكليةما لديه بعض مما لدى الآخر وبات بمقدورنا الآن أن نرى بين صفوف الليكود بعضاً من الاشتراكية العتيقة الطراز والاستعداد للاتفاق مع الفلسطينيين. بينما نتطلع الى العمال فنراه أصبح موطناً للرأسمالية القديمة والتطرفية حيال الفلسطينيين والقومية الراديكالية. كما بهت ضياء الانقسامية بين السفارديم والأشكينايز. أما الطبقة الاجتماعية الاسرائيلية الجديدة فتقوم على الدخل الشهري ومستوى المعيشة أكثر من قيامها على العرقية.

إن المشكلة الأكثر تردداً في مواجهتها لإسرائيل اليوم وغداً هي كيفية رأب الصدع أو تخفيف حدة التوتر بين إسرائيل والفلسطينيين والأقطار العربية. لقد شاركت إسرائيل في مؤتمر مدريد للسلام الذي عقد في تشرين الثاني عام ١٩٩١. بيد أن سخرية الحضور الإسرائيلي في مؤتمر مدريد هو مشاركة رئيس وزراءها الأكثر يمينية الا وهو اسحق شامير فهو لم يكن راغباً برغم ظهوره على الشاشة في تغيير سياسته

الاستيطانية في الأراضي المحتلة او تعزيز عملية السلام . بيد أن خطوات جريئة قد تم تخطيطها بعد انتخاب الحكومة الجديدة برئاسة راين واستعداده لتقديم تنازلات الى الفلسطينيين والسوريين ، فلم يعد هناك تردد من اتخاذ قرار شجاع وجوهري والا وجدت إسرائيل نفسها بين أنقاض تغييرات وتطورات السياسة الجديدة وهي ستجد نفسها بدلاً من أن تواكب مسيرة التاريخ قابضة خلف ستاراته او أسوأ من هذا ان اضلت وجهتها السياسية وغاصت حتى الركب .

لقد أوضحت تجارب الماضي أن قادة إسرائيل والصهيونية كانوا دوماً واقعيين وانهم تفاعلوا مع الحياة وفق هذه الواقعية وبأن إسرائيل كانت دوماً متعاونة وتجد القوة حتى في أعتى لحظاتها لتنهض من جديد ، وربما كان فوز العمال في الانتخابات الأخيرة تفاعلاً مع هذا الاتجاه . وكان قادة إسرائيل في أحيان معينة متعنتين صليين في مسعاهم للإبقاء على موقع يتعذر احتلاله كحال شامير ومائير بيد أن بعضهم كحال بن غوريون ويغن وحيثما تطلب الموقف ذلك أظهروا بعضاً من المرونة والاعتدال . إن حيزاً للتفاوض ما برح قائماً .

الفهرس

الصفحة	الموضوع	الفصل
٣	مقدمة المترجم	المقدمة
٧	ساحة الحرب كل معتقد قدم	توطئة
٢١	حب الهجرة ومقت المهاجرين	الأول
٣٣	الصهيونية: حلم الأمس وواقع اليوم	الثاني
٤٧	بناء الأمة	الثالث
٦٩	بين الحرب والسلام	الرابع
٩٣	استبدال الحرس	الخامس
١١٩	ثورة اليهود الشرقيين الخفية	السادس
١٣٣	نحن نثق بالله	السابع
١٦١	ثقافة الدفاع	الثامن
١٧٧	نشوء التطرفية السياسية	التاسع
١٨٩	عربنا	العاشر
٢٠٥	العرب الآخرون	الحادي عشر
٢١٩	نهاية الحلم	الثاني عشر
٢٢٧	أعراض السوبارو	الثالث عشر
٢٣٧	خاتمة الكتاب	الخاتمة
٢٣٩		الفهرس

To: www.al-mostafa.com